أرض الأرجوان

غنوة فضة

مكتبة

رواية

فواصل

أرض الأرجوان

أرض الأرجوان

تأليف: غنوة فضة

الطبعة الأولى: 2022

ISBN: 978_9933_634_36_0

جميع الحقوق محفوظة ©copyright

تصميم الغلاف: قهوة غرافيكس

فواصل
للنشر و التوزيع

اللاذقية، سوريا، هاتف: 2400126/7 (41)963+

البريد الالكتروني: info@darfawasel.com

يمكنكم زيارتنا عبر موقعنا الالكتروني

www.darfawasel.com

مكتبة
t.me/soramnqraa

15 6 23

مكتبة | 1205

غنوة فضة

أرض الأرجوان

(رواية)

فواصل
للنشر والتوزيع

إلى وسيم...

أسماء الشخصيات ضمن الرواية من وحي الخيال، وأي تشابه مع شخصيات من عالم اليوم هو محض صدفة، ولو حدث تشابه فهو خارج عن أي قصد ولا يُعنى بها شخصٌ بعينه.

هكـذا كنـتُ أكتـبُ عنـك؛ لا فصـل بينـكِ وبـين عقلـي المـؤرّق بمـا مضـى، لا فصـل بينـكِ وبـين كلّ حجـر في مدينتـك. هكـذا كنـتُ سـأكتب عنـكِ حـين لم أجـد لحكايـتي منفـداً إلا للخيـال، حـين رحـتُ أتنفـس عـبر تصاويـره وتهويلاتـه... كنـتُ أرسـمُ بعـض ملامـح وجهـكِ علـى أوراقـي، وأسـحبكِ إليّ مـن بينهـنّ لنسـيرَ معـاً بـين أزقـةِ اللاذقيـة وسـاحاتها. أحدّثـكِ عـن كلّ شـيء، وأخاطبـكِ بلهجـةِ الواثقـين لأخـبرك عـن أشـياء حدثـت وأخـرى لم تحـدث بعـد، مـن دون أن أكـترث ليـدي المشـبوكة بيـدك، أو لشـعرك المتـدلي علـى وجهـي كنـتُ أدلـف وإيـاكِ مكتبـةً عتيقـةً، ونخـرجُ حفـاةً، إلا مـن ضحـكاتٍ رنانـةٍ علـى عجـوزٍ احتـار فيمـا لـو كنـا عاشـقين أم إلهـين. لنعـود حـين يحـطّ المسـاء، بعـد أن تكونـي قـد شـكّلتني وفـق تفاصيلـكِ، وأكـون حينـذاك قـد صـرتُ حقـلاً طافحـاً بالخضـرة، هنـاك حيـث تركـتُ فيـكِ خـيرَ مـا بقـي مـني.

إلى أميمة: زوجتي التي لم تكن.
إبراهيم ناصيف (2014)

أرض الأرجوان

-1-

شاطئ راميتا 299 ق.م:

ما الذي يمكن أن يصدرَ عن جوادٍ حُبس ثلاثة أشهرٍ في خنقة الزرائب وعتمة زكائب السفن؟ تجمحُ الأحصنة السود، تهيم حال حصرها مثل أعاصير غاضبة، لا سيما بعد أن تنسى أجسادُها لجمَ السياط وبرودةَ الأرسان اللاذعة، إلا أنّ الفرسَ هابوبو[1] بدت أكثر وداعة وكياسة، فما إن فُتح باب الحظيرة منتصف ذلك النهار، حتى عذرها الجميع، إذ كان خروجها الأولَ بعد شهورٍ قضتها المسكينة خلف السراديب وداخل بطون السفن، ومؤخراً بين جدران الإصطبلات الجديدة حيث قرر سيدها العجوز بارسينو[2]، تاجر العطور الجابالي، أن يقضي آخر أيام حياته.

طلعت الشمس عالياً، ارتفع صوتُ الأمواج بحنوٍ شبيهٍ بأغاني صبيان المراعي، عندما اندفعت أماليا[3] على صهوة جوادها، وقد منعتها عنه كثرةُ الأسفار بصحبة والدها. كانت سعيدة أيما سعادة بانطلاقها وعودتها لما كانت عليه. وبتحررها من ثقل ملابس النساء والأغطية المزركشة بالنباتات، ومن أساور العاج وقلائد الياقوت التي أهداها والدها عبر رحلاته الرابحة.

1 هابوبو: اسم آراميّ قديم معناه الوردة
2 بارسينو: اسم آرامي معناه ابن القمر.
3 أماليا: اللطيفة باليونانية القديمة

مكتبة
t.me/soramnqraa

كان العجـوز التاجـر يافعـاً حـين غـادر قريتـه الصغيرة "جابـالا"[4]. غادرهـا مـع ذويـه، وَاسـتقر في جزيـرة كريـت، تـزوج هنـاك والدتهـا الـتي رحلـت مبكـراً. وقـد دفعـه الفقـدُ للوقـوع فريسـةً للترحـال والتنقل. مـرت السـنوات وهـو يصغـي لتلـك الرغبـة المشـتعلة بالعـودة إلى أرض الأجـداد. عـزم العقـد علـى الرحلـة الأخـيرة؛ بـاع مـا يملكـه مـن عطـور وأقمشـة وحلـيّ، جائـلاً بـين المـدن والبحـار قبـل الوصـول لمحطتـه الأخـيرة علـى شـواطئ راميتـا. فقـد أشـيع بعـد الحـرب بعـودة مينائهـا للعمـل علـى السـواحل الكنعانيـة.

في تلـك اللحظـات الصيفيـة المنعشـة، آثـرت أماليـا ألا تفكـر بالأيـام القادمـة وتركـت لنفسـها الانتشـاء بالنسـيم، مسـتمتعةً بلـذة العـدو علـى ظهـر فرسـها. لقـد عـادت أماليـا، الفارسـة، ترتـدي رداء الفرسـان، تهـزأ بنظـرات النسـوة اللاتـي جَرَيْنَ بألسـنتهنّ علـى جسـدها. لم تعتـد سـتره، مـا خـلا سـروالاً جلديـاً غامقـاً حتـى الركبتـين، مـع حـزام نحاسـيّ توسّـط خصرهـا الناحـل، إلا أنّهـا، وعمـلاً بنصائـح أبيهـا، ومراعـاةً لجِدّة المـكان وغرابتـه، فقـد أطالتـهُ هـذا الصبـاح. رفعـت قصبـة حذائهـا حتـى غطـت بيـاض جلدهـا الناعـم، وخرجـت جامحـة راضيـة، مثـل بـرق هبـط علـى السـهوب والشـواطئ المطلـة علـى البحـر الكبـير.

مضـى الوقـت سـريعاً، ولم تأخـذ بـالاً لتحذيـرات بارسـينو بعـدم الابتعـاد خـارج الحـدود المرسـومة للمدينـة، تلـك الـتي ينتظـر كثـيرون الغدَ لوضـع لبناتهـا الأولى. بينمـا انشـغل الميناء العتيـق، ومـا يحيـط بـه مـن أراضٍ وقرويـين وسـكان ووافديـن، بالقـداس المقبـل، كانـت شـواطئ راميتـا تعـج بالقادمـين الجـدد. رسـت السـفن محملـةً بأرفـع العائـلات

---

4 جابـالا: اسـم فينيقـي لمملكـة ومرفـأ قديـم يعـرف اليـوم باسـم مدينـة جبلـة علـى السـاحل السـوري.

اليونانية والمقدونية نسباً. ترافقهم قوافل من تجارٍ وعطارينَ وصنّاع ودباغي جلودٍ ونجارين وشعراء وفلاسفة. وحيث كانت الفرس تعدو بعيداً كان ثمةَ فوضى طرقت أبواب السماء وأعماق البحار. فقد وصلت وفود الزنوج والعبيد: من نساء للنخاسة والرقص والخدمة، تلحقُ بهنّ أقفاص قرود مخصصة للترفيه والتسلية، إلى جانب فيلةٍ جيء بها عبر البرّ؛ من فلول قوافلَ شاركت القائد سلوقس معاركه وحروبه.

مالت شمس الغروب على بقعٍ غزيرةٍ من العشب، وحولها تسامقت أشجار البلوط ذوات الرؤوس العريضة، والأغصان الوارفة. فكرت أماليا باحتمال أن تكون تلك النباتات قد شهدت الزحف الوئيد لجنود الإسكندر، وخاضت مع البقاع من حولها معارك عنيفة حتى وطئتها اليوم بعد أن أخذ الإنهاك منها كلّ مأخذ. كانت تلك الأشجار تتدلى بأذرعها الملتوية على بساطٍ سميك من عشب أخضر رائع الجمال، وفي بعض المواضع اختلطت بأشجار الصنوبر والسنديان متباين الأشكال، حتى بلغت من الكثافة حدّاً جعلها تحجب أشعة الشمس الغاربة. مساحاتٌ زاهية تشق طريقها وسط تلك الرقاع، وفي بقعةٍ غير بعيدة، بدا لها مكانٌ رحبٌ غير مستور، ظهر كما لو أنه كانٍ مخصصاً لأداء بعض طقوس العبادة قبل زمن بعيد، بينما سكنت على تلك الربى القريبة تلالٌ من صخور خشنة، ضخمة وغير مشذبة، انتصبت مثل شواهد تقتفي دعسات الفرس الجامحة.

كانت غارقة في البهجة، فالمشاهد المتمازجة بين الساحل المعشوشب والبحر المترامي إلى جانب السهول الفسيحة، منحتها أحاسيس مقدسة تشبه ما تشعر به أثناء تقديمها النذور للآلهة،

وها هـي، تنطق باسـم إلـه المراعـي الخصيبـة "بـان"[5] العظيـم، تتـذوق لـذة الحريـة المقدسـة. مـرّ الوقـت سـريعاً حـين بـدأت الرهبـة تتسـلل إلى دواخلهـا. نظـرت جنوبـاً مـن حيـث أتـت، وكانـت فرسـها تلتـف وتـدور. لم تقـدّر المسـافة الـتي قطعتهـا، ولم تـدرك كـم مـن الوقـت مضـى عليهـا. نظـرت عاليـاً نحـو السـماء، لاحظـت أنّ الشـمس بـدأت بالهبـوط. لم تلحـظ الجميلـة قـدومَ غـروبٍ رفقـةَ ظـلام طـرح سـتاره علـى زرقـة المكان. عـادت تنظـر نحـو الجنـوب، لم تجـدْ سـوى سـهول خضـراء، وعلـى الرغـم مـن سيرها بمحـاذاة السـاحل، إلا أنّهـا لم تنتبـه إن كانـت قـد غامـت قليـلاً بـين غابـة هنـا أو دغلٍ هنـاك، فقـد أخذتهـا المشـاهدُ، وغدرَهـا الوقـتُ، وبـدت مـع فرسـها تـدرك حقيقـة مـا حـلّ بهـا. أمعنـت في تقديـر المسـافة مـن عـدد سـاعات غيابهـا، فطنـت إلى وقوعهـا فريسـة الجمـوح والتهـور، في وقـتٍ سـلبها ذاتَهـا جمـالُ الأمكنـة وصـوتُ الغـدران وتـراقـص الأمـواج.

تسـللَ ظـلامٌ داكـن. أوشـك الأفـق الأزرق أن يبتلـع قـرص الشـمس حـين بـدأت تنعـي طيشـها ورعونتهـا، لم يؤرقهـا الضيـاع، ولـولا حلـول المسـاء لقفلـت عائـدةً غـيرَ آبهـةٍ، إلا أنّ الحـرب بـين ورثـة الإسـكندر كانـت قـد انتهـت بالأمـس، ومثلمـا قـدم إلى السـواحل تجـارٌ وصنّـاعٌ وسـادة، فقـد جاءهـا أيضـاً العبيـد والمرتزقـة وبقايـا فلـول الإخمينيـين[6]. علمـت مـن أبيهـا أنّ ثمـة قـرىً مأهولـة بـين التـلال الشـرقية، أحجمـت عـن المضـي قدمـاً، سـيما عندمـا لاحـت بخاطرهـا صـورة والدهـا غاضبـاً بـين الخـدم والحواشـي، حانقـاً بسـبب تأخرهـا. لـن يجـد مـن يسـتمع لشـكواه عـن ابنتـه الطائشـة، ولـن يحظَـى بالمعونـة في وقـتٍ

5 بان: إله المراعي والصيد البري لدى الإغريق القدماء.

6 الإخمينيين: يعود اللقب لأسرة فارسية قديمة حكمت أراضي غرب آسيا وجعلتها إمبراطورية ذات شأن في فترة (559 - 330) ق.م

ينهمك فيه الجميع بالتحضيرات لاحتفالات الغد. ساءها حالها، شدت أصابعها على اللجام بارتباك، وبدا أنّ هابوبو أحستْ بفداحة الوضع، فراحت تصهل وتتشج مبتعدة هنا وهناك. ربتت بيدها على صدغ الفرس في محاولة لتهدئة روعها، همست لها: "هسس... هس...". وهكذا سقط الليل من دون أن تلحظ منفذاً للنجاة، مثلما لم تلحظ التماع بؤرتي ضوءٍ تحدقان فيها مثل شاهدين متربّصين.

غشيها الخوف، وأصابها الوجل برعشةٍ خرجت من معدتها لقمة رأسها. كان رجلاً يانعاً، بل ونصف عارٍ، يستر وسطه برداء يخبر عن صيادٍ أمضى يومه بين الأمواج. وقف أمامها كواحد من تماثيل المعابد بنظراتٍ ملؤها التساؤل، وجسدٍ يبلغ ثلاثة أضعاف جسدها. تسمّرت هابوبو. صمدت أمام الغريب وهمدت، الأمر الذي أثار حفيظتها في وقت كانت بأمسّ الحاجة لمن يعيد لها القوة. وضعت يدها على سيفها بحركة خاطفة، لكنّ الشاب رفع يديه عالياً، وأدار لها ظهره بحركةٍ تشي بالطمأنينة، ثم خطا أمامها نحو الشمال. لم يكن على رأسه غطاء، بل حماهُ شعرٌ كثيف بان تحت أشعة القمر الفضية ملفوحاً بلون الشمس فصار بلون الصدأ، ومالت لحيتهُ إلى اللون العنبريّ. لاحظت أماليا أنّ ما بقي على جسده كان جزءاً واحداً لرداءٍ جلدي بالٍ، ولحظة يقظتها لوحدتها في مكان ناءٍ ومعتم، خرجت عن صمتها ملهوفة بلهجته: هيه... أيّها الشاب!

استدار عائداً، ورغم تمنّعه لما منحتهُ من انطباع بانتماءٍ غريب، إلا أنّ تحدُّثها بلغته أعاده إليها مجيباً بصوت أجشٍ عميق:

- من أين قدمت الغريبة؟

أشارت بيدها نحو الجنوب...

- إذن قدمتِ مع الوافدين الجدد؟

هزت برأسها موافقة...

- مالك لا تنطقين؟

تصاعد الدم إلى رأسها، تحسّست غيظاً جرّاء بلادته، لكنها تماسكت مجيبةً بسكون: أرشدني لطريق العودة نحو الميناءَ العتيق.

- في الليل لا يوجد طريقٌ للعودة...

- ولم لا؟

- التجوال تحت وطأة الظلام فخ كبير، فالموت يخطف كلّ من يصدفه. والقتلة خارجاً أكثر عدداً من عصافيرٍ في حقلِ قمح، فالغابات تعجّ بلصوصٍ لن يوّفروا جميلة مثلك.

أدركتْ صعوبة الموقف، وغزاها القلق. تساءلت كيف تأمن رجلاً غريباً لقيته مصادفة؟ ابتلعت ريقها بصعوبة، ثم همست باستياء: أرجو منك مساعدتي فوالدي عجوز لن يحتمل غيابي.

- تستطيعين المبيت هناك حتى مطلع الشمس حيث أُرسلكِ مع أحد الرعاة إلى الميناء. أشار نحو الشرق بيد تنمّ عن صلابة صَياد عتيق.

نظرت أماليا حيث تتّجه أصابعه. كان الخوف قد منعها من ملاحظة كوخ قصب غير بعيدٍ يطلّ بين وهدتين بعيدتين. نظرت حولها بلا أدنى حيلةٍ، اكتشفتً أنها وضعت نفسها في مأزق جديد، وما من مهرب سوى في إبقاء يدها على سيفها، والانصياع لما يقوله الشاب الذي تفوح منه رائحة البحر والصدق والأسماك الطازجة.

❖❖❖

- هل مرّ الإخمينيون من هنا...؟

أشارت بيدها نحو المصاطب الحجرية المتهتكة عند مدخل

الكوخ. رازها بعينين هادئتين، حمل متاعه مسرِجاً الفرس إلى جانب بلوطةٍ خيّمت على فسحة أمامية، وأجابها بعينين حييّتين كما لو أنّه يوجه اتهاماً خجولاً: ليس فقط الإخمينيون من فعلوا هذا...

كانت لا تزال وجلة، إذ أوشك الليل ينتصف وهي على مبعدة مسيرة نصف يوم عن أبيها. ها هي تبيت بين القفار في كوخٍ مهلهل مع رجلٍ غريب، إلا أنّها لم تجبن، ولم تفارق يدها مقبض سيفها، وحين تنبه لذلك، لم يمنع نفسه من الابتسام بخفة قائلاً: اطمئني... لن يأكلكِ أحدٌ هنا.

لم تأمن له على الرغم من ذلك، بل تحدثت إليه في محاولة لاجتناب جزعها ومواربة شعورها بالذنب:

ـ اسمي أماليا

ـ اللطيفة باليونانية؟

ـ وتعرف لغة اليونان؟

ـ لست وحدكِ من تعلّم لغات الشعوب الأخرى...

استشعرت حنقاً متصاعداً فقررت وضع حدٌ لفجاجته بردها:

ـ ولست وحدكَ من سلبك الإخمينيون بلادك!

ـ إذن؟

تنهدت بعمق وإفلاس، أرخت أصابعها عن مقبض السيف، وقالت فيما عيناها تجولان المكان:

ـ والدي من هذي القفار. هرب مع أسرته حين كانوا يعملون في معاصر الزيت الحجرية في تلال جابالا جنوباً. وقد دفعتهم

مضايقات الإخمينين للنزوح إلى تساليا[7] بعدئذ استقر مع ذويه في كريتَ. حيث فقدتُ أمي.

هدأت سريرته، قرر أن يتلطف بضيفته التائهة، فقال بصوت خفيض:

- اسمي جايون.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- العفيفُ بالآرامية؟

- نعم... وهي لا تسمى قفاراً...

بدا لها يحمل أسرار البحر على وجهه مثل جميع سكان السواحل.

نهض في وقفة تنذر بقرب انتهاء الحديث، وأشعل النار أمام المصطبة عند العتبة. كانت بدايةً غير ودية لأول من صادفتهم في أرض أبيها. راقبتهُ حين أخرج من سلته سمكتين طازجتين، غسلهما بماء جرة قريبة، بينما رازت عيناها بحَذر تفاصيلَ المكان، وجدت الكثير من الأوعية الفضية، أحبال للغسيل وأقمشة وأصواف، قدورٌ فخارية ومخدع قطنيّ مجلل بالكتان الأرجواني، أوراقٌ من البردي، ولفائف استغربت وجودها في مثل ذلك المكان البريّ. فكرت في نفسها أن الصيادين من حيث أتت لا يقرؤون. ثم لاحظت جلوداً مدبوغة، وأرياشاً ومحابرَ وأختاماً، أقصابَ صيدٍ وسلال، أصدافاً فارغة بأحجام راعها كبرها، جرارَ قمح وشعير. وجدت نفسها تنهض لتلمّسِ بعض الأصداف اللولبية العملاقة. كان يراقب تحركاتها بطرف عينه بينما يغرز قصبتين في جسد السمكتين، ويقلبهما بخفة ومهارة.

---

7 تساليا: منطقة جغرافية وسط بلاد اليونان.

سـألت بصـوت مشـبع بالفضـول، فيمـا تجـس صدفـة بحجـم قبضتهـا :

ـ هل تعيش وحدك؟

ـ لا . لست وحدي.

نظرت حولها وأجابته بهزءٍ مثل من يحرز هدفاً انتظره طويلاً:

ـ لكني لا أرى أحداً معك...

ـ لأنّ الليل يغشي البصر، والعين صيادٌ أعمى تضلّ صاحبها .

أسرت لنفسها : لا يبدو صياداً عادياً .

سألت مجدداً : ما هذه؟

ـ صدفة الميوريكس.

ـ ها ... الأرجوان...

ـ نعم

ـ أتصطادها بنفسك؟

رفـع يده نحـو البحـر، وأشـار بيدٍ فيمـا اليـد الأخـرى كانـت تقلّب سمكةً شـارفت علـى النضـوج: هنـاك... عنـد الفجـر... أجدهـا بغزارة.

ـ وبعد؟

زفر بعمقٍ وتثاقل، أسر لنفسه هامساً : فلتنقذني السماء...

ـ أنقعهـا في تلـك الأحـواض إلى أن يخـرج الرّاسـب منهـا، ثـمّ أستخلصه بعد تجفيفه تمهيداً لتوزيعه على الأصواف والمنسوجات. أرشـه بالملـح بـين حـين وآخـر وهكـذا... يبقـى أيامـاً منقوعـاً في رواسـب الموريكس حتـى تصطبـغ بلونـه، ثـم أنشـرها خارجـاً في الهواء الطلق.

زفرت بتعجب ومباهاة: صبغة الفينيق الشهيرة...

ـأجل... صنعة الأجداد، ومعجزة تجوال الإله ملكارت[8] وحوريته على سواحل فينيقية.

نضجت السمكتان، نهض حاملاً صحافاً فخاريةً مُلئت بحساء القمح. قدم السمك إلى جانبها، ثمّ جلس على أرض العتبة يلتهم طعامه بصمت.

كان لقاؤها منهكاً، فقد تخلّى عن مخالطة الناس قبل زمن طويل. حدث ذلك منذ أن قُتل والداه قبل سنوات. بعد نجاته بأعجوبة هجر النساء وعاشر الطبيعة والبحر، إلى أن اقتحمت تلكم الفتاة نصف المحلية خلوته الهانئة. لن يمر وقت طويل قبل أن تطلع الشمس ويجد لها طريقاً إلى الميناء العتيق. وكم يودّ لو ترحل، فقد أضاعَ قدرته على محادثة مسافري الطرقات وعابريها، لكن قلبه يحدثه بأنّ زيارتها المباغتة لن تكون زيارة يتيمة. كان شبه منطفئ، فمذ قتلت عائلته في الحرب الأخيرة، احترق كلّ شيء في داخله، مثلما احترق مرتع طفولته من غابات الصنوبر والسنديان المتاخمة لكوخه. كان في العاشرة حين لفظ والده أنفاسه الأخيرة بين الجثث والأجساد المبتورة على طول الشاطئ البحري.

لم ينسَ اضطراب أبيه في تلك اللحظات الساخنة، قبل أن تداهمهم مجموعة ملثمين. مضى الأب المصاب يلملم أشياء خبأها خلف الجدران، وتحت المصاطب. كانت أشياؤه تنبت من تحت التراب، ومن بين شقوق الأشجار. خرج ما جعل الطفل

8 ملكارت: من لقى مملكة عمريت قرب مدينة طرطوس على الساحل السوري، وهو إله الشفاء للشعوب الفينيقية الكنعانية.

يغفل عن آثار المقتلة حوله. صرخ بصوت خفيض: جايون... إلى الحفرة يا بني...

في كوةٍ شبيهةٍ بفتحات الكهوف السفلية، وجدَ ما لم يحده خياله: أوانيَ فخاريةً، رُقماً وأحفورات معلقة بمسامير فولاذية. أفاريزَ لنوافذ بدت خارجة من الأزل، ومستعملاتٌ ملكية كقفطان أرجوانيّ بالٍ ونقودٍ صكّت بوجوه أباطرة قدامى، وأخرى برسومات لأصداف الموريكس. منحوتات وتصاوير لملكة آفلة، مخطوطات وجلوداً وأوراق برديّ محفوظة ضمن أساطين حجرية. لم يكن لطفل في العاشرة أن يدرك ما تعنيه تلك الأشياء المغبرّة والموحلة، كما لم يكن قبل تلك الليلة يلقي بالاً لأشياء أبيه المتناثرة. لم ينسها؛ آثار تلك الأصابع تشدّ على زنديه. صوت الألم الطاغي على دهشة الطفل ورهبته من اتساع المكان المودع داخله. ما زال يذكر شعوره بالاتساع؛ لم تكن حفرةً بقدر ما كانت تشبه مدفناً مهيباً، أو فماً عملاقاً انهمك الأب بملئه عبر السنوات الطويلة، لقد بدا مكاناً معدّاً لمثل تلك الهجمات، وكأنّ من صنعه أراد حفظ ذاكرة ألف سنة، رفع الرفوف، وصفّ الجرار المنقوشة بعناقيد العنب وعرائش التوت البري. مازال يذكر رائحة الغبار الشبيهة برائحة القبور، كما لم ينسَ أثر الجزع في عيني والده وصوته الذي انبرى راجياً:

"ربما لن أراك بعد الآن يا بني... لكن انظر حولك..."

كان يتألم ويعض بطرف كمّه على وجع بدا جلياً لطفلٍ. راعه ألم أبيه أكثر ممّا كان يجري حوله من معارك.

"انظر حولك يا جايون... هذا كلّ ما بقي من أبي ومن أجدادنا جميعاً... حافظ على هذا المكان. إنّه نحن قبل أن تنهب شعوب البر

والبحر أسماءنا ووجوهنا، ولا تخبر أحداً بسرّنا، أُفضّل أن أموت على أن ينهب الغرباء آخر ما تبقّى منا. ها أنتَ منذ الآن حارس المملكة القديمة". أعطاه خنجراً مسنوناً، وعصا غليظة فبدا مثل حارس حقيقي. أجلسه أمام بوابة الحفرة مُموّهاً إياه بشجيرات صغيرات. نظر إلى عينيه نظرةً علم الطفل أنّها نظرة أب يودّع طفله، حاول في سبيل إسعاده أن يبدو أمامه رابط الجأش. أمسك بعصاه وخنجره وعبس مثل من لا يعبأ بالخراب الهائل، قبّله على جبينه وقال له: سأخرج الآن... وداعاً يا بني.

انتصف الليل عندما خرج من فضّ ذكرياته غائم الوجه مجمّر العينين. كانت تلك حياتهُ التي صنعتها الذكرياتُ والحذر، أبعدتهُ عن كلّ ما يمكن أن ينيرها، لكنّ صوتاً صدر عن الغريبة أيقظه، أسقطت معولاً حجرياً دوّى صوت ارتطامه عالياً، فاندفع إليها مبدياً نفاد صبره. التقطهُ وصوتها يوارب عن حيائه: يبدو معولاً خارجاً من كهفٍ سفليّ...

لم يجبها، بل تركها غارقة بعين الشك والتساؤل، وهو إذ التقطه، تحسّس حرارة ودفئاً غير معهودين. كانت لمسةً أيقظت في داخله كلّ ما كان نائماً، أشعلت ناراً مطفأة، وأطلقت ما أخفاه في أبعد نقطة من أعماقه. لقد شعر بذلك الاحتكاك السريع بجلدها الأبيض الناعم. كانت لمسةً تشبهُ تحسّسَ الماء والنسيم عند فجر ندي. لجم نفسه. أعادها لتعففها القديم، آثر ألا يحدثها بعد أن ضاق صدره بشيءٍ من الغيظ، فهذه المرأة لا تشبه ما يعرفه عن النساء، بها من الرجال أكثر ممّا بها من النساء، على الرغم من أنّها على قدر عال من الجمال.

أشار بيده إلى مخدع صوفي مركون إلى زاوية الكوخ، وخرج نحو

شجرتي سنديان ظاهرتين من فتحة الباب، التقط عنهما نسيجاً افترش به الأرض، وسرعان ما بان جسده يعلو ويهبط غارقاً في نوم عميق.

عندما فتحت عينيها في الصباح، كان إلى جانبها طبق يفيض بالعنب البري الطازج. لم تجد أثراً للشاب. خرجت من الكوخ، فداهمتها روائح الصباح وكأنّها في الجنة. كان البحر يتمدد تحت شمس وليدة مثل قفطان مرصّع بالمرمر، والزبد الأبيض يتزاحم لوطء الرمال. ارتفعت شمس الجبال شرقاً ترسم حدوداً خضراء يانعة عند نهاية الأفق. دارت حول المكان، تلفحها نسائم الصنوبر والسنديان والأعشاب البرية. شاهدت فسحة ترابية تكسوها نباتات مزروعة حديثاً وعرائش للعنب، لم تجد لجايون أثراً، وحين التفتت إلى الغرب، بعيداً حيث اتسعت زرقة أبدية، لقيتهُ مثل نقطة في صفحة الماء، شعرت بالرهبة وهو يجدف بقاربه نحو الشاطئ، فيما بدت لها آثارٌ لجزرٍ صغيرة لم تلحظها في غمرة التيه أمس، خمّنت في سرها أنها بقعة صيده لأصدافه. تنبهت بأنّ عليها الإسراع في العودة، فميعاد الاحتفال الكبير بات قريباً، وربما وصل المظفر مع حاشيته بعد أن هُيّئت فسحةُ الصلاة المتنظرة، ثم هناك والدها الذي سيقابلها بوجهٍ لا تحمد عقباه. لكنها ستعرف كيف تقبل رأسه ووجهه لتنسيه غيابها السعيد هذا.

في طريق العودة، كانت تمتطي ظهر هابوبو، وتلتفتُ نحو الوراء. لقد قاوم دعوتها لحضور الحفل، شعرت لحظتذاك بوقوفه حائراً بين أن يبقى في كوخه، أو يحطم ذاته ليلجَ أرضاً جديدة. راقبته عن بعد، وكان برفقتها راعٍ صموت مع غنيماته العشر. أشاح بوجهه مبدياً الانشغال بفأس وجذع شجرة يابس، لكنّ حسّ المغامرة بدأ

ينبئها بعودتها القريبة. التفتت مجدداً، كان جسده ينهالُ على الجذع محطماً أجزاءه عوضاً عن قطعتين متناسبتين. بدا كل شيء في داخله الكتيمة يصرخ، كانت قافلة من ذئابٍ برية تُنشد: علّها تعود...

غرفة الذعر

خدمتُ في هذا المنزل مدةً طويلةً تدفعني لأُقسم بأني، وبكلّ ما فيّ من ثقةٍ عهدها بي سكان البلدة، وبكلّ ما عشته من أيام بين بساتينها وطرقاتها، لم أرَ مشهداً مريعاً مثل الحدث أمام ناظريّ، لا في الخيال ولا في الأفلام الهوليودية. كنت مختبئاً في مكان سري، أتكوم على نفسي مثل فضيحة، أرتعش بين جدران ركن مائلٍ في مساحةٍ لا تتعدّى مترين بمترين، وتصل بين عمودين يسترهما بابٌ خشبيٌ ليس به شيءٌ ممّا في البوابات أو النوافذ. فالناظر من الخارج يظنّهُ جداراً مكسواً بالأخشاب التي تُزين جدران الأروقة والصالات في المنازل الراقية. المساحة ضيقة، كدتُ أختنق، ولولا كوة صغيرة للتهوية أسفل الجدار، لصرتُ جثة هامدة، إضافة لأخرى دقيقةً، تبدو من الخارج مرآة عاكسة؛ أتاحت لي مراقبة ما يحدث.

من كان يتوقع أن تؤول الأحوال لما صارت عليه؟ كنا غارقين في بلادة هانئة قبل مطلع ذلك العام. قد يتساءل سائلٌ عن سبب تصميم مخبأ من هذا النوع داخل المنزل، فهو لائق بالحروب أكثر مما يليق بمنزل هادئ، تجلل جدرانه والكتب والتماثيل والصلبان. لم أعهد وجوداً للسلام والسكينة كما فيه، إلا أنّ السيد الذي كنتُ أخدم عنده، وأقول كنتُ لأنّني قبل يومين فقدتهُ أمام ناظريّ، ولا أظنه حياً. وفي الحقيقة كان هو من هيأ تلك الفسحة السرية، ليس لإخفاء بشريّ، بل للحفاظ على أشيائه التي عمل عليها طوال حياته.

أذكرهُ كما أحفظ حروف اسمي؛ منكبّاً على طاولته، نظاراتهُ تعلو أنفه، أوراقه مبعثرة وكتبه مفتوحة كلوحة عبثية، أحماضٌ سرية مقرونة بنظرات ظفر آسرة، لا أقرباء أو أصدقاء يُستقبَلون في المنزل. بل تواجدٌ أبديٌ للجمال، صنع عالمه كما أراد، تحفٌ وتماثيل ولوحاتٌ نادرة زينت غرفه وصالاته. كان ذاك هو الدكتور إبراهيم ناصيف ابن قريتي، الغسانية، باحث معروف في التاريخ. عازفٌ عن الزواج، متذرعاً بضيق الوقت والجزع من الاقتران بمحبوبته. جعلني صديقه المقرب، وقد رافقته خلال السنوات العشر الآفلات كظلّه، ولكوني شبهَ أميّ لا أكاد أفكّ الحرف، ومدقعاً في البؤس والفقر، كنت أستغرب شكل علاقته بي، ورغبته في جعلي بيتاً لأسراره.

علمني القراءة والكتابة، ومع مرور الوقت بتّ أدرك قيمة الأشياء المصطفة بين جدران المنزل: "الزمن يسير. لا يتوقف... علينا أن نصنع وقفاته بيدنا. الزمن مختالٌ أيها الحبيب سركيس، علينا أن نطبع على وجهه بصمات أصابعنا، أن يذعن لسماع أصواتنا...". هذا ما كان يردّده السيد دائماً.

صوتُ مدافع تقترب؛ يبدو أنّ اشتباكاً آخرَ يدنو إلى الربوة القريبة...

يبدو المشهد من الكوة السفلية مرعباً؛ غبارٌ يعلوه غبار، أجسادٌ مبتورة ملقاة على نواصي الطرقات. وثمة آثار لمعركةٍ رحلت تاركة رائحة قتلاها. مضى يومٌ ونصف وأنا في مكاني. منذ دهمت فصائلٌ متشددة تخوم البلدات المجاورة تنبّأنا بالكارثة. ثارت مناوشاتٌ بين مقاتليها وجنود الجيش النظاميّ، إلا أنّنا لم نرسم في مخيلاتنا هولَ المشهد. سمعتُ إثر اختطاف السيد أصواتَ الناس تنعى احتراق

الدير والكنيسة، وتناهى إليّ من بين كروم اللوز المجاورة خبر مقتل الأب فرانسوا راهب دير العامودين. إلى جانب شبّانٍ ذبحوا بتهمة الاتصال بجهاتٍ معادية أو التكفير وغيرها من ذرائع ضبابية...

قبيل الجائحة صودرت بلدات مجاورة، نُهبت أراض وكروم، وشُرد سكان كثر. خرابٌ أسود حلّ مكان الخضار القاني، خيّم لونٌ رماديّ على سماء البلدة، وبعدئذ بدأت مضايقات على ممارسة الصلوات في الكنيسة، ثم أغلقوها درءاً للفتن. أتذكر كيف مرّ عيد السيدة صامتاً دون صلاة تذكر. أعود لزاويتي في الركن الضيق. كنت أدخله مرة واحدة في الأسبوع لتنظيفه وطرد الغبار عن محتوياته. لا أقترب ممّا لا يُمسّ؛ من رفوف تتراكم فوقها الكتب النادرة، إلى طاولة بأدراج سفلية تعوم بالمقتنيات التي جمعها السيد من رحلاته. كانت غرفة أشيائه الحبيبة، عزَّ عليه إفشاء أمرها لأحد، وَأكاد أجزم أنّها وراء مقتله، فعندما ارتجفت أوصالي قبل يومين، شاهدتُ من العدسة الصغيرة ما فعلهُ به الخاطفون. ألقوا عليه أسئلةً غريبة، استجوبوه مثل من يستجوب لصّاً، طرحوه أرضاً، ولم تسعفه سنواته الخمسون من سياط قسوتهم، شتموه، وصفوهُ بالزنديق. اقترب لحظتذاك ملتحٍ ملثم، كالَ له اللكمات وأجبره على الإفصاح عن كنوزه. كان قلبي يرتعد، وأوصالي تتقطع. لم أجرؤ على الخروج، ولا عزم نصرني لمؤازرة الإنسان الذي آواني وعلمني وجعل مني تكويناً كاملاً. كنت وحيداً في وجه العاصفة، فيما آخران يقلبان المنزل رأساً على عقب، ويكسران التماثيل والصلبان. هشما اللوحات وصور العذراء. أذكر ما فعلوه بلوحته الأعز. كانت تصوّر مرض ملك سلوقي تحيطه جمهرة من الكهنة والأمراء، إلى جانبه أميرة عظيمة الشأن. كان يتأوّه بين أيديهم مثل غزال جريح، يرى عمره محطّماً أمام ناظريه. يئسوا من صمته،

فاقتادوه جراً إلى الخارج، وبعدئذ، هدأ كل شيء...

غاب السيد إبراهيم... اختفى من دون أن يلتفت الزمن برأسه إليه...

الجوع يقرص معدتي، يبدو المنزل خالياً، لكني لا أجرؤ على الخروج، أكاد أشبه امرأة رأيتها في فيلم مع السيد، كانت تختبئ مع طفلتها في غرفة سرية من لصوص احتلوا منزلها. حالي مثل حالها، إلا أنّني لا أمتلك كاميرات وعدسات مكبرة ولا ابنة تحتضر في سبيل حقنة لخفض سكر الدم. لذا سأبقى، سأنسى أمر جوعي، وأحتمل ضيق المكان حتى أستطيع الخروج.

أتلهّى بما يحيط بي من لوحات صغيرة بحجم كتاب، وجرتان منقوشتان، أوراق مرتبة بعناية وملفات مصنفة حسب ترتيب عناوينها الأبجدي، إلا أنّ شيئاً آخر عالياً لفت نظري، شيئاً مختلفاً بلون أرجواني غامق، رافضاً قتامة الغبار المتكدس. بدا شيئاً يضج بالحياة. وضعتُ كرسيّي أنشد ضالتي. كان موضوعاً بعناية، برتابةٍ تشي بندرتهِ وغربته عن المكان، إلا أن الرف عالٍ وقامتي صغيرة، ولو مددت ذراعيّ بشكل عرضاني لارتطمتا بجدارَي الفسحة. كثيراً ما عابثني السيد ضاحكاً؛ كثرة النوم والتكاسل أعاقت نموك وطول قامتك يا سركيس. هذا ما كان يتندر به عليّ ثم يضحك حتى يملأ صدى ضحكاته أطرافَ الدار الواسعة. أرتفعُ مجدداً على أطراف أصابعي، أراكم بضعة كتب فوق بعضها. ألتقط العلبة أخيراً. إلا أنّ وابل رصاص قريب يصيبني بالرعشة، أتعثر، وأكاد أقع، تنقذني ضآلة الغرفة وقربُ جدرانِها. فأمتلئ برائحة البارود المحترق.

عالجتُ علبة مغلقة، مصبوغة بلون الأرجوان، بدت سهلة الفتح،

بواسطة قلم فتحت قفلها، فانفرجت عن ذاتها. أذكرها الآن جيداً؛ كانت من بين أشياء ثمينة عادت مع السيد من سفرته الأخيرة التي وصفها بأهم رحلاته، ونهايةً منحته ما قدّمهُ عمرٌ من البحث والتنقيب. ذكر السيد أن سرّه الأعز بات بين يديه، وذكر شيئاً عن قرية تدعى "ليفكارا" أمضى بين ربوعها شهوراً بصحبة صديقه اليونانيّ مستر ألفونس. تحدث عنها مثل طفل فرِح، في تلك الليلة الشتائية الباردة، كانت الثلوج تجلّل أرض الغسانية وبساتينها، فيما بانت أشجار اللوز عاريةً مثل راقصات نحيلات، بدت رؤوسها تحت أضواء الليالي الشتائية المقمرة مثل أصابع تتمايل مع اتجاه الريح. كنت ليلتذاك أحفظ ما يرتسم على وجهه من تعابير، ذلك الحبور المحفز، والنظرات الراقصة. وجهه الطافح بالبشاشة، وكلماته المندفعة، مع صوته الهادر المتنقل بين أرجاء المنزل بخفة، قامته الوثابة من جنب لآخر فيما قلمه يتنقل بين أصابعه بحركاتٍ بهلوانية:

"لقد كان حصاداً حافلاً يا سركيس... حصلتُ في ليفكارا على حلقة مفقودة لحكايتي... انظر".

كشف عن أوراق مطبوعة، وصورٍ بالأبيض والأسود، مقتنيات أسماها أوابد، وإذ أحس بتركيز نظراتي عليها قال: "نعم... نعم يا سركيس، داخل الجرة التي كبرت صورتها وجدنا ضالتنا... إنّه سرنا الأبدي أنا وألفونس... وها أنت ثالثنا تحصل على رواية مكتوبة على جلود الماعز بعمر يناهز ألفي عام. رباه... تخيل ذلك". ثمّ ضرب على جبهته مثل من أصابه مسّ، وأكمل: "تخيل... أهناك مجدٌ أبهى؟ أيوجد في العالم أهم وأكبر من دراسة أحداثها وترجمة ما أرسله القدر إلينا، الإعلان عن حكاية حدثت على ساحل بلادنا وعُثر عليها في ليفكارا؟".

اقتربتُ أكثر. تبينتُ حال الصور، لفائف رمادية هالكة. قرّبت الأوراق من وجهي، حاولت فك طلاسم أحرف أعجمية معرّجة ومنحنيات غريبة، لم أعِ سوى تصاوير لجعبة مصنوعة من جلد غريب وأخرى مدفونة داخل جرة حجرية.

"لا تشغل نفسك بها يا عزيزي سركيس... ليست كتابة عربية. هنا تبدأ مهمتي. فالآرامية عليّ واليونانية القديمة على كاهل ألفونس، سنترجم معاً، ونعلن سويّاً اكتشافنا بعد أن نرتق الثغرات في النص الأصليّ، ثم لا تنسَ أيها الحبيب، أنّ السيد ألفونس لن يتمكّن من الاستغناء عني، فهو يدرك في قرارة نفسه أنّ أسرار الساحل ملك يدي، مثلما يدرك أنّ ما من سرّ أو أثر أو حكاية لرقعة فينيقية أو معلم آرامي إلا ومحّصته ودرست أصول حدوثه وكيفية وصوله حتى ألفت به وكتبت عنه. ياه يا سركيس... أتتخيل حجم المعلومات التي من الممكن أن نعرفها عن الأجداد؟ ثمّ إنّ ألفونس...".

يسعل على أثر تعجله وتشجعه في السرد، ويتابع مهتاجاً: "ثم إنّ ألفونس يرى أنّ جزء النص المكتوب باليونانية القديمة ممحوّ، لكنه استطاع من خلال الجمع والتدقيق بين بعض الأجزاء المبعثرة، من افتراض ماهية نصه. وهي قصة حب عظيمة يا سركيس، أتدرك ما يمكن أن تقدمه لنا قصة حب عمرها قرون؟ وهل هناك أصدق من المحبين وقصصهم لتعطينا مؤشرات شفافة عن التاريخ الغامض؟ هل هناك ما يمنحنا حياة أخرى ويرسم التصاوير الحقيقية عما كان يحدث هناك كالحب؟".

"هناك يا سركيس...". ثم أرسل يده عالياً خلف ظهره، لأنظر

نحو النافذة، دون أن أعي ما هو هذا "**الهناك**"، إلا أنّه بدا من رطانة صوته مكاناً مقدساً يشبه الصلوات الطاهرة، دققتُ حيث أشارت أصابعه خلف ظهره، فلم أرَ شيئاً سوى قمر الشتاء الشاحب، ورؤوس أشجار اللوز العارية، وثلوج الغسانية.

أفتح العلبة بتروٍ، لا لأعرف ما بداخلها، إنّما إكراماً لذكرى السيد، فقد أكرمني. انعزل عن العالم ولم يختلط بسكان البلدة ما عداي، وعدا عثمان... كان عثمان شاباً أكثر فقرا مني، وقد عطف عليه أهل القرية في أوقات الأعياد وبعد صلوات الآحاد، قدموا له الخبز والفاكهة وكل ما يسدّ جوعه، بعضهم منحه المال لستر فاقته، وملابس نظيفة عوضاً عمّا ارتداه من بلى فائحةٍ بالقمامة التي كان يحملها من عتبات المنازل إلى مكانها المخصص. لم يعلم أحد من أين جاء، ربما من قريةٍ مجاورة، لكنه كان يتردد على منزل السيد مراراً، فقد عطف لحالهِ، وأزجاهُ الطعام والمال والملابس النظيفة. لن يصدق أحد من سكان البلدة، أنّه بعد اختفائه لسنوات، شاهدتُهُ ثانيةً في أكثر المشاهد غرابة. لقد كان ملتحياً بشَعر غطى وجهه وتدلّى حتى منتصف صدره، جلل رأسه بعمامة كبيرة نمت تحتها وجنتان نضاحتان. هذا ما رأيتهُ من مكاني هنا، فقد قاد عثمان الملثمين لمداهمة منازل القرية، لا سيما منزل السيد...

علمتُ بعدئذٍ أنّ عثمان عاد إلى القرية زعيماً، وكان عارفاً بدواخل البلدة ومخارجها. فدخل المنزل، واعتدى مع جماعته بالضرب على السيد حين اختبأتُ مثل هرّ في كوّتي. كان يوارب عن كلّ ما يحتويه المنزل من كنوز. لم يأتِ سارقاً. بل دار وفتش كمن يبحث عن ضالته، وبعد يأسه، هدّد السيد بأصوات مبهمة، ذكر له كلّ صور التعذيب التي من الممكن أن يفعلها به، لكن السيد

المجلّل بدمه ظل متمسكاً بصمته. جرّه الرجال نحو الخارج، وبعدها لا أعلم ما حدث، سوى أنّ عثمان، كما تناهى إلى مسامعي ليلتذاك صار أميراً...

في تلك الليلة سمعت صوت رصاص عالٍ، وكأن مبنى بحاله ينقضّ على نفسه... أعود للعلبة. هل كانت ضالةً عثمان؟ أيوجدُ من يعلم بسرّ السيد غيري ومستر ألفونس؟ أتوجد أذرعٌ خفية عاثت الفساد في حياتهِ دون أن يشعر بها؟

أقلب محتوياتها، أفرد الأوراق المطوية بعناية داخلها. هي حصاد سنوات قضاها على طريق الفسانية اللاذقية، يبحث عن موقع الحدث عازماً على نبش ما امحّى في صفحات لقاهُ الأثرية.

-أين كنت يا سيدي؟

-في موقع الحدث يا سركيس... كان يرفع الأوراق ثمّ يستطرد لاهثاً:

-أعليّ أن أُذكّرك في كلّ مرة بذلك؟

أهز برأسي له. أسترجع وجهه الغائم حين يصل ببحثه لطرق مغلقة. حيّرته تلك اللُقى. أنهكتهُ "ليفكارا". أصابه سرها بالأرق والاكتئاب. كانت العقدة المفقودة في بحثه تتجلى بصياحه بعبارة: "رباه... كيف وصلت اللفائف إلى أرض اليونان... كيف وصلت إلى قبرص؟". كثيراً ما كنتُ أجده يتواصل مع أساتذة عبر بلدان العالم، يخفض صوته تارة ويصرخ أحايين أخر.

كشف لي مرة في إحدى السهرات عن فشله في استنطاق ما خلف الحكاية، لقد عجز عن التنبؤ بما حدث في اللفائف، وأنهكته أجزاؤها المفقودة: "لقد أوقعتنا اللقى فريسة الحيرة يا سركيس...

وصلنا لنقطة النهاية حيث الوسط؛ كيف تتحدث لفائف مكتوبة بالآرامية وأخرى باليونانية القديمة عن شاب فينيقيّ؟ كيف نقلت مذكراته تلك بعيداً عن بلاده؟ كيف ذكر القسم اليونانيّ أنه بقي في أرضه ولم يغادرها؟ أكاد أموت، قلبي عضلة ملتهبة مثل جمرٍ غائرٍ تحت الرماد".

أعود للأوراق، بعضها مكتوب بالعربية بخط يد السيد الكريمة التي لا أخطئ آثارها. يبدو العمل غيرَ منجزٍ، فبعضها منقوص ومتبوعٌ بسطورٍ خاوية تشي بطرقٍ مسدودة. أرفع الصورة إلى عينيّ: جرة ملأى بالأتربة، تليها أخرى لجعبةٍ غير واضحة المعالم، تكاد تشبه معدة حيوان حوّلها الزمن والطبيعة لصخرة يابسة. على ورقة أخرى، طباعةٌ لكومة لفائف مغبرة، تشبه جدراناً مجعدة، على إحداها ظهرت الكتابة غائمة، وإلى جانبها تأويلات بخط هامشيّ غير واضح كأنه كتب بسرعة، ما كشف عن ترجمة سريعة. أقرأ بفضولٍ متناسياً هول الأصوات خارج جحري:

قريبةٌ مثل نسائم البحر

غريبة مثل عاصفةٍ شمالية

يا لتلك الأحزان التي تتلاشى عندما تظهر

يا لتلك المباهج التي تعمّ عندما تظهر

أماليا ...

يا هسيس الإله المقدس

بين تفاصيل روحي المنهكة

جايون

فراغاتٌ تليها فراغات. قوسٌ مفتوح بداخله فراغات... أتابع في

صفحـة لاحقة:

لاواديسا الحـزينة
لاواديسا المكروبة بالغرباء
ضاع ثوبها ... عراها الغزاة
البحـر عطش
السماء ثملة والآلهة نائمة
حزني خارج أسوار المدينة
قلبي داخل أسوار المدينة
وسرّي صلصال فانٍ
شكّلته أصابع الأحبة الراحلين
جايون
جايون مرة أخرى؟!

هـل اختفـت آثـاره؟ أم كان مـن جملـة الأشـياء الـتي نهبـت إثـر المداهمـة الأخـيرة؟ أتابـع مجـدداً: قصـصٌ تتـوالى بقلـم حـبر أزرق ناشـف، وفي أحـد السـطور يتجلـى اسـم آخـر... "شـيموئيل" تتـوالى سـطور غائمـة بعـده، تنهكـني عينـاي، ويغلبـني طبعـي الملـول، مغـادراً لهفـة البحـث عـن المجهـول. أنظـر مـن الكـوة السـفلية، هـا هـي الشـمس تشـرق مجدداً. هـا هـو يـوم آخـر يمـرّ وأنـا قابـع سـاكن. معدتـي تصـرخ لشـدة الجـوع، فيمـا بـدا المنـزل خاليـاً، إلا أنّ الرعـب يسـكن مفاصـل جسـدي، ويربطـني إلى كرسـيّ في ركـني الخانـق.

يـا إلهـي هـل سـيكتب لي الخـروج؟ يخيـل إليّ أنّـي سـأعيش الأبـدَ هنـا، وفي حـال خرجـت... كيـف سـأتسـلّل خـارج البلـدة؟ كيـف سـأهرّب

سـر السـيد؟ هـل أتركـه للحـرب والبـارود لينهـبَ النسـيانُ شـقاءه؟ أأتـرك تعـبَ مـن ائتمنـني علـى حياتـه وعالمـه؟ أأدعُ حلـم مـن رفعـني مـن رتبـة خـادم إلى منزلـة الرفيـق؟ ألم تنقذنـي ثقتـه مـن سنان الذبـح ونصـال القتلـة؟ يجـب أن أفعـل شـيئاً . أن أحفـظ العلبـة. سـأحضر كتابـاً مـن بـين الرفـوف، سـيكون كفيـلاً بحفـظ الأوراق إذمـا طويتهـا بعناية بـين صفحاتـه. سـأضعه في حجـري وأمضـي نحـو الكنيسـة أولاً، متخفيـاً بـين كـروم اللـوز البعيـدة، حتـى أبلـغ حـدود سـيطرة أسـياد البلـدة الجـدد، وحـين أعبرهـا ... سـأتنفس مـع أوراق السـيد مـن جديد .

ثمـة عبـارة قالهـا السـيد يومـاً، لا يـزال صداهـا يـتردد مالئـاً سمـاء عقلـي: "العدالـة مفقـودة يـا سـركيس... لا تظنـنّ أنّ إلهـاً عـادلاً ينظـر إلينـا ويقبـل بمـا يحـدث مـن ذبـح وتنكيـل بجثـث الأبريـاء". لقـد كان يصـرخ أكثـر ممّـا يقـول. نـبرة الغضـب ترتفـع علـى نـبرة مـن يـودّ إطـلاق حكـم أو تزجيـة وقـت فائـض. لقـد عـددتُ ذلـك تحـولاً خطـيراً، أسمـاه السـيد مؤشـراً علـى فهـم العـالم ومـا يختبـئ خلـف العـالم. لكنـي أبسـط ممّـا يمتلكـه مـن علـوم ودراسـات، أسـتطيع أن أفهـم معنـى فقـدان العدالـة. أفهـمْ ذلـك مـن خـلال إحضـار صـور العُزَّل المقتولـين في أيـام الآحـاد، مـن حيـواتٍ مـن غُـدروا أثنـاء العمـلِ في كـروم اللـوز والزيتـون. أفهمهـا مـن سـطوحِ المنـازل المجللـة بالـرؤوس المقطوعـة عوضـاً عـن حجـارة القرميـد اللامعـة، أنـاسٌ طيبـون يشـبهون تلـك الشـخصيات الهاربـة مـن عـوالم الأطفـال السـاحرة، إلا أنّ أحـداً اليـوم لـن يصـدق حجـم الجمـال الآسـر، والوداعـة والسـكينة الـتي كانـوا عليهـا .

أتنفـسُ الصعـداء مجـدداً ... صـدري يزفـر، أشـعر بالضيـق علـى الرغـم مـن ذلـك أشـعر بأصابـع الربيـع خارجـاً وهـي تحـاول إظهـار بعـض مـن سـطوتها . فالرائحـة تشـي بقدومـه. أتخيـل تكاثـف النرجـس

بين حقول القرية البعيدة، كما أحاول رسم صورة ربيع عنيد عند أقدام الأشجار المزهرة، بينما اكتسى أديم البلدة وكنائسها بأوشحة خضراء طرية. أليس غريباً رؤية استمرار الأرض في استنبات الجمال بينما يحاصرها محيط هائل من البشاعة؟ ما الذي يعطي الجمال ذلك الوجود الساطع في قلب الحرب؟ أحسستُ بدبيب التفتح القادم، كان ارتفاع التلة التي يشرف المنزل فوقها يبديه عالقاً في السماء. ذاك أنّه ما إن ينتهي سطحهُ حتى تبدأ السماء، وما إن تنتهي حديقته وسور الأجمات المحيطة به حتى تبدأ كروم اللوز المترامية...

أنظر متهيّباً من فتحة المرآة العاكسة. وما عليّ سوى الخروج؛ أقطع بوابة الدار وأعبر الحديقة جرياً. أدسّ الأوراق في كتاب، أي كتابٍ يحفظ ملخصات السيد من القباحة المكومة في طرقات البلدة، بعدها سأدبّ على يديّ ورجليّ، وأندس تحت السياج، سأراقب الطريق من بين الأجمات، ومن خلال فتحات الأوراق، سأضع مسرى خطواتي بعيداً عن هنا، بعيداً، حيث أتنفس هواءً نقياً.

سأفعلها يا مريم العذراء... ها أنا أقبّل الصليب المعلق بين كتفي، وأخرج.

أرض الأرجوان

ـ2ـ

عندما رست سفنٌ آتيةٌ من شواطئ المقدون واليونان، مع سفن أخرى قادمة من مصر ورودوس، كانت الدفوف والطبول تدقّ. هلّلَ العبيد والزنوج ابتهاجاً بقدوم الملك الجديد. لقد خرج سلوقس نيكاتور لتوّه منتصراً في حربه مع ورثة الإسكندر، سيما معركته مع خصمه العنيد أنتيجونيوس. كان لدخوله هيبة الملوك العظام، وقداسةَ نصر ذاعَ صيتهُ كفعل الريح في الرماد. شاعت الأحاديث عن نشوء مُلْكٍ عظيم في جميع الاصقاع، ودرجت على الألسن تفاصيله، لتؤرّقَ ملوكَ مصر وأباطرة الهند. كان يوماً تحدثت فيه السماءُ عن قائد نادمَ الإسكندر مجاوراً لرحلاته ومعاركه. وعلى الرغم من الغبطةِ المعرّشة فوق القلوب، إلا أن صرامة قاسيةً سيطرت عليه، حين هبط عن جواده متجهاً نحو المعبد الجديد. ثمة قلقٌ بيّنٌ يجلّل سحنته...

تتزاحم في رأسه قضايا شائكةٌ، تحلّقُ أفكاره بعيداً عن رنين الصنوج وابتهالات الكهنة. لقد حضر إليه الظفر على طبق من ذهب، بعدما هزم الخصوم، ورفدَ الجيوش فتحَ لنفسه بوابةَ البحار نحو الغرب، ما خلا خطراً محدقاً يحتسب لأمره.

ـ سأطفئ عينيكَ بالرماد يوماً يا سلوقس...

هل سينتقم ديميتريوس لمقتل أبيه؟ فقد أوصل الوشاة خبر تخفّي

قواته على سواحل صيدون وصور. كانت القوات تصول وتجول عبر البحار من كريت إلى الجنوب حيث الحدود مع بطليموس؛ صديقه وعدوّه. شتتهُ ضجيج الوفود، وقد كان يفكر في حلّ يمتصّ غضب خصمه، شرع بتنفيذه خفيةً، وهنا يكمن جزعه. نظر إلى زوجته الغارقة في الكمد، بدا حزنها موشّى بهمّ عميقٍ. خرجت إلى الملأ تكظم الجرح، فهي تعي بجلالة الملكات أنّ الإفصاح عمّا يجري عارٌ، وإن كان للرجل الذي أحبته وأخلصت له. لكنّ جزعهُ لم يتوقف عند ذلك الحد، فحزن الملكة معروف العلل، والغريب في الأمر تلكَ الكآبة المدماة. عندما خرج ابنه للعلن كما أمه: جثة شبه حية، يجرّ جسده وكأنهُ مجبرٌ على حضور الحفل الكبير.

لم يجد الملك تفسيراً لحال ابنه، فبعد تشييد عاصمته الجديدة شمالاً، منحها كل ما يجعلها حاضرة مقدونيّة، بعدما هدم ما بناهُ خصمه. أقام عاصمته فوق الأراضي الواقعة غرب نهر أورنتوس. أزال آثار الأنتيجونيين، ونقلَ لسكانها رسائل السلام، أملاً بجعلها بوابته إلى سهول كيليكيا، لذا، وإمعاناً في تقدير سكانها، بنى عند تخومها تمثالاً برونزياً للآلهة "تيخه" تمسك بقرن الرخاء والوفرة. أمر برفعه على أعمدة هائلة الطول، نصب أسفلها مذبحاً لعامة الشعب، مانحاً حكمها لابنه الأثير، لكنه لم يفلح في بثّ الرضى والامتنان على وجهه. بدأت ابتهالات الكهنة تعلو حين بادر المصطفون حول المعبد لرمي الوفد بالماء والورد. كان الملك يقلب ناظريه بين ابنه وزوجته. نظر نحوها طارداً عنه الوجوه والصيحات. اختلس النظرات إمعاناً في قراءة أحزانها. لاحظ حينذاك أنّ زوجته لازالت على جمالها المهيب، وبدا قلبه مثلما كان يرف كطير جائع، مهتاجاً لجيدها البابليّ الأسمر.

كم انحنى حين رآها أول مرة؟ وكم من النذور قدمها لمردوخ العظيم كرمى لعينيها؟

لازال الشابُ فيه حياً، ولازالت آثار تلك الليلة الشتائية من عام 325ق.م[9] تسكن خَلاياه. حين دخلوا بابلَ فاتحين مع الاسكندر وزارهم المهنئون من اليونان والسفراء من الهند. وفي ليلة العرس الكبير اختار الإسكندر "ستاتيرا" ابنة ملك فارس، فيما اختار سلوقس "آباما" ابنة أكبر وجهاء الفرس. مرت السنوات، ومات الإسكندر. تقلبت الأحوال، وهام في المعارك والحروب مع ورثته، تنقّل عبر أراضي الشرق الواسعة، وبقيت زوجته تثير في نفسه كل ما يمكن أن تثيره النساء الشابات في نفوس المحاربين الأشداء، ذلك المزيج المختلط المتجانس، تلك الرعشة الطافحة من الوجه والعنق والكتفين، ورفعة الهيافة في المأكل والحديث. وحتى حين التقلب على فراش الملك كانت بعشرة نساء ممن ضاجعهن عبر الغزوات والحروب. وهي لم تجد فيه مقدونياً محتلاً بقدر ما وجدتهُ عاشقاً هجر السبايا والخليلات مكتفياً بها.

أوليسَ شرفاً عظيماً أن تكون الزوجةَ الوحيدة بين نساء ملوك ورثة الإسكندر؟ أليست الوحيدة التي أعتقت لخاطرها السبايا والنساء؟ أوليس حباً إلهياً لرجلٍ أشيع أنه من نسل العظيم أبولو؟

في تلك الأثناء، حين بدأت مراسم الابتهالات وإشعال نيران المعابد، رفع الكهنة رؤوسهم إلى السماء ينشِدون عظمة الآلهة.

---

9 ليلة 325 ق.م: هي ليلة دخولِ الإسكندر المقدوني وقادته بابلَ ومؤاخاة أهلها واستقبالهم لهُ كقائد عظيم، فأقام ليلتها زفافاً كبيراً تزوج خلاله مئات الحَرس المقدون من نساء فارسيات، ومن بينهن ستاتيرا زوجة الإسكندر، وآباما زوجة سلوقس.

طلبوا مباركة الشقيقة الرابعة[10] للحواضر الثلاث؛ أنطاكية وسلوقية وآباما، وها هي النيران تعلو، والأبقار تذبح وتشوى. خدمٌ يغمسون العصافير والسّمن بالزيت، فيما آخرون يسقون الغزلان بالخمور. سلالٌ من الورود تطوف، وخمورٌ وأجبان تجيء وتروح على صحاف من الخبز المعجون باليانسون. أصداف في حساء القمح، وفولٌ وشُعير فوق أطباق مصوغة من العنبر الأصفر. أما أمام المعبد فقد أُشعِلت النيران وأطلِق الدخان إيذاناً ببدء الاحتفالات. كانت الطواويس وأفخاذ الجِمال توزع على الجند والفرسان، فيما أخفى خدمٌ مُعدمون قطعاً من لحم الجواميس وقنافذ متبّلة تحت أرديتهم. غمست النسوة أطباقاً بالزعفران وأقراص العسل إلى جانب تلال من ثمار الليمون والبطيخ والأسماك.

بدأت المراسم. جيء بثورٍ عظيم، جرّهُ الخدم بصعوبة بين الجماهير المتزاحمة. هبط سكان القرى المحليون ممن نجا من حروب الأمس. كانوا يشهدون حكامهم الجدد، يتابعون كتماثيل صامتة مآل أحوالهم بُعيد أزمنةٍ من الأخذ والرد بين ورثة الإسكندر. وقفوا متفرجين، تركوا العمل في كرومهم وبساتينهم؛ بعضهم طحنة حبوب وآخرون صُنّاع زجاج محترفون إلى جانب عملهم بالصيد والزراعة. كانوا يعتاشون من نسج الأصواف، بينما لجأ كثيرون للملاحة وبناء القوارب البحرية مع تعليم المارة سبلَ الاقتداء بالنجم الفينيقي. وحين كانوا يقفون بعيداً، تقدّمتهم جماعاتُ الزوار من سادة اليونان وأشرافٍ أتوا لمشاركة الملك صلاتَه المباركة. كانت تلك بلادهم؛ صنعتها عظام آبائهم وأجساد

10 الشقيقة الرابعة: ويُقصد بها مدينة لاواديسا التي اعتبرها سلوقس نيكاتور رابع مدنه الكبرى، وهي اللاذقية اليوم على ساحل المتوسط السوري.

أجدادهم وعرقهم ودموعهم وأنفاسهم. بانوا بظهورٍ محنية وأسمالٍ بالية؛ أفواههم صامتة، وعيونهم تظلل آثار الحوادث القادمة، ورغم انهمار النوائب وتتابع النكبات، إلا أنهم في غمرة الشقاء، احتفظوا بما ورثوه من تقاليدَ قديمة، فمهارتهم في حرفة الصباغة وصيد الأصداف وهبتهُم قداسةَ السيادة الفطرية على صباغة الأرجوان. كانوا يعلمون متى يصطادونها وكيف يجففونها وبم يخلطونها. ولحظة مشاهدتهم حكامهم الجدد، أدركوا أنه مثلما صار القتال وبناء المدن من شيم الشعوب الأخرى، فإن للفرد منهم عيشاً تاماً في الأرجوان. كانوا يملؤون رئاتهم به، يؤمنون أنها منحة السماء إليهم، وأن بها ما يبقيهم أحياء. حتى في أحلك الظروف وأكثرها خراباً: بقي الأرجوان على حاله... يصَادُ ويجفَف وتصبَغ به أجمل الصنعات البحرية.

وقفت أماليا بين الحشود، فبعدَ أن أطفأت ثورة أبيها بذرائع أثارت الضحك في نفس العجوز، خرجت وإيّاه تنظر كفيرها إلى الأرض الجديدة، بعين اللهفة والترقب. ارتقى الملك سلالم المعبد بهيافة سلبت من المحتشدين أحاديثهم والتفاتاتهم. لمس وزوجته بكفّيهما مجسم إله الخمر "ديونيسوس". ركعا أمامه، بينما أشعل عبدان أعواد دخانٍ انسلّتْ مثل خيوطٍ رفيعة. فاح الأثير بطيبٍ أشبه برائحة الصعتر والطيون. وبعد فروغهما من تضرعهما الخافت للإله، وضعا أمانيّهما بين يديه آملين بمباركته تدشين الحاضرة الجديدة. نهضا بهدوء وورعٍ. سارا بين الحشود مثل إلهين صغيرين، حين هرع الحشد لتقديم النذور ورمي المعبد بالماء والورد.

كانت السماء صافية، والشمس تسطع في تلك الأرجاء، ومع استمرار صعودها في السماء، راحت تلجم الأكوان بسياطها الحارة،

وتسقط على رؤوس الجموع المتزاحمة للمشاركة في تقديم النذور. أشيع بينهم تقديم أضحية أخرى، ربما كان نذراً آخر أشد عظمة من الأول. قال البعض قطيع أكباش، وآخرون أشاعوا أنها فتاة جميلة قدمت نفسها أضحية، فيما بعيداً في الأعالي كانت العقبان تحلق. حاذر الجميع، واحتاط الجمع والفرسان والخدم تحسباً لتكرار حادثة تأسيس أنطاكية وما رافقها من قصة ما زالت الجدران والأمكنة تحتفظ بتفاصيلها:

"حينذاك، وقبل عامين من الآن، لم يكن أحد من الجند أو الفرسان يشعر بتحليق نسرٍ كبير فوق حاشية الملك المقبل على تدشين أنطاكية. لم يعط أحد منهم باله، وسط هول الحفل وقداسته، للطير المتربص بأضحيته. تعلقت العيون بقامة الملك وهيبة زوجته، إلا أنه، وسط ذهول الجمع وسطوة الحماسة، هبط النسر على النذر مثل صاعقة، في موضع قريب من يد الملك التي تنحر الثور. خطف النسر من لحمه ما خطف، وهبش بمخالبه كتفَ الثور حتى جرى دمه على جسده ويد الملك. ثم طار عالياً، وبدت السماء تقطر مطراً أحمر. شُدِهَ الجمع وخيم العجز على الحاضرين، بينما تدارك الملك بفطنته المعهودة فداحة حدثٍ سيعتبره السفراء والوافدون نذير شؤم على اسم السلوقيين. فاعتلى صهوة جواده رامحاً، وجرى مثل قطيعٍ من الوعول يلاحق خاطف نذره، وقد بيّت له الانتقام، وأقسم علَى صيدهِ أمام أعين جمهرةٍ ذاهلة.

تراكض الفرسان خلف القائد مبتعدين عن موضع الاحتفال. كان الملك غاضباً، وقد أصبحَ وجهه غامقاً قاسياً. فالمراسم التي هيّأ لها مع حكيمه المقرب أمفيون، والصلاة التي انتظر منها دعم

التجار والمسافرين، انتزع طيرٌ بغيضٌ بهجتها. قريباً سيتحدّث أعداؤه عن قصة النسر الذي سلب الملك المظفّر هناءةَ نصره، سيتندّر العجوز بطليموس[11]، سيهزأ على الملأ، ويشيع عن غضب الآلهة ورفضها نذور السلوقي؛ عدوه اللدود.

طار النسر عالياً، فيما فرس الملك كانت تصعد التلال والوهاد القريبة حتى غابت بين سيقان السرو والصنوبر وأدغال بلغت أطرافَ السماء. لم يكن الملك بعارف خطاه، ولا ألف لفرسه وجهةً إلا ملاحقة الطير. كانت تلهث خلفه فرقةٌ من الفرسان. وقد مرت عليه هنيهات ظن أنّه وسط الخلاء وحيداً مع فرسه، إلا أنه هلعَ إذ انتبه لمواجهة كبشٍ برّي تهيأ لمهاجمته. أخرج سيفاً لامعاً، وهبط عن جواده يلاحقه حانقاً كمن ينتقم من عدو قديم. لم يمر الوقت طويلاً حتى صرعهُ شافياً غلّه. أخذ نفساً عميقاً. ارتفع صدره وراحت عيناه تجولان المكان من حوله. غشيهُ النور، شعر إذ ذاك وكأن الآلهة أنزلته عمداً في ذلك الموضع[12]. كأنما أرسلت النسر والحيوان البريّ ليرى ما كان يراه. فجرى ما جرى لبناء حاضرته في موضع أكثر رفعة.

شهق قلبه حين رأى المشهد أمامه؛ شواطئ بيضاء تتراقص نحو الجنوب. بحرٌ أزرق يتلألأ، وغاباتٌ تعانق الأرض والسماء، جبال تهيّفت برفقة الأعالي، وموطئ قدم لم يرَ له مثيلاً. كانت فرقةٌ من الفرسان قد وصلت إلى الموضع حيث وقف سارحاً مكتوف اليدين. قدمهُ مركونة على رأس كبش دام، استدار نحوهم قائلاً: "انظروا... إنه جمالٌ لا يُمسّ. لعل الآلهة لم تكن راضية عن الموضع الذي

---

11 بطليموس: أحد أكبر قادة الإسكندر نفوذاً وعمراً. اختار أرض مصر وحكمتها أسرة البطالمة أو البطالسة من بعده.

12 الموضع: ويُقصد به موضع بناء قلعة أنطاكية والمدينة من حولها.

اخترناه لبناء مدينتنا الجديدة، لعل موضع قتلنا الكبشَ ينزل عند رغبتها... هيا فلنرسم بدمه أسوار المكان المبارك هذا...".

غمس يديه بدم طريدته، وفي غمرة ذهول الجند، ركع على الأرض المغطاة بالعشب، حدد ما بدا لهم أسوارَ مدينة وكتلة قصر وهيكل معبد جديد، وإذ نهض مبتهجاً، أخذ نفساً عميقاً، ممتنّاً برسالة السماء. أمر الفرسان بتقديم نذر آخر لموضع الحادثة، وطلب رفع أعمدة لمعبد آخر، وكانت حينذاك أنطاكية، أعظم المدن السلوقية".

تسلم الحكيم أمفيون قامَتَي الملكين باسماً. هنأهُ بسلامة مراسم تدشين مدينته الجديدة. اقترب من قامته واضعاً يده المملوءة بالتجاعيد على كتفه، وسأل:

- والآن... أيٌ من الأسماء أراد الملك أن يطلقه على حاضرته القادمة؟

أخذ سلوقس نفساً آخر، لم تكن سنواته الستون باديةً على وجهه. بدا شاباً صلباً، بل زادهُ العمر بأساً، وكسا ملامحه بهناءة العروش وقداسة من ينبتون بين جنباتها. نظر إلى الشمال نحو بلاده المقدونية وقال:

- ستكون لاواديسا أخرى أيها العزيز أمفيون.

- لاواديسا أخرى! خامسة أو سادسة أيها الملك. أسميتَ بها مدناً كثيرة، ورميتَ بها مواضعَ وحواضر أخرى، ألا ترغب باسم آخر أكثر جدةً وقداسة. ابتسم الملك. أشاح بعينيه نحو المدى الأزرق بعيداً. أعاد النظر إلى وجه حكيمه، ووضع يده على كتفه قائلاً بصوت جهوري:

ـ إذن فلتكـن حاضرتنـا الجديـدة لاواديسـا أخـرى أيهـا الحكيـم، لكنهـا سـوف تختلـف عـن سـابقاتها، سـتكون: لاواديسـا الـتي علـى البحـر.

❖❖❖

مـر الليـل هانئـاً إلا علـى اثنـين مـن الشـهود: الملكـة المكلومـة بخبرٍ انتـزع السـعادة مـن قلبهـا، وابنهـا أنطوخيـوس، السـائر مثـل محكـوم بالإعـدام نحـو مقصلتـه. وكان يُبحـر حسـب الأوامـر إلى جزيـرة رودوس[13]. هـل يعقـل أن يذهـب عاشـقٌ ليخطـب محبوبتـهُ بنفسـه لأبيـه؟ هـل حقـاً سيُسـلّم الفتـاة الـتي أحبّ زوجـةً لوالـده؟ كان صـدره يضيـق بأنفاسـه، وروحـه تـكاد تضيـق بمـا يعتملهـا مـن كـروبٍ وأحـزان. لمحهـا قبـل عامـين، ولم يـدرك حينـذاك وقوعـه في الخطيئـة الكـبرى. سـقط في حـب ابنـة ألـدّ أعـداء أبيـه. لكنـه الحـب، تلـك الريـح الـتي لا تمنـح الرأفـة للقلـوب، ومـن جهـة أخـرى أيضـاً والـده سـلوقس هـو الملـك، وليـس فقـط إلهـاً لطالمـا حلـم أن يكبر علـى صورتـه، بـل زاد مـن ذلـك جعْلَـه وريـث عرشـه، ومانحـه النسـاء والمـدن والثـروة، شـاركه كل غزواتـه منـذ أن أكمـل السـابعة عشـرة مـن عمـره، وهـا هـو اليـوم يبلـغ الرابعـة والعشـرين، شـاعراً بقلـب يـرفّ مثـل طيرٍ سـجين. وكأنـه كهـل يصـارع حربـاً أعتـى ممّـا شـاهده في الحـروب والمعـارك.

كانـت سـتراتونيكي ابنـة القائـد المقدونـي ديميتريـوس؛ سـيد البحـار، وحفيـدة أنتيجونيـوس الـذي قتلـه والـده بيديـه الكبشَ الـذي سـيضع حداً للعـداوة بـين الأسـرتين، وَالأضحيـة الـتي رأى والـده بخطبتهـا نهايـة لحربـه مـع خصمـه. رغـب بكسـب ديميتريـوس حليفـاً وقريبـاً. اختـار الاسـتقرار بعيـداً عـن سـاحات القتـال، والالتفـات لبنـاء دولتـه المتراميـة

---

13 رودوس: جزيرة يونانية في البحر المتوسط، تقع بالقرب من الساحل الجنوبي لتركيا.

بين الشرق والغرب. ولتزيدهُ السماء عذاباً وأسىً، فقد اختيرَ من بين حاشية من الحكماء والكهنة لاصطحاب العروس؟ أوليس ذلك غضباً مضاعفاً من الآلهة على قلبيهما؟ وأنى له أن يعلم بتحولها زوجة لأبيه بين ليلة وضحاها؟ كيف سيقاوم رغبته المتأججة تجاهها؟ ألم يتسلل إليها قبيل هدم والده لقصور أنتيجونيا؟ ألم يقف أمام مخدعها عاجزاً عن مسّ تلك الوردة النضرة عندما هرب والدها إلى رودوس مخلفاً عائلته وراءه؟ ألم تسلّم نفسها لذراعيه تحت وطأة الضعف والذعر حين تعاهدا على الحب حتى تنتهي الخصومة بين أبويهما؟ هل يهرب بها ويغدر بأبيه؟ أيكسر شوكته بعد أن صار ملك الملوك واقترب بمباهاة عرشه بعرش الإسكندر؟ هل يهربان ويؤججان صراعاً يخلق حرباً أخرى؟

أسئلةٌ كثيرةٌ، ومشاعر آثمة مصبوغةٌ بالخزي والحيرة تزاحمت في قلبه. كانت السفينة حينذاك ترسو تحت جنح ليلٍ ثقيل الوطأة. منعه الغَمّ من ملاحظة خيط فجر رفيع هارب من بين غيمتين بيضاوين. لم يشعر بجمال المكان من حوله، ولم يجد في قلبه بذرةَ شعور واحدة، ما عدا غاباتٍ من الهمّ تتسامق لتمنعه عن التنفس، وجبالٌ من الحزن ترزح وتعمي بصيرته. كيف سيضع عينه بعينها؟ كم ستشعر بالضعف والخذلان وكم سيشعر أمامها بالعار؟ تمنى لو تبتلعه الأرض قبل أن يسلمها لأبيه بيديه. كان الحضور حاشداً، ففضلاً عن قدوم كتائب من فرسان مقدونيا وأنتيجونيا، لاحظ خشوعَ المستقبلين الذين بادروه بالانحناء، ورغم صغر سنه، إلا أن في جسده ضراوة المقاتلين، وعلى وجهه رانت أمارات الرفعة الملكية. كان شعره يتدلى حتى كتفيه مثل أشعة تنسدل حول وجه ناصع البياض، وأنف مدبب لم يُفقد صاحبه جماله، بل ترك مسحة من التهيف والصرامة على نظرات عينيه البنيتين، وعلى تلك

العروق الزرقاء الواضحة فوق ساعديه وأسفل درعه المعدني مفتوح الذراعين. حضر لاستقباله مع الجند، ديميتريوس القائد وزوجته فيلة، وعليه إحضار العروس ووالديها إلى مشارف أنطاكية، حيث ستتم مراسم الزواج والاحتفاء بالعروسين، بعدها سيؤمن عودتهم إلى رودوس مجدداً. لم يبدُ على ديميتريوس بوادر تعاطفٍ أو توددٍ إزاء ابن عدوه، بل على العكس، بدا غير آبهٍ بالحدث، بان بحالٍ لا يمكن لمرءٍ تبين معالمها، ابن الأعور ذاك... قالها في سره: لا يبدو على الماجن السكّير غبطةَ آباء العرائس، ولا تهيّب الملوك الذاهبين لملوك آخرين، بل ظهر كمن ينفّذ اتفاقاً عسكرياً بغية كسب مساحاتٍ زائدة، كأنه يبيع أكواماً من الصوف عارفاً بحجم غنائمه. إلا أن حدثاً أخرج الشاب من غمرة تخبطه: هبطت ستراتونيكي!

نزلت على سلالم معبد ملاصقٍ لساحل الجزيرة ومعها هبط قلبه فتاتاً. كانت ترتدي ثوباً بلون الورد يتلألأ تحت ضوء النهار كما تتلألأ قطرات الدمع في نظرة عينيها العشبية. انسدل شعرها الناريّ على كتفين عاريتين انزلق عنهما قفطان مرمريّ، وفي يدها رنّت أساور الفضة وعقود الياقوت، زين العاج رقبتها حتى زندين مملوءتين بنقوش رسمتها عجائز معبد أبولو. ورانت ترفل بثوبها الحريريّ، تهتز أقراط مذهبة على شاكلة قرص شمس مكتمل. أطرقت نظراتها حزينة نحو الأرض، ليس بها من سعادة العرائس الأميرات شيء، بل كانت حزينة. لم يجد منفذاً يهرب إليه. كان الصمت يلف المكان، والجميع عارف بمآل تلك الزيجة العسكرية، من دون أن يلتفت أحدهم لحزن الشابين! وحين وصلت بخطواتها حيث انتصب والدها، قبّل رأسها مثلما فعلت والدتها، ثم انسلت بخفةٍ بين الجند تخطو وقلبه يتفطّر.

هل يقع من شدة الحزن؟ هل يتصنّع الموت لينهي هذه المأساة أم يصير أضحوكة لأعداء أبيه؟ كم تمنى لو يحدث شيء ما . أن تخسف بهم الأرض، وكلما كانت تقترب، كان ينكمش على نفسه أكثر، وجهه ممتقع، ونوازعه تضطرب. حاول ضبط نفسه ولجم انفعاله. لكم شعر بالعار وهو يخذلها . لكنّ شيئاً لم يحدث، بل مرت هكذا : مثل نسمةٍ تجرح كل قطعةٍ من جسده، ومعها فاح أريج العطر والعنبر. لم يستطع إلا أن يشيح بوجهه عنها، مطرقاً برأسه ومذعناً للقدر كمَنْ قام بفعل أكثر الأمور شناعة.

نقلت فرقة من الفرسان جهاز العروس وصناديقها . لم يقبل والدها إلا بإرسال ابنته مع ما يشعر غريمه بكسر شوكته. تعمّد ضبّ الذهب والفضة والعاج، إضافة لقلائد من الياقوت والمرمر، إلى جانب قفاطين أرجوانية وأردية صوفية مكللة بفراء الثعالب. لقد أرسل كل ما من شأنه أن يشيع في نفس غريمه الهيبة، وما يذكره بمصاهرته نداً مساوياً له في الثروة والنفوذ، كان ذلك بمثابة مرسالٍ يذكره بأن تلك الزيجة لا تعني ارتفاع قدره إلا بمقدار ما يرتفع قدر سلوقس بزواجه من حفيدة وريث الإسكندر.

أما في أنطاكية، وبين أروقة القصر المطل على مجرى نهر أورنتوس[14]، فقد ارتفعت الشمس عند وصول موكب الملك، في وقتٍ انهمكت الحاشية الأنطاكيّة في تحضيرات زفافه. لُفّت الشرفات بنباتات الزينة والورود العابقة. التمع البلاط وفاحت والعطور. أما في المطابخ السفلية، فقد كان الخدم يطهون الجواميس، ويخمّرون العنب، ويملؤون جرار النبيذ . بانت خادمات يملأنَ أطباقاً معدنية

14 نهر أورنتوس: نهر العاصي حالياً . ينبع من جبال لبنان ويمر في سوريا ليصبّ في إقليم لواء اسكندرون.

بالعسل والفاكهة والأعناب. كان مشهداً باذخاً بالوفرة والخيرات. ظهر سلوقس كعادته، يمرّ على كل تفصيل، يتابع شؤونه بنفسه، بدا في ردائه الحريريّ خالياً من تلك الصرامة التي يمنحه إياها زيّه الحربي، في وجهه بعض من السماحة والرأفة، وهو في الحقيقة، إن حدث وَملَك الأرض والنفوذ، فذلك لا يعود لبطشه كما ديميتريوس، ولا لتصلبه وتعنّته كما بطليموس، ولا حتى لحاشيته وأنصاره كما ليساماخوس في تراقيا، بل لهدوئه وحنكته، ذاك ما قربه من الإسكندر، وحين كان يبني المدن والحواضر، تعمّد نشر جنده، محافظاً على استقلال معتقدات أهليها المحليين، حريصاً على قدسية صوامعهم ومعابدهم.

كان كرفيقه الإسكندر، كره أن يُذكر بوصفه محتلاً. أراد أن يظهر بصورة فاتح لمملكة كونية يتساوى فيها البشر، وتسودها العدالة والحرية. حلم بتأسيس أمة تختلط فيها الألوان والمعتقدات بقيادة ملك مقدوني، إلا أنّ العقبات كانت تتوالى. هناك حربه الباردة مع بطليموس، وإذما كسب ودّ ديميتريوس بزواجه من ابنته، فقد أدرك أن وقع الحدث لن يتعدى أثر عشبة منوم سرعان ما ينتهي مفعولها. قريباً سيعود لبطشه ومجونه، إلا أنه بفسحة من هدوء، سيتمكن من توسيع حدود مملكته، وتأسيس مدنه داخلياً. ما يشغل باله، كان أمراً بعيداً كل البعد عن ملكه، ما زال أمر ابنه ينتزع النوم من رقاده. كان حزيناً لحزن آباما، فقد كظمت جرحها ورحلت بعيداً إلى مدينتها المسماة باسمها جنوباً، لقد آثرت منحه الحرية ليلة زواجه، مخفيةً نار الغيرة أسفل سحابات بكاء عابقة. ساءه حزنها، أضناهُ أن يكون سببَ كربتها، إلا أنه يعلم مثلما تعلم عللَ ما يجري، فعلى الرغم ممّا تتحلى به من بصيرة نافذة وحكمة،

تبقى في نهاية الأمر امرأة وزوجة وأمّا، وذلك ما لا تقبل به النساء ولو امتلكن أكثر العقول رجاحة، ولو زاحمن الرجال على عروشهم، فأهواء الغيرة تتقدُ في دواخلهن، وتأخذهن التصاوير والتهويلات لتضطرم إذما تخيلن أزواجهن يتلذذون بجسد امرأة أخرى. هنا تذهب الحكمة أدراج الرياح. يطير التعقل ويتبخر، فلا يبقى إلا نار تحرق وتأكل، لذا ولكيلا تظهر بمظهر الضعف أمام الحاشية والخدم، آثرت الرحيل إلى الجنوب حيث معقل الدولة العسكري، ريثما تجد سبيلاً لإخماد لهيبها المستعر داخلها.

أعلنت الأبواق وصول السفن. جيء بالأنتيجونيين إلى الأراضي السورية، وبسرعة خاطفة قدم العبيد بالقفطان الأرجواني المزجج بالأرياش، ومعه إكليل الغار والزيتون، وقد صار رمزه الأحب. قدم زنجيان وركعا يبدلان خُفاً من جلد خنزير بري بآخر برقبة طويلة حتى الركبتين، نزع آخران ثوبه الحريريّ واستبدلاه بقطعتين من قماش كتاني قاس، تتخلله من ناحية الرقبة جواهر وعقود وأحزمة جلدية. رمى حكيمهُ وهو يقرأ التبريكات معطف الأرجوان على كتفيه، ورشه بالعطور والأطايب، بينما تعلقت به العيون أملاً في طرد الأرواح الشريرة عنه.

كان لا بد من زيارة المعبد وتقديم النذور لمباركة الزواج، بعد الانتهاء من مأدبة عامرة. صفّت الأطباق تحت قمر أنطاكية ونجومها، صاغت الأعين أطيافاً محتدمة المشاعر، فعينا أنطوخيوس وستراتونيكي تفيضان لوماً وحزناً، بينما نظرات الأبوين تتأرجح عابثة في محاولات بائسة للبروز بصورة عمّ وصهرٍ. لقد فشلا في إخفاء سيل من أحقاد سيطرت على مشهد العشاء الملكي. كان ديميتريوس بحاجة ماسةٍ لحادثة الزواج، فموقعه بين ورثة الإسكندر

تضاءل، فضلاً عن كونه الوريث الوحيد لنفوذٍ متهالك تبعثرتْ ملامحه بين الجزر والشطآن. لقد خسر سيطرته على مدن تراقيا ومقدونيا، لم يبق في يده سوى بضعة مدن مبعثرة وأسطولٍ بحري يغدو ويروح بين رودوس وسواحل كيليكيا. لم يستمر العشاء طويلاً، ففي نفسه ما يكفي من الحرص والحذر كيما يشعر غريمه بحاجته للمبيت بين ربوعه. سارع سلوقس لإنهاء التمثيلية المختلقة بشكل ودي بغيض. شعر بسعادة غامرة عند نهوض خصمه واعتذاره عن المبيت في مدينته. تذرع باضطراره للعودة، فغدا وهو يتأرجح في صقل الحجج مثل سكير مضحك، فيما كانت العروس البائسة، تتجمد أمام المائدة مثل كل التماثيل الشامخة خلفها.

كانت باردة مثل وجه أنطوخيوس الميت، تنظر السماء بعينٍ ضعيفة؛ تسأل النجاة من لوثة الحب. لكن غرابة نهاية الليلة أدهشت الجميع، فبعد انتهاء مراسم الزفاف، وبعد وداع والدي العروس. احتمى أنطوخيوس بين جدران غرفته. أمسك رأسه بين يديه هائجاً، ماجت أفكاره وَودّ لو كان بمقدوره تحطيم الأشياء من حوله. تمنى لو رمى نفسه من شرفة القصر، لكنه يدرك أن ملاذه صمت حارق، ولا شيء آخر سوى الصمت سيضمد مأساته، ويخدر ذلك الوخز النافذ لأعمق نقطة داخله.

وقف على سور الشرفة يرقب السماء، يناجي الرثاء لحاله. كيف سيعيش وإياها في قصر واحد؟ كيف سيتشاركان الطعام والمعيشة؟ سيفضّل المبيت في ساحات القتال ومعسكرات الجند على البقاء ليلة واحدة معها في مكان واحد. كان يدرك تعلق والده به وحرصه على بقائه لجانبه، ولولاه لغادر مع أمه إلى الجنوب، وأنهى كمده باغتراب طويل. تؤذيه صورة وجهها البائس. لا تفارق مخيلته

نظرة العتب الحارقة، أما خذلان قلبه الآخذ بالإمحاء فسيبقى عقبة تمنعه من مواصلة العيش كما في السابق.

في تلك الأوقات، كانت خادمات كثيرات يُدخلن العروس إلى مخدع الملك. خلصتها إحداهن من الأردية والعقود، فيما فكت أخرى عن زنديها وساعديها أساور الفضة والعاج. رمين جسدها بغلالة شفيفة من قماش حريري أبيض، انسدلت على جسدها كما ينسدل الماء على الزجاج، وبعد دهن أطرافها بالطيب الفواح، خرجن شبه راكعات يدعون الآلهة لمرافقة الملكة الجديدة لما أسمينه "ليلتها الأولى".

كان سلوقس أمام المخدع يتحضّر للدخول. أعلمه حكيمه بخروج الخادمات، أخذ نفساً عميقاً، فبدت عيناه كما لو أنهما في مكان آخر بعيد عن المخدع، وخارج القصر، بعيداً عن أسوار المدينة والبحر لتخترق نظراته المدى البعيد، وتستقر هناك عند آباما. دخل المخدع. بقي صامتاً برهة أوقدت الرهبة في قلب العروس. تلوّن وجهها بالجزع، وقد بانت نظراته إليها ذاهلة، بدأ ينظر نحوها دون أن يراها! كيف ذلك؟ لا تعلم، لكنها خرجت من غمرة ذهولها على صوت بابٍ يغلق بصوت مدوّ، وما هي إلا هنيهات مرت، حتى لمحه الجميع: ستراتونيكي وأنطوخيوس والحكيم وحاشيته وجنده، لقد لمحوه جميعهم وهو يعدو على صهوة جواده لاهفاً مجيباً لنداء قلبه نحو الجنوب.

ليلتان وصباحٌ آخر

ضاقت قريتي بما فيها من فساحة الوديان والسهول على مصيري، فيما حمَتهُ بذراعيها حفرةٌ ضيقةٌ. قد لا يصدق من يسمع قصتي، فبعيداً عن مبالغة الرّواة، إنني كنت إذ ذاك متنعماً، ممتلئاً بالغبطة، أنفي يمتلئ بعطرٍ خفيف، وكأن نفسي تضوع مثل روضٍ مفعم بأشجار اللوز، كما نفحة مسجاة في قلب الرب. على أن المشهد فوقي ومن حولي كان جهنمياً؛ ساحةٌ شغلتها المعاركُ. فلمَ شعرتُ بتلك الهناءة الغرائبية في قلب المقتلة؟ ألأني خرجتُ أخيراً؟ ومن أين يسكنني السلام ويطوي بجانحيه عليّ فينشر سكينة نومٍ من بعد بكاء طويل؟

نعم خرجتُ، بل خرجنا. أتنفسُ مجدداً كما لو أنني لم أتنفس قبلاً. كان خروجَ من يهرب من بركةٍ آسنة، مستنقعٍ أكثر نتانة وعطن. شهران وعام كامل في الحصار داخل مقر الفرقة. في قلب الصحراء، نقارع جليدَ الشتاءات القاحلة وشموس الأصياف اللاهبة. نأكل عشب الأرض، متروكين للأقدار كما تُترك الوحوش الضالة للبراري، نخبز على أي سطح معدني نحظى به. أتذكر ما خبزناهُ في المرة الأخيرة؛ كان خبزَ شعير وعدساً مطهواً على رفرف محراث صدئ. أكلناه كأنما نلوك آلامنا وأحزاننا بين أحضان عوائلنا في القرى البعيدة. مع كل قضمة كنا نوقن بعيشنا حياة الليالي الطويلة، تلك الحيوات التي فيها من الظلمة ما يكسر أنفة

الرجال ويحطم جبروتهم، وما يذيب صورة الأحلام داخل المرء ليدرك أن جزءاً منه قد رحل. أنه صار إنساناً غير كامل، ومهما عاش وكيفما نجا فهو لن يعود لصورته السابقة.

أتخيلُ ذلك فيما أقبع داخل الحفرة حيث سقطتُ صباحاً. أقبلَ الغروب، ولا تزال أصوات المجنزرات وأزيز البنادق وصيحات التهليل تزكم السماء. لا أدري كيف انتهيت هنا، كما لو أن أصابعاً هبطت لتنقذنا جميعاً. إلا أن يداً خفية، يداً غير مرئية خرجت من باطن الأرض، حضنتني بين جنباتها العابقة بدبيب حشرات تواصل عيشها بسلام، تحيا كأن لا وجود لعالم غارق بالدماء فوقها... الدماء... نعم... تلك الرائحة التي تفوح مني أكثر مما يفوح فوقي، شعرتُ بالرائحة قبل أن أشعر بالألم الصارخ من أصابع قدمي، كانت اليمنى تنزف مذ دمرت أسوار الفرقة، حين داهمنا جراد الأرض بلا عين تحمي ضعفنا وشقاءنا. ذُبحت الصفوف الأولى، فيما قدر للثانية الهرب من جهة الشمال. انتشر آخرون وتشرذموا في جهات بعيدة مجهولة، غاب البعض في الأرض، وآخرون انتهوا طعاماً سائغاً لمناشير القتلة وسواطيرهم فكانت المقابر الجماعية مصيرهم.

هي الحربُ... حيث كل شيء جائز، مثلما يحضر الخرابُ بقوةٍ، تحضر المعجزات، والمعجزة لم تحصل خارجاً عني، بل سكنت حنجرتي واحتلت قدمي. فكيف إذن خرجتُ أصرخ وأصيح مع الصائحين بالتكبيرات والتهليلات؟ لا نعلم ما حدث. كان شيئاً ضبابياً مثل كابوس معتم. وجدتُ نفسي أمام ملتحين يرفعون أعلاماً سود. يصيحون صيحات الظفر والتهليل بينما أركض وإياهم حيث يذهبون. لم تكن تلك قدماي... أحدٌ ما، ربما كانت

حنجرة الله. سحبني معهم، حتى إذا ما انتبه لغرابتي أحدهم، وفي الوقت الذي كان بين ضبابية الغبار وحماسة الحرب على وشك الوشاية بي، في قلب ذلك المشهد القادر على إثارة الهلع في قلب أقسى الرجال، ابتلعتني الحفرة. وجدتُ نفسي هامداً مثل خشبة، أسمع وجيف قلبي هارياً من مكانه، جسدي يرتعش ويرتجف، بينما تزيد شفتاي وترغيان باللعاب، وبعد مضي ساعات... لحظتُ نزف قدمي الملتوية.

تلك اللحظات التي تلت سقوطي، تلك الدقائق التي لا تتعدى خمساً، مُنحتُ سكينة أبدية، سلاماً نشدتُهُ عاماً بحاله. أيةُ دقيقة خارجِ أسوار الجوع والحصار كانت لتمثل لي سعادة غامرة، أيّ مكان بعيد عن الأجساد المنسوفة بالقذائف، وجثث الرفاق الذين صاروا أرقاماً... أية بقعة بعيدة عن الشقاء المرّ كمرارة أيامنا وثقيلاً كظلمةٍ جاثمة. أية فسحة تقربني شبراً واحداً من قريتي، وأية نسمة يحتمل لها أن تحمل صوت أمي، أية صدفة، وإن كانت حفرة لا يتعدى عمقها مترين، بعيداً عن موضع الحصار، كانت لتمنحني هواء جديداً، كانت لتنفذ عبر المسالك القاتمة في داخلي وتجدد جدران رئتي الميتة.

قبل ساعة من بدء الهجوم الأخير، كنا نعلم أن ساعة خروجنا قد حانت، فإما سيكون الموت، أو ربما يقدر لسحر ما أن يكتب لنا ولادة جديدة. لم يكن لدي ما أحمله، ففي تلك اللحظات السريعة لا يُعمل العقل عمله إلا إزاء الأشياء التي رافقته وسهرت معه، لما قدّم له السلوى والعزاء. أشيائي كانت ثمينة، لكنها صغيرة. حملتُ لوحات الرفاق المعدنية، صورةَ أمي وكتاباً قَدم لي ما لا تقدمه رفقة ضيعة بحالها. لم أخبرْ بقصته أحداً من الرفاق، وفيما يدوي

فوق رأسي صليل النصال مثل ذباب طنان، أتنفسُ هانئاً مرتاحاً لوجوده داخل صدري وبين أزرار قميصي المزرق الذي خاطت عليه أمي حروف اسمي.

كان ذلك قبل عام. عائداً من آخر إجازةٍ قضيتها بين ربوع قريتي، ضاماً إلى جعبتي كل ما يمكن أن يسند حياة الجندي، أكياسَ فول يابس وعدس وحمص، ملابس نظيفة، حبوباً وأدوية للرفاق المصابين بأمراض مزمنة، صوابين زيت الغار، وأعشاباً من جبال القرية لتهدئة آلام البطن والبرد والإسهال، كله مضافاً لأطنان من الأسى وعشرات من غمائم الكدر والحزن. لم يكن لأحدنا أن يحدسَ بالنجاة، لذا حملتُ أشيائي على ظهري، وقطعت كراجات المدينة عند الخامسة فجراً، لا ألوي على أمر سوى كدري على غربتي. انطلقتُ إذ ذاك عبر حافلة تقارع جفاف بوادي مدينة حمص وسط البلاد، متجهاً إلى الشرق، حيث مرت الساعات بصورةٍ بدت فيها الصحراء وكأنها ستبتلع العالم، لأصل بعدذاك إلى مقر الفرقة حيث أنهي خدمتي الإلزامية.

كنتُ قبلها على وشك الصعود إلى الحافلة مبكراً، ورغم ثلاثين دقيقة بقيت لبدء الرحلة، إلا أنني آثرتُ الصعود هرباً من زحمة الكراجات وأصوات الباعة ومزاليج الحقائب المجرورة على دروب الزفت السوداء، اللون الذي صار يلون أيامي حتى صارت مثل عباءات الغربان القاتمة. زفتٌ قاتم أصمّ، لا حياة ولا روح. كنت أهمّ الصعود عندما سمعت صوتاً يناديني من الخلف: "توفيق... توفيق". تلك نبرةٌ ألفتها، وبعد أن استدرتُ تذكرته. كان شاباً قادماً من قرى مدينة حمص، أمضى معي خدمته العسكرية، إلا أن إصابة في قدمه اليسرى وهبتهُ رحمة الإعفاء من حياة الجندية المضنية.

ألفيتهُ يجالس بلاط الرصيف، ماداً قدمه المبتورة أمام بسطة تعلوها كتب مغبرة، ومجلدات ترك عليها الزمن آثاره..."إذن... صرت بائع كتب!".

تعانقنا، فلا يمكن للمرء أن ينسى رفاق السلاح. أولئك الذين رأوه عارياً وكاشفاً. من عايشوه الجوع والموت والأقدار الواحدة، ومعهم ذاقَ طعم المرارة والنظرات الفارغة عند اشتداد القصف... كانت رائحته كما هي؛ رائحة الحرب عالقة بخلاياه، بقدمه المصابة. فهناك نفد منا كل شيء، نفدت القصص والحكايا وبقيت رائحة الخراب عالقة. كنا نتحدث عن جميلات القرى، عن الرسائل والدموع على سبيل التآسي، فلا نحظى إلا بصفعات الحرمان المرة. انتهى فينا كل شيء، صور الصبايا اللاتي عشقناهم، رعشة النهود المتغلغلة في مخيلاتنا، نفد الليل والفرح والحزن، ففاضت شكوانا حتى طالت السماء. أحاديث كثيرة كانت تتوالى، لم تتسع حينذاك دقائقي الثلاثون، لقد حكى عن العالم كيف بدا إثر خروجه، كيف نبذتهُ خطيبتهُ إثر إصابته بالعجز، أيامه المتشحة بالمرارة، رحنا نتبادل الهموم فيما شمّر عن قدميه كاشفاً عمق إصابته. عرض عليّ بضاعته من كتب كثيرة، لم أفهم كيف لعدنان أن يصير بائع كتب؟ إلا أن كل ما كان يجري في البلاد حتى هذه اللحظات كان غير قابل للتفسير. ثمة أمور خفية. تعاويذ ألقتها السماء على كل شيء؛ على الناس والمنازل والحقول. حتى على طعم أرغفة الخبز التي تغيرت وتحطبت...

"وماذا تريدني ان أعمل بساق واحدة وأخرى عرجاء؟ عتالاً في سوق الخضار أم غزالة؟" بعدها أطلق ضحكته العابثة عالياً ثم قال متهكماً: "ثم إنّها البضاعة الوحيدة التي تتوفر بكثرة في هذه

الأيام، ومردودها لا بأس به". أقعدت القرفصاء. قلبتُ بضاعته رأساً على عقب. كتب كثيرة، روايات في الأدب العالمي، قصص بعناوين شهيرة بطبعات قليلة ونادرة، كان ذلك ليمثل لي أكبر متعة في قلب الحصار، ولا زلتُ حتى اللحظة أشكر الأقدار التي دفعتني لدى بسطة عدنان، فما أحضرتُه معي منها، منحني السلوى، وأعادني مرات من حواف الجنون وضيق الخلق ونفاد الصبر...

أعودُ من هذياني لحفرتي. قدمي تنزف بشدة، وأصابعي تتحول من لونها العادي إلى البنفسجي القاتم، أعتقد أنني على وشك أن أصير عدنان آخر...

حين قلّبتُ بضاعته، دوت ضحكته اللاذعة، فقد توقفتُ أمام مجموعة أبهرت ذائقتي، مجموعة مجلدة ومرتبة: مئة عام من العزلة، الجياد الهاربة، بودنبروك، موبي ديك، دي كاميرون... فتحت أولها، فطالعني عبر صفحته الأولى اسم لازلت حتى اللحظة أجهله: إبراهيم ناصيف. كان اسماً مطبوعاً بعناية، وبدا من رنته في الأذن اسماً لأحد قادر على تفسير تموجات الماء في النهر. فتحتُ الكتاب الذي يليه، كان لنفس الاسم. يبدو أن المجموعة بأكملها لنفس الشخص، وحين سألتُ عدنان عن وصول تلك البضاعة إليه، ضحك هازئاً مثل قرود السيرك وأجاب: "لا تسأل، هنا كل شيء يباع، إنها السوق السوداء. كل شيء ينتقل بخفة، كما لو أن جنياً يعبث بأقدار الجميع. أمس بكى رجل ههنا حيث تقف، لقد وجد أثاث منزله يباع أمام ناظريه. أقسم للجميع أنه أثاثه، وأعطى للمارة علامات دقيقة في أقدام الخشب أبواب الخزائن، كل ما جرى على لسانه أثبت للمتجمهرين صدقه، كان قد ترك بيته بعد أن حوصر حيه في مدينة حلب، فقل لي أنت: كيف وصل الأثاث

إلى هنا؟ أما أن تطالبني بالإجابة، فذاك أمر يقع خارج إطار عقلي وقدرتي. لا أعرف حقاً ما جرى، إلا أنني أذكر جيداً، أنه ولشدة ما أقسم لم يصدقه كثيرون، حتى أن البعض ظنّهُ مجنوناً.

اشتريتُ المجموعة بمبلغ زهيد لدعمه ومساندته. تركته متجنباً المزيد من الأسى، فما أحمله يكاد ينوء قلبي بثقله. صَعدتُ الحافلة، كان الطريق طويلاً، وعندما وصلتُ مساء، وجدتُ أنني نمت في مهجعي ساعات ثلاثاً، سلمتُ على الرفاق، وزعتُ عليهم أشياءهم وأعطيات ذويهم، وبعد دقائق بدأ هجوم مباغت يشتد، رانت نيران المحاصرين قريباً منا، ولم يكد يمر الصباح التالي، حتى صرنا مطوّقين مثل غنمة محاطة بذئاب جائعة.

توالت الاشتباكات. خسرنا الرفاق، وبين الحين والآخر كانت تمر أيام هانئة، تتعب فيها الأطراف المتنازعة على المهازل البشرية في هذا العالم. في مثل تلك الأيام، كنت أنزوي لركني الطافح بأباريق الشاي المتفحمة، على سريري الحديدي، ملتحفاً بطانيتي العسكرية، غارقاً في كتب مجهولٍ اسمه "إبراهيم ناصيف". كنت قد لاحظتُ اختلاف أحدها وهو كتاب الكوميديا الإلهية لدانتي أليجيري. غلافه مصبوغ بلون قرمزي غامق، قريب من لون الدم، ربما لم يكن دم إصبع نازفة، بل بدا ناجماً عن قتلٍ صبغ الغلاف المهترئ، لكن الأعاجيب لم تكن في واجهته، بل بما حوت دفتيه من صفحات أصابتني بالشّدَه والذهول. جعلني مقيداً لكشف غموضه. بدت روابط لقصة أو اكتشافٍ باهر. مخطوطتان... رسائل... صور للقى أثرية لأمكنة غريبة. ترى ما كان عمل ناصيف ذاك؟ كيف غادر البلاد وعاد إليها ثم وصلت كتبه لبسطات الأسواق في مدينة حمص؟

كانت الأوراق مصفوفة بعناية. بين صفحة وأخرى تنساب ورقة بيضاء. وبين جنباته وقعتُ على ما سلبني النوم من أسرار وألغاز، كتابات غريبة في صور بالأبيض والأسود وأخرى ملونة. قصص خفية واحتمالات داعبت خيالي، تلك الأحفورات الغبراء، مع الصفحات المنقوشة بقلم الحبر بكتابة عربية، تبدو ترجمة لنص قديم. كان فضولي مثاراً بصور غريبة، فلا هوية لتلك الأحجية سوى اسم صاحب الكتاب. قرأتُه في محاولة لثني عزيمتي عن خبيئاته، أو لعلّي أجد بين سطوره رابطاً، إلا أنني لم أعثر على ضالتي، بل ازددتُ توهاناً، ومع تتالي الليالي، واحتدام المعارك، وانقطاع شبكة الاتصالات، كنت أنزوي مبتعداً عمّا تبقى من الرفاق. كانت السماء فوقي منذورة لأزيز الرصاص، إلا أنها لم تحُل بي عن التدقيق في التفاصيل، والبحث عن روابطَ تكشف قصة الملف الضائع. بدأتُ بما كان مكتوباً بالعربية، وبعد طول التفكير، عثرتُ على رأس الخيط، قبضتُ بيدي على البداية... "جايون" كان الكلمة الجامعة لكل ما يجري في الأوراق. كانت كلمة معنونة أسفل النصوص، بدا اسماً غارقاً في القدم، ربما يعود لقرون بائدة، مخططاً بعناية من أراد أن يتفنّن في رسم كل حرف من اسمه... بدا خط عاشق لا ينقصه الشغف:

تاج بلادي المسروق

قلبها مطعون

رأسها يتدلى مثل أضحية

دمي يتدفق مثل ينبوع

وقلبي أسود كليل طويل

يا لهذا الحزن الجاثم مثل صخرة

يا لذاك العرش البائد مثل ذرات الغبار
ويالجمال عينيكِ أماليا
أي اخضرارٍ غض جميل؟
جايون

خيل لي أن النص عائد لشاعر يعود بنسبه لنسب قديم، ربما كان ناصيف مترجمه؟ بدا أحداً ما غامقاً، ضبابياً، أحداً صاخباً وعميقاً في توجيه منظار رؤاه، أحداً ضج داخله بحبّ عميق، ربما لحبيبة أو مدينة يظهر من كلماته عمقٌ هز سكون جمهرة ما، من نوع أولئك الرجال المغامرين الذين إن تحدثوا أو عملوا، جمحوا مثل أحصنة عنيفة. هل لمصيره بقية؟ هل لما حدث معه تتمة تكشفها كتب إبراهيم ناصيف؟ هل لروح متمردة تتحدث بتلك القوة والرقة الممزوجة بالكدر مصائر بينة؟

كنتُ أتابع البحث والافتراض كما لو أنني ممسوسٌ بذلك النص، مثل قط نهم حصل على طريدة دسمة أقرأ:

الشر يغرز أنيابه في دمي
أبالسة تسكن رأسي
هذه الأرض الطيبة
تلك الوردة البريئة مثل نبتة برية
كيف تنبت السم؟
كيف خرج من أديمها خائن؟
شيموئيل
يا سمّ الزعاف. كيف قطفت زهرتي

أين وليت مثل عاصفة شتائية

جايون

يبدو أن الأسرار هي ما تبني الحضارات، وليس النور الذي يرافق الاكتشافات والتنقيبات الطارئة. عبارةٌ جانبية في هامش النص، بدت مكتوبة بخط صاحب الترجمة. كنت أقرأ متسائلاً؛ أليس مؤلماً للمرء اكتشافه الخيانة؟ هذا ما بدا لي من قراءاتي، كنت أقف ذاهلاً، بين السطر والآخر، أقتاتُ على التفاصيل غافلاً عن أمر العشاء الباذخ الذي أعده الرفاق، وكان غالباً أعشاباً مطهوة بقطرات شحيحة من زيت نباتي وأرغفة لا تتعدّى أصابع اليد ... أنستني الأوراق وطأة الحرب وثقلها، خفّفت عني كربتي. كانت مثل كوةٍ هربتُ إليها بعد انتهاء نوبات حراستي الليلية، مثل منجاة آنس نورها وأتناسى عبرها فقد الرفاق والغربة.

أخرج من ذاكرتي، ها هي الشمس تشرق مجدداً، ينساب ضوء رفيع نحو جحري بين جنبات الحفرة الرطيبة. تضاعف حجم قدمي، صارت مثل كرة منفوخة، وتوقف نزف الدم، إلا أن لوناً أسودَ بدا يمتدّ رويداً من نهاية الإصبع الأخير وينسل نحو باطن القدم. معدتي تقرقر، والأصوات التي كانت تحتدم فوق رأسي همدت، إلا أنني لم أجرؤ على رفع رأسي، لا أضمن رحيل القناصين، ولا برهانَ ينبئني بمآل صاحب رجحان كفة المعركة. سيكون الخروج في مثل هذه اللحظات مخاطرة كبيرة، فلأنتظر أيضاً ...

لم أترك الوثائق والأوراق المحفوظة في كتاب إبراهيم ناصيف إلا مرة واحدة، حدث ذلك حين سقطت قذيفة على سقف أحد مقار العمليات، فتشظى على إثرها خمسة من أصدقاء الخدمة الإلزامية. رأيت الحرب يومها وجهاً لوجه، ألفتها، حددتُ لوهلة

مدى بشاعتها. كان يوماً عصيباً. هي الحرب، حيث كان من الممكن أن تجرك إلى موقع الحادثة وتدفعك للبحث بين الحطام عن أشلاء الرفاق. دفناهم مثل من يدفن نفسه، يحفر حفرة عميقة ويجلس فيها ينتظر مآله. كانت أحوالنا ليست بأحسن حال منهم، كنا أمواتاً قيد الانتظار، إلا أن أحداً لم يدرك ما إذا كانت نهايته ممزقاً إلى نتف وأشلاء، أو أن معجزة سماوية ستهبط عليه وتصنعه مثل ما يحدث في الحكايات السحرية، تلك التي تتركها آثار التعويذات والجنيات على جباهٍ باردة ميتة. هكذا مثل مسحة نبيّ، كنا في قلب الخراب المحيق نطير بمخيلاتنا وأجسادنا، نغمض أجفاننا، لنصبح بين ربوع قرانا ومنازلنا وأحضان أمهاتنا.

عدت للأوراق منهكاً. بعد مضي أسابيع على دفن ثلثي رفاقي في الحرب. طالت لحيتي وشعر رأسي، صرت أدخن شاياً أخضر ملفوفاً بأوراق غريبة، قارعت اليأس وقارعني، كان الانتحار أهون ما في الأمر، مثل أي فعل بسيط في الحياة، وجدته منفذي الوحيد، ونجاتي المفتوحة بعيداً عن أسوار الموت المطبقة على رقبتي.

فعلتها... أقدمتُ على الانتحار، وشارفت على الموت لولا عثر عليّ أحد الأطباء المناوبين. كنتُ ابتلعت مظروف أدوية بعيار مرتفع دفعة واحدة، لقد قررتُ أن أنهي كل شيء. كانت حينها أوراق السيد ناصيف مرتبة بعناية داخل كتابه، وضعتها في مكان آمن، إلى جانب صورة أمي، قبّلتها بعمق حتى كدت أخفي تجاعيد وجهها بشفتي وقلت لها: سامحيني.

تناولتُ الظرف الأول عاقداً العزم على تناول الآخر في حال لم أنجح. مضى الوقت بطيئاً مثل سلحفاة. راحت الساعة تدب ببلادة إلى أن بدأتُ أشعر بالغثيان. انتفض رأسي. ضجّ وكأنّ في داخله

طبولاً تقرع. خرجت أصواتٌ من معدتي، وصار جسدي حاراً. تتالت الصور أمام ناظري. معسكر الحرب، الأجساد المبقورة، وجه أمي الباكي أمام مصطبة المنزل في القرية، قدم عدنان المبتورة إلى جانب أثاث بلاد ينقل لبلاد أخرى، رؤوس ومحاجر فارغة، وشاب بدائي عار تستر عورته قطعة جلد بالية، كان يقف أمام مدينة بائدة بشعر طويل القامة، ينظر إليّ، يشدني إليه ويشير بأصابعه إلى حطام بلاده، ثم اختفى كل شيء دفعة واحدة.

هجم الليل مجدداً، هي ليلتي الثانية، أمضيها داخل الحفرة. قدمي ثقيلة، أعتقد أني فقدت القدرة على تحريكها، تدفعني للخروج. جسدي يصرخ عن حاله، كل قطعة فيه تعض ذاتها وتتألم، أخرج من تهويماتي، أكابر عن أوجاعي وأرفع رأسي قليلاً محتمياً بظلمة كالحة. لفحتني نسيمات نقية. يا لرحابة مذاقها، ابتلعتها كمن يريد أكلها. كانت في قلب السواد والحرّ الخانق مثل أي شيء أبيض وناصع، مثل حضن فتاة حانية، أو كطبق دافئ في ليلة باردة. يبدو الهدوء سيد الساحة الآن. هل أخرج مستتراً بالظلمة أم أنتظر انبلاج الفجر؟ إلا أن العتمة ذئبة لا آمن غدر مصائدها، إذن سأنتظر ولوج الضوء حتى أتبين سبيل الخروج.

بعد حادثة الانتحار، فتحتُ عيني على مشهد إحاطتي برؤوس الرفاق، بدوا مثل رجال بدائيين يحومون حول نار مدهشة. بدأتُ أعي شيئاً فشيئاً ما حدث. يبدو أن أياماً مرت عليّ، إلا أنها الحياة مجدداً، تفتح لي ذراعيها الخبيثتين، ها هي غمرات الضحكات ونعرات الجنود ونكاتهم تنعش جسدي الغائب. رحت أتذكر محاولاً إعادة الصورة المتسربة، هل كان ما رأيته شاباً أسمر الطلعة يمسك قصبة صيد ويستر عورته بقطعة جلدية؟ يدٌ تمتد نحوي، يدٌ

تتحدث إلى أحلامي، إلا أنني أظل حبيس التيه. ودعني الرفاق، ومددت ذراعي نحو الأوراق مجدداً، أعدتُ صورة أمي لجيب صدري، وعدتُ للقراءة متناسياً صداعاً طفيفاً:

العالم الكالح

العالمُ الظالم الملتحف بآلهة نائمة

بيتي دنسته أقدام الغرباء

صيدي أكلته غربان الشواطئ البعيدة

وقلبي طيرٌ معلق بين السماء والأرض

صُمت آذان المعابد

تكاثفت العتمات حتى أعالي الحلق

وزهرتي اليانعة

وردتي النضيرة بعيدة غريبة

قطرة مختبئة داخل محيط أزرق عميق

جايون

هل يا ترى قصد بزهرته اليانعة تلك الفتاة التي أسماها أماليا؟ ومن جايون ذاك؟ لا شك أن سراً عظيماً خلف الحكاية. رواية أخذت من عمر كاتبها الكثير حتى وصلتني شبه مكتملة. أغلقتُ الكتاب والأوراق. كنت لا أزال في ثيابي المدنيّة، مُنحت استراحة طويلة ضمن أسوار الفرقة، وعقدتُ العزم على إنقاذ حكاية جايون وتقديمها لصديق باحث في حال عودتي إلى قريتي، إلا أنه وبعد يومين من محاولة الانتحار، حصل الهجوم الكبير...

الشمس تبزغ مجدداً، وتهزم الظلمة في دورتها الأبدية. يدي

تضـم الكتـاب إلى صـدري، أثبتـه بـين طيـات قميصـي المـزرق ناحيـة اسمـي الـذي خاطتـه أصابـع أمـي. آلامـي مثـل أجـراس الكنيسـة، تعلـن اقـتراب النهايـة. يبـدو العـالم مـن فوقـي شاسـعاً مثـل قصيـدة عذبـة، روحـي تتشـهى العـدو والانطـلاق، وقلـبي منقبـض. أريـد أن أرحـل. أن تنقضـي الأيـام بسـرعة خاطفـة فأجـد نفسـي بـين ربـوع قريـتي. مضـت ليلتـان، وهـا هـو صبـاحٌ آخـر يطـل علـى آلامـي وعذاباتـي. يبـدو أن سـاعة خروجـي قـد حانـت، أمـدّ رأسـي متلهفـاً. يـا إلهـي... رائحـة الفجـر، أتنشـق هـواءه المنعـش، ألعـن بشـاعة هـذا العـالم، أمـدّ جسـدي خـارج جحـري، وأخـرج...

أرض الأرجوان

-3-

مضى عامان على حادثة جموح الفرس هابوبو...

صار المشهد مختلفاً الآن...

بدّل الزمن هيئة الأمكنةِ بالهدم والبناء والتنظيم. عدّلت التشييدات الجديدة من وجه لاَواديسا الآفل، وقد أضحت حاضرة يونانية، ومن بين أشجار الصنوبر والصندل ارتفع الأكروبوليس[15] بمجمعات مدنيّة. كانت جموع المسافرين والجوالين تعبر بوابة أنطاكية شَمالاً، حين ظهر جايون قاصداً سوقَ المدينة، محمّلاً بغلتهُ أكوام أنسجةٍ مصبوغة، مما يأتي به للتاجر شيموئيل، ليقوم الأخير ببيعها وإرسالها إلى البلاد البعيدة. اعتاد القيام بتلك النزهة مرةً كل عشرة أيام، أو كلما فرغ من صباغة بضاعة شيموئيل، وفي الحقيقة لم يكن البَيع مؤخراً غايته من مغادرة عزلته في كوخه، ولا رغبةً للتوجه نحو الصخب المدنيّ الجديد، بل هي اللهفة للقائه الحريريّ بأماليا. لقد منحت حياتهُ طعماً آخر، رسمت بوجودها دفئاً حميماً حلّ مكان وحدته المظلمة. ربما لم تكن تدركُ ما يشعرُ به كلما التقيا تحت أعمدة التترابيل، ولو صحّ التعبير، فهو لا يملك جرأةَ وصفِ ما يُثار في نفسه حين يلوح شعرها منسدلاً على

---

15 الأكروبوليس: هضبة صخرية عالية في أثينا تجمع معابد عدة. يأتي معناه من الارتفاع والعلو. اعتاد اليونانيون بناءهُ في كل مدينة يدخلونها.

كتفيها، تاركاً آثاره على خديها المخضلتين بالندى. لا شيء يذكر، سوى وجود عميق، وارتهان مخدر للقائها. ثمة مسحة سماوية تسقط عليه إذ ذاك، فتحُول بينهما وبين العالم. لقد حررتهُ تلك اللقاءات مِن كلّ ما كان يشعر به من سخط وآثام إزاء الوجود، صارت الرفيقة. فهل ما يحدث هي تلك النار الحارقة التي يسمونها الحب؟ وأنى له إخبارها؟ فما إن يقع بصره عليها حتى يلجم الشوق لسانه. ينعقد الكلام ليمضي معظم الوقت صامتاً، ومع أنه سكون يثقل نوازعه، لكن له طعماً لذيذاً ومسكِراً، يجعله شبه منسيّ، أو في أفضل حالاته يحمله لما يشبه التحليق.

كان يجتاز السور المحيط بأطراف لاواديسا من الناحية الشمالية، فبعد شق الأروقة والشوارع ورصفها بالأعمدة، مُدَت ترع المياه باتجاه المدينة التي انبسط جسدها مثل كتلةٍ هائلة غريبة، فبدت شبه منبطحة ترخي أطرافها في كلّ اتجاه. وعند الزقاق البحري، كانت تنزلق بواخر صغيرة وكبيرة تقصد الميناء مخلفةً أثلاماً من الأمواج البيض. بان السور شاهقاً تخترقه من شرقه والشمال بواباتٌ واسعةٌ، بعضها رئيس والآخر ثانوي، بينما نهضَ غرباً وجنوباً سورٌ معلق بلا نوافذ، حلق على الرأس الشاهق المطل على البحر الكبير، حيث سفوح الانكسارات أسفل الأكروبول. وحيث القصر المشرف على جروف جعلت المدينة عصية على الهجمات، منحتها منعةً ضد اختراقات الأعداء والحساد.

كانت الشوارع ضيقةً طويلة، تقطع دروب المدينة شرقاً وغرباً، وكان جايون يهبط عبر الترابيل[16]، موضع تقاطعها مع الطرقات

16 الترابيل: نقطة تقاطع شوارع المدينة التي شقّها سلوقس: يشير جان سوفاجيه في كتابه مخطط لاواديسا: أنها في موقع نقطة البوليس قرب مجنون ليلى حاليا، حيث كانت نقطة تصالب أربعة طرق ومركزاً للمدينة آنذاك.

الشمالية، واقفاً عند نهاية شارع "الديكامانوس"[17] النازل من بوابة الشمال حتى سور المدينة الجنوبي، وفي الوقت الذي كان يمضيه متلهفاً، تأتيه أماليا من موضع سكنها شرقَ المدينة عبر شارع "الكاردو"[18] المرسوم بشكل عرضاني حتى غربها. وفي النهاية، حيث الموج والسفن والمدى اللا متناهي، ارتفع الميناء بأحجاره الضخمة وصخوره المنقوشة بأكفّ الكهنة، وإلى جانبه المكسر، حيث البلاطات الرخامية ورصيفٌ يفرغ التجار والبحارة عليه بضاعتهم أو يرسلونها إلى بلدان العالم.

وسواء أكان العابر يقطع دروب الديكامانوس أم الكاردو، كان بإمكانه عبر الباحات المعمدة والأروقة التي حجزها التجار والباعة، أن يتوه بين بازارات المقايضة، وميدان الخيل، وأصوات القزازين والصاغة والنجارين، حيث تعلو جنبات الأمكنة روائح الخمور والزيوت والأعناب، إلى طرفٍ مرتبٍ وأنيق سكنهُ خياطون جاوروا دكاكين الحلاقين وحمّاماتٍ رُصفت سقوفها بالآجر والقرميد الأحمر. وبين تقاطعٍ وآخر: كانت تماثيلٌ لأسودٍ وفرسانٍ زينت الزوايا ومداخل المعابد، ومنصات لمبانٍ نقشت بأبهى التزيينات، فيما أحاطت المنازل والدّور ساحةً توسَّطها مسرح ومتاجر راقية. أما خارج الصخب الجديد، بعد الأسوار، فقد امتدت سهول زراعية وتجمعات قروية، تحاذيها بساتين وكروم شغلتها أشجار الزيتون والأعناب. لتطلّ شمالاً مدافن ومقابر لصقَ السور، أمر الملك بإخراجها بعيداً عن المدينة لمباركتها وطرد الشؤم وأشباح المشعوذين عن سكانها.

---

17 الديكامانوس: شارع وسط مدينة اللاذقية وهو شارع هنانو حاليا، أطلق عليه اسمه سلوقس نيكاتور: راجع جان سوفاجيه.

18 الكاردو: هو شارع عرضاني (شرق غرب) وسط مدينة اللاذقية: يسمى حالياً شارع فرنسا: راجع جان سوفاجيه.

كان ذلك الصخب مربكاً لرجلٍ صنعهُ السكون كَجايون. فالباعة والتجار يرتفعون بأصواتهم ومضارباتهم، فيما يقطع مشاؤون ومفكرون الأروقة باتجاه الآغورا[19]. فلاحون وقرويون من السكان المحليين قدموا لبيع منتجاتهم الزراعية، من بيض الدجاج وحليب الأغنام والأبقار. يهودٌ هبطوا إلى الميناء آتين من المرافئ الجنوبية للمتاجرة والربح. كهنة وفتيات معابد بنصف ملابس تظهر تقاطيع الأجساد اليانعة فتلهب الأنفس وتجيل الرغبة في قلوب الناظرين. كان ذلك كفيلاً بمضاعفة شعوره بالسخط. رأى المشهد أمامه كجمهرة نحلات تئز داخل رأسه. ففضلاً عن ذلك، كانت أصوات اللغة تطرق مسامعه شبه غريبة، أصواتٌ يونانية زاوجت ما ينطق به سكان راميتا، فظهرت بين الأروقة والأسواق لغة هجينة وكلمات غريبة جمعت بينهما، صار يشعر بغرابة ساحله، كأنهُ بقعةٌ من عالم لم يصُل ويجُل بين جنباته، ولم يتنقل بين فساحة غاباته وشواطئه، لكن ذلك الطيف من السخط المشبوب بالتمرد، يختفي ويتبخر لحظة لمحهِ أماليا مطلةً تحت صوّان أعمدة الكلس الشاهقة.

"ها قد وصلنا للجزء المقيت من النهار...". همس جايون في سرّه.مكتبة .. سُر مَن قرأ

أمام متجر شيموئيل، يمر الوقت بطيئاً ثقيل الخطو، فما إن يفرَغ من محادثة التاجر الخمسينيّ، حتى يتنفس الصعداء. كان والد التاجر أحد سكان القرى المجاورة، وُلد فيها مثل باقي سكانها، لكنه وجد في السفر نجاةً من إساءات الإخمينيين. سافر مع كامل عائلته متاجراً من سواحل راميتا وحتى مدن عكا وصيدون جنوباً،

19 الآغورا: ساحة دائرية اعتاد اليونانيون اللقاء وسطها. كانت موضع التقاء الفلاسفة ومركز دينياً وتجارياً وفكرياً لكل مدينة يبنونها.

وهناك كبر شيموئيل الطفل، صار شاباً ونما فيه الجشع بين أروقة البازارات ومماحكة التجار ومقايضاتهم. عاد إلى بلاده، وراح يؤدي دور الرابح أبداً. عرفهُ الجميع، رجلاً لا يؤتمن له جانب، لا يأتمنه المرء حتى في مشاركته وجبات العشاء، وكان جايون خير من يعلمه، يكشف خبثه، ويوقن بحقيقة نهبِه تعبه حين يشتري بضاعته بأبخس الأثمان، ليبيعها في أماكن أخرى بأسعارٍ باهظة.

"يا مرحباً... يا مرحباً..." صاح شيموئيل مؤهلاً مرتدياً هيئة المغتبط بقدوم جايون.

إلا أنه أفرغ حمولة بغلته صامتاً. كان في سريرته يكره شيموئيل ويشعر إزاءه بالاحتقار. نظر إليه نظرات تحمل الكراهية، رمى بتقززٍ صحاف طعام طماهُ الذباب. بدا الآخر عالماً بخفايا نظراته الهازئة، غير أنه كانَ ماهراً في إخفاء شعوره بالدونية، حانقاً أمام صرامة شابٍ يصغره بأعوام، وإذ كان يصمت، فلإدراكه علات سخطه المستعر. فالشاب، شهدَ مع باقي أفراد أسرته خيانةَ عائلة شيموئيل لسكان القرية، تلك الخيانة التي غيّبها تعاقب السنوات، وصارت طي النسيان إلا في ذاكرة طفلٍ رأى ما قدموه للإخمينيين حينذاك. لقد قاموا بكل ما يهيء لنهبِ القرية. بعدما هربوا بأنفسهم، وها هو يتابع خطيئة أجداده، يشترك في الإثم، ويهلل لقدوم السلوقيين ويفرش الدروب بالورد لورثة الإسكندر وقادتهم.

عاش جايون مشاعر مضنية، وشكوكاً قاتلة. رأى في كوابيسهِ تلك السكين المغروزة في خاصرة أبيه، تلك الوشاية الخفية التي خلفت مقتل عائلته قبل عشرين عاماً. كان الخوف في داخله يتصاعد كلما لمح شيموئيل العارف بأسرار عائلته، وهو إذ ران يصمت حين اللقاء، فلأن للحديث وقته. لربما كان التاجر غير

متيقن بعد من موقع الطمائر، لذا راح الأخير يعمق صلاته بالبلاط السلوقي، يتحيَّن الفرص للقاء الملك أو ابنه، مزجياً لهم عطايا تفتح الدروب لأراضي القرية...

كان التاجر يخفي تحت شاربيه الكثين ابتسامة ماكرة. يتكئ كطيات فوقها طيات، بدا مثل تلة قوامها الأرداف والسيقان، طاوياً جسداً انبعجت أطرافه وبرزت خواصره من فرط الدهون واللحم، وبين أخشاب الدكة التي جلس فوقها، شحذ لسانه السليط، يعلم أهل السوق مدى أذيته. كان يرميه قرفاً، بينما يسيل لعاب التاجر إذ رانت في مخيلته كنوز القرية ومدافنها العامرة. ما زال شكه منقوصاً، ما زال ظنه يحوم حول كوخ الشاب خارج الأسوار، وهو إذ رأى منها ما رأى أثناء بحثه، فقد كتم آثار رؤياه. أخفى بين ثيابه ما لقيه من كسرات ومصاغ وجرار عتيقة أكدت ظنونه.

لأجل تلك الغايات، كان يتحيّن الفرص للانقضاض على سره والتخلص منه. في آخر الأيام أمسك بخيط سيمكنه من ليِّ ذراع الشاب وكسر رقبته. لقد قادته خطاه في أحد أيامه الظافرة للكشف عن سر قدومه للمدينة وتردده إليها، تساءل التاجر عمّا دفعهُ للخروج من عزلته، ولم يدم الوقت طويلاً حتى علم وهو يتستر بعمود مشيد وسط ساحة المدينة. "إذن هي الجميلة أماليا...!" ابنة التاجر بارسينو. سيكون فضح سرهما ورقة رابحة بيده في حال اضطر للضغط عليه. أنزل جايون بضاعته معالجاً صمتاً ثقيلاً، بينما يفتعل شيموئيل نكاتٍ سمجة، فظةً، أكثر منها مضحكة. بدا شكله مثل ضفدع صغيرٍ بقامة لا تكاد تصل كتفي جايون العريضين. يتقافز بنعيقٍ دوى بين أنتن السبخات وأكثرها عطناً. كان صوتاً يسبب له الصداع والتوتر، لذا وحين تهيب للرحيل، نطق

التاجر ضاحكاً:

- ألا تأتي لنتفق على تجارة مشتركة فيما بيننا؟ متى ستقبل عرضي؟ صدقني ستهلّ الكنوز عليك فيما لو قبلت؟

-هل رأيت يوماً شرقاً وغرباً التقيا معاً في بقعة واحدة يا شيموئيل؟

ابتسم التاجر هازئاً:

- أمرك معذور، هي فورة الشباب ومجونه وصلفه، أعذرك إذ كنتُ مثلك في يوم ما. كنت أحلم أن يسقط العالم تحت قدميّ، لكن تمهّل، ففي الحياة مباهج ومفاتن يعمينا عن جمالها الغضب والتبجّح. تعال نتشارك أموالنا ونغزو العالم بتجارتنا!

-ومن قال لك أنني أملك المال أو أكنز الذهب؟ ألا يكفيك ما تجنيه من تجارتك مع أحفاد هيلين وما تدره عليك المخازن في السواحل الجنوبية؟

كان الحديث مع شيموئيل من أكثر الأمور القادرة على استفزاز جايون وإصابته بالغضب. صدره يريم بالغيظ، لكنه كتم ناره. ترك التاجر يتحدث مع نفسه منسلاً عبر الرواق المعمد نحو الجنوب. بينما رسم شيموئيل ابتسامة رطبة ماكرة، تخيل صور الجميلة أماليا عاريةً بين ذراعي الشاب داخل كوخه، التمعت عيناه كعيني ذئب جائع، ولاحت على وجهه أمارات الشر وومضاته الحارقة.

❖❖❖

عيناهُ ثابتتان هلعتان، حلمتان تسببان السّهاد وتتركانه معلقاً في أبعد سماء. الجسد المائيّ، الجدولي، الأبيض المنساب على خشونة أصابعه. أشبه بحريق تطفئ لهيبه قبلات أكثر حرقة، رحلةٌ لعوالم

بعيدة. لكن حزناً مختبئاً وراء كل شيء، كربة عميقة تتمدد تحت جلده، وتغلغل بالعشب والماء والدم. شيء كبير لن يُنسى. سخط عارم كعاصفة، يقصيه عن العلو، يحرمه لذة الشهقات الملتاعة، يستلقي على ظهره من جديد، ويعود لتنفسه السريع، اللاهث، ملتحفاً جسدها بأكمله.

كان الغضب يطفو على وجه جايون. أصوات الشتاء خارج الكوخ تعوي، والأمواج تهدر كأنّ الآلهة تتخاصم فيما بينها. اختفت معالم جزر الأرجوان المتناثرة أمام الساحل الطويل، فبدا الكوخ تحت رحمة العاصفة مثل مسافر ضاع في عالم تتنازعه العواصف. انهمر المطر بكثافة، وراحت أصابع زوبعةٍ جموحٍ تنقر السقف والجدران. كانت أماليا تفترش كتفه وذراعيه. صدره يعلو ويهبط. تعلّقت نظراتهُ عالياً، حيث تدلت أشياء كثيرة: سلالٌ وأصواف مجدولة، عناقيد بصل وثمار تين مجففة. تطاولت شعلة نار الموقد لتدفئ أرجاء المكان وتمدهُ بالنور. كان ينظر صامتاً نحو الأعلى دون أن يعيرَ الانتباه لمناجاة محبوبته:

- جايون... متى سيخمد هذا السخط المتأجج؟ أخرج أحزانك الموصودة داخل صدرك؟

- كيف سأهدأ يا رفيقة؟ أحمل ههنا أحزان الآلهة والبشر... وأشار بيده إلى صدره.

- تكلم... أخرج كل حزن منه.

استدار على جنبه، تفرّسَ بعينيها العشبيتين الشبيهتين بحمامتين، مرر أصابع يده على خدها الناعم الوثير. سألها بصوتٍ حانٍ:

- هل تودين رؤية كلّ شيء؟

أومأت برأسها، مرت هنيهات حتى خرجا يحتميان من لسع الأمطار بجلود حيوانات يابسة. دثرا جسديهما، ومضيا تحت رحمة رعود صاخبة. تبعتهُ بصمت وهو يمسك يدها. قطعا السهوب والتلال المقابلة للشاطئ. ومن قلب الظلمة، خرج بعض نورٍ على المشهد. تسمرا أمامه لاهثين: بقايا قرية بائدة، جدُرٌ شمخت في زمن بعيد، تشققت حتى بان باطنها بأركان مقوضة، تهاوت نوافذٌ فاضت حناياها المعتمة بكآبةٍ خالصة. أوحى لها سلّمٌ رخاميّ بولوج خربٍ محطم. كان كل شيءٍ فيه يوحي بمجدٍ آفلٍ ومظاهر عزّ بائدة. بقاياهُ المفتتة يلقاها العابر هنا وهناك. ثمة شيء واحد يستطيع المرء أن يجزم بانعدام تحوّله، هو ذلك الشاب الذي بقي على حزنه منذ عشرين عاماً، كان الشيء النضير الوحيد الهارب من تلك الخرائب، والأثر اليانع الموسوم بالحزن الزائل. وقف كصبيّ صغير، يعود بذهنه إلى زمنٍ غبرٍ، حين كان القَفر نضراً، والخرائب مزهرة، وموته اليوميّ حياةً كاملةً.

كانت فلول العاصفة تتسابق للهطول من وراء الأفق، ظهر حوض مياهٍ رخامي علا منه صوت التساقط. أعطى انطباعاً غريباً ممزوجاً بالرهبة والترقب. أمسك يدها، وشدّها ماشياً إلى جوف معتم. تكشّفَ المشهد عن منزل قديم شكلتهُ الصخور والأحجار الكلسية، ظهرت محطمةً كأعمدة قصيرة الطول، طمتها أعشاب وأكمات نمت بين الشقوق، لترسم سقفه سماء مطيرة. انحنى على إحدى الزوايا الخفية، راح ينزع عنها كسرات من الصخر المتراكم. همست أماليا: "جايون... حاذر...".

لم يجب. تابع نقل الحجارة والبقايا حتى تبدت هوّة مظلمة. نهض على قدميه، علا صوت لهاثه على زعيق العاصفة. أمسك

يدها ناظراً لعينيها مثل من يأتمن العالم على قلبه، ثمّ هبطا عبر سلالم حجرية تكسوها الطحالب والعشبيات نحو هوة لا نهاية ظاهرة لها.

أمام مشعلٍ ينتصبُ مائلاً، قدح شعلة نارٍ بحجرين رخاميين. صب زيتاً موضوعاً بعناية على رأس المشعل، فأضاء المكانَ نورٌ دحر فلول الظلمة الهاربة. كانت عيناها تتّسعان. فمها الممتلئ الصغير ينفرج عن نفسه متلوناً بالدهشة والغرابة. رفوفٌ طويلة على جانبيها جرار من تلك التي تحفظُ الزيوت والخمور. صحافٌ فخارية مغبرةٌ مقابل أخرى حملت عشرات اللفائف الجلدية والصناديق الخشبية. أحجارٌ منقوشة والكثير من الأحفوريات الفنية المذهلة. مشى العاشقان عبر رواقٍ ضيق اتسع بين الرفوف. علا صوت جايون لأول مرة مذ خرجا من الكوخ:

ـ هذا سرّ عائلتي...

كان صوته يختنق وينسلّ خارج حنجرته مثل من يستسلم للبكاء. تلوّنت ملامحه بحزنٍ مغروزٍ في جلده ودمه. انعطفا عبر رواق جانبيّ، فبدا ينفرج عن آخرَ. ليس المكان متاهة، بل فوهة لملكة أروقةٍ ينفرج بعضها. رفوف تتناسل، عشرات الجرار تتكاثر وحكايات منقوشة على رقم، وأخبارٌ رسمتها مسامير قاسية. كان فرحاً وحزيناً في وقت واحد، خليطٌ متناقض من البهجة الممزوجة بالهمّ. توقّفا أمام رف مغبر، مد يده، نفض غباراً تكدسَ فوق لفيفةٍ غامقة. فتحها، بدت حروفها لأماليا غريبة وغير مألوفة، فعجزت عن فك رموزها. نطق قائلاً:

ـ هذا ما علمني أبي قراءته... انظري... وأشار لسطورٍ تلاها بصوت مسموع:

بعلٌ سيحدد ساعة مطره
يهب السحب صوته
لنبني له بيتاً من خشب الأرز
لنعمّر له بيتاً من الآجر
لنقل للجبار بعل العلي:
أحضر موكبا إلى مسكنك
ومؤوناتٍ إلى داخل قصرك
لتحضر لك الجبال أكوام الفضة
والروابي أنواع الذهب
لتحضر لك كل أنواع الجواهر
وتبني لك بيتاً بالفضة والذهب
مسكناً من الجواهر المتألقة[20]

مكتبة
t.me/soramnqraa

أشار بإصبعه:

- انظري... رسالة عن قصر بعل العظيم المشيد أعلى جبل بعل صافون[21]...

- تكاثفت عليّ أسماء الآلهة يا جايون؟

- بعل إلهنا العتيق، حسب ما قرأته عن القدماء، كان إله الإمطار والرعد والبرق، وصاحب العربة الجوالة عبر السماء. أسموهُ حامل السياط الجلادة للغمام الكسول ومجبرها على تساقط المطر بصوته المزمجر.

---

20 قصيدة بعل سيحدد ساعة مطره: مقطع من قصيدة لأسطورة "قصر بعل".

21 جبل بعل صافون: هو جبل الأقرع حالياً. عرف في الزمن الإغريقي بجبل زيوس كاسيوس، اما في العصر الروماني فسمي جوبيتير كاسيوس.

قطع صوته مباغتة، أنزل عن رف آخر ما يشبه الكأس أو الوعاء، نفخ عليه فتطاير الغبار، دققَت في تفاصيله، بانت لها تصاويرٌ لجسد امرأة ترتدي ما يشبه رداء زوجةِ رجل كنعاني جالس على عرشه تسكب له الماء البارد. تطوف حولهما حيوانات ذات قرون ونقوش متشابكة بعقد فنية، وإلى جانبها صحاف برسوم تصف الحرب الدائرة بين بعل الإله والإله موت وهما يتداوران ويتصارعان في مشهد يرسم دورة الحياة المقدسة.

مشاهدٌ أذهلتها، أوانٍ وخلائق متزاحمة، أممٌ احتفت بأيام للاغتسال والتطهر، رسومات نيران عالية وملوك على الجدر تقدم القرابين للموتى، عبيد يدقون الطبول، ألواح جنائزية، ومواسم لأعياد تبجل الإله "ملكارت" و"ياشمون"، أفراح فينيقية...

- جايون... لِمَ تبدو الكتابة غريبة رغم علمي بالآرامية؟

- هي الحروف الأصلية يا حبيبة؛ تمازجت اليوم مع حروف الأمم التي احتلت الأرض وهدمت المعالم...انظري...

سألت بلهفة بعد أن تمعنت في لفيفة أخرى:

- إذن نحن على أرضها... تلك القرية التي سمعتُ عنها من حكايات النساء والبحارة والمحاربين...

- نعم... هي قريتنا القديمة، إرثنا المطمور، والسر الذي أحمله في داخلي. أرضي التي تُنهَبُ كل يوم... إنهم يتوافدون مثل جراد جائع...

ملأ صدى صوته الغاضب الأروقة والجدران من حولهما.

- لكن يا جايون، رأيت الحال قبل مجيء اليونانيين في القرى البعيدة. كان السكان متفرقين ومتعبين وأحوالهم مضنية. انظر... ها هي الحياة المدنية تفتح ذراعيها... ها هو القادم تعدهم بعظمة جديدة.

تبعثرت ملامح وجهه، عبقت عيناه مثل غيم أسود وعلا صوته:

ـ ماذا تقولين يا أماليا؟

انتفضت فروة رأسه المملوءة بالندوب.

أتسمين ما يقدمه السلوقيون لنا بلاداً؟ القرى دمرت، والمنازل أحرقت، والمغاور تطفح بالمشردين. هو صمت الضعفاء ما ترينه... ثم عن أية مستقبلٍ تتحدثين؟ عن ما يفعله حفدة هيلين[22]؟ من يبدلون لغتنا ويمزجونها بلغاتهم، يعبثون بآلهتنا، ويبنون معابد غريبة؟ من قال لك لم تكن هنالك حياة مدنية؟ أو أسوار أو الأكروبول ذاك؟ من قال لم يكن له نظير في ممالكنا العتيقة؟ ثم ماذا سينجم عن كل ما حدث؟ حضارة بشقَّين؟ حضارة لا تعرف نفسها هيلينية أم فينيقية؟ ما يجري اليوم من تشرذم أهل القرى في البراري والتلال هو من صنع الغزاة، إننا على وشك أن نفقد ملامحنا. لم يترك الإخمينيون فينا رمقاً حياً، وهاهم من أتيت معهم، يجيئون بالعدل والمحبة، فيما سيوفهم تغير ما وسمه بنا أجدادنا؛ الأسماءَ، واللغةَ، والمعالم كلها.

كان صوته أشبه بصوت الرعد. غضب رجّ المكان مصيباً جسدها بالرجفة. تساءلت بذعر؛ هل كان نفسه ذاك البحر الهادئ الذي حضن جسدها حانياً قبل قليل؟ هل كانا معاً أمام النار تحرقهما الهمسات والنظرات كمداً ولوعة؟ ارتمت بين ذراعيه، عانقته، شدّت على جسده وأضلعه. كان صلداً مثل صخر صلب، إلا أنه لم يتمالك نفسه، طوقها بذراعيه، وطفق يبكي مثل طفلٍ صغير غريب. كانت دموعه تتساقط على وجهها وفمها وجبينها.

همس مختنقاً:

---

22 حفدة هيلين: جدة اليونان والتي تنسب لها الحضارة الهيلينية.

ـ هنـا ذبـح أبـي وأمـي وسـائر عائلتي...أفتقدهـم يـا أماليـا... لا يمـر يـوم إلا ...واختنـق صوتـه مجـدداً

ـ كان الأمر قاسياً... شديد القسوة...

ضغـط زاويـتي عينيـه. حـاول الـكلام مجـدداً، لكـن صوتـه تهـدج. سـحب شـفتيه علـى أسـنانه، ثـم أخـذ نفسـاً عميقـاً وقـال:

ـ كنـتُ أنصـت إلى الزمـن، أفكـر في كل الأوقـات، في كل الآجـال الـتي تمـر، وإذا مـا لاحـت لي صورهـم، أكاد لا أتنفس، كأن أحـداً مـا يـدوس جسـدي ويجوسـه بعنـف، أصـير هشـاً. أصـير هبابـاً. لا أرغـب إلا بالتلاشـي والامحـاء في أبعـد نقطـة بالوجـود. لكـني... لكـني سـعيد بـك يـا أماليـا... أشـكر السـماء علـى وجـودك كل ليلـة.

ضمهـا إلى صـدره كمـن يريـد دفـن شـيء ثمـين بـين ضلوعـه. بـدا مغتمـاً، كمـا لـو أن الكـوة الـتي اختفـت عبرهـا أسـرته، بقيـت منبثقـة. يدخـل منهـا كل مـا يجـرح ويقطـع ويُسـيل الدمـاء. كلاهمـا يعلـم أن في الحيـاة أمـوراً تنسـى وأخـرى لا يمكـن نسـيانها. أمـوراً تحتـل أكـبر مسـاحة في الـرأس، تتأرجـح علـى رفوفـه الغـبرة، وتسـتقر، تعشـش هنـاك، لتحيـا وهـي تحـدق فينـا مثـل خفافيـش الليـل المظلمـة. أرادت أن تطلـب مغـادرة المـكان، إلى أي مـكان بعيـد، لكـن الصمـت كان سـيد اللحظـات. كلاهمـا يعلـم أنـه لـن يرحـل إلى أي مـكان. فالتفكـير في مغـادرة أراضـي لاواديسـا سـيمنحها رداً أعنـف ممـا حـدث قبـل قليـل. بـل علـى العكـس، سـيبدو ذلـك بعـد اطلاعهـا علـى سـره، خيانـةً. جحـوداً للتضحيـة الـتي نذرهـا لعائلتـه. كانـت تعـرف أشـد المعرفـة، أنـه لـن يجـد العـزاء إلا حـين يمشـي بقدميـه علـى أرضٍ تخضبـت بدمـاء أسـرته وذويـه. آثـرت الصمـت. أغمضـت عينيهـا ومنحتهمـا للأفـق البعيـد.

همست بصوت خفيض: "لن تكون وحيداً يا جايون. أعدك بذلك".

في تلك الأثناء، عند رأس الفوهة التي دلف منها الشابان، وفي قلب الليل المتكاثف على الخرابة والحقول المنتشرة، كانت الظلمة ترمي رداءها على العالم، لكن بريقاً خاطفاً التمع خلف الأكمات المحيطة بفتحة الكهف...

كان هناك عينان رأتا كل شيء وسمعتا كل شيء.

❖❖❖

في تلك الأوقات وبين ربوع القصر اللاواديسيّ. كانت الكآبة تخيّم على وجه "ستراتونيكي"، لقد أضحت حُبلى الآن، فقد أرسل والدها غير راضٍ عن الأنباء التي وصلته حول ابتعاد الملك عن زوجته الجديدة، أرسل لندّه شاكياً غضبهُ. كان الملك يوقن بمجون ديميتريوس، لن يهدأ إلا بعد إخباره بحفيدٍ جديد، لذا تحامل على نفسه. اختلى في إحدى الليالي بالصبية الّتي قابلتهُ بمقتٍ شديد. كانت تعلم أنها مجردُ بضاعةٍ ورهن محجوز بين قصور لاواديسا، تلك المدينة التي حرّم دخولها أنطوخيوس، وأبى إلا الرحيل بعيداً عنها...

وها هي الأيام تمضي، من دون أن تطأ قدمه أرضها، أو تلمح وجهه عيناها.

أما في أنطاكية، بين أروقة القصر المشيد على كتف النهر، كان الخدم يرفلون بين الحدائق والفسحات. تنتشر النساء والعبيد والجواري، بعد أن استيقظن للعملِ بخفة نحلات رهيفات. ظهر الملك على الشرفة المطلة على السهول الشمالية، ومن خلال الزاوية التي يُرى عبرها البحر، أطلت آباما إلى جانبه بشكلٍ بدا وكأنهما

يتحادثـان في أمـرٍ جلـل. كانـت تحـاول اسـتمالته ودفعـهُ للتبسـم. خابـت في ليّـه عـن تجهمـه، فظـل غارقـاً في كمـدٍ أبـديّ، لا يعـرف مـدى كُربتـه إلاّه. عالمـهُ يعـج بالأفـكار والهمـوم، حيـثٌ يحتـدم كل شـيء: أحـوال مدنـه الداخليـة، صكـوك العملـة الموحـدة الجديـدة، حـرب مـع ديميتريـوس تـروم بـين أرض وأخـرى، مناوشـاتٌ ولـو تسـترت تحـت عبـاءة القرابـة والمصاهـرة، إلا أنهـا تبقـى مشـتعلة. فسـلوقس يبقـى مهمـا تقـرب منـه قاتـلَ أبيـه، ولـولا انهمـاك الخصـم شمـالاً في حـربٍ مـع ليسـماخوس، لنسـيَ مصاهـرتـه، وعـزم علـى التخلـص منـه والعـودة للمطالبـة بأحقيتـه بعـرش الإسـكندر.

إلا أن عقبـة أخـرى زادت همومـه وظللـت سمـاءه بالكـروب. فخصمـه الآخـر بطليمـوس في مصـر، لجـأ لحيلتـه ذاتهـا؛ لقـد أرسـل ابنتـه "أرسـينوي" زوجـة أخـرى لحليفـه "ليسـماخوس"[23]، فكسـبه بذلـك نـدّاً صلـداً لسـلوقس. لم يكتـف العجـوز بذلـك، بـل راح ينـادي بفرعونيتـه. أرسـل ابنتـه الأخـرى "ليسـاندرا" لتصـير زوجـة للشـاب "آجاثوكليـس" ابـن ليسـماخوس، فكسـب بذلـك عـرش تراقيـا[24] مـن جهـة الزوجـة والابنـة. هكـذا خطـا بقيـة ورثـة الإسـكندر خطواتـه ذاتهـا، اعـترت الجميـع حمـى إرسـال الزوجـات والبنـات لكسـب النفـوذ والسـيطرة. سـباق محمـوم طـاف وحلـق للسـيطرة علـى الأراضـي السـورية.

كانـت تلـك الحـوادث تحتـدم في رأسـه فتصرعـه وتسـلبه الرقـاد. لم تنتـه الهمـوم، ولم تنفـد المحـن، بـل إن أَمـراً آخـر كاد ينغـص عليـه هنـاءَهُ، ويسـرق سـلامهُ. كان يرجـو السـماء أن تكشـف علـل ابنـه أنطوخيـوس: الطفـل الـذي لفّـه الإسـكندر بـين ذراعيـه رافعـاً إيـاه نحـو

---

23 ليسماخوس: أحد قادة الإسكندر المقدوني وورثته.

24 تراقيا: منطقة سيطرة ليسماخوس الممتدة من غرب البحر الأسود وبحر مرمرة حالياً حتى تشرف على بحر إيجه وتشكل حدودها مع مقدونيا واليونان.

أعالي السماء، مكلفاً أمر حمايته للإله أبولو، نحلَ وكساه الحزن. بدأ الكمد يقرض شبابه وقوته، واَختفت ملامح الحياة فيه. يتضح للعيان حزنه وغمّهُ، لم يعد كما كان في السابق، فارساً مقداماً يثير الهلع في نفوس ورثة الإسكندر جميعهم.

ماذا جرى له؟ كيف صار بليداً خمولاً يمتطي ظهر حصانه. يتجول شارداً بين الأسواق بائتاً بين المعسكرات وفلول الجند عند التخوم. كم من مرةٍ غاب أثره؟ وكم من مرةٍ ضاع ولم يُرَ إلا بعد أيام؛ سارحاً بين الغابات وخارج الأسوار. كم من مرة حاولت أمه تزويجه؟ لكن عبثاً، فقد بدا أمر النساء بعيداً عن باله ولم تعنه الرقاب المشوقة ولا الخصور المائلة أو النهود العامرة.

يغرق الملك في همه، بينما تغيب الملكة مكلومة بسقم ابنها. يفكر باستدعاء الحكماء من كل الأصقاع، من اليونان ومصر، سيستعين بكل العطارين وجامعي الأعشاب من سكان قرى أنطاكية ولاواديسا وحتى تخوم سلوقية عند النهر، ولو اضطره الأمر، سيرسل حامية إلى الهند، ويحضر أمهر مشعوذيها حتى يبرأ من حاله.

تنفس الصعداء، فللمُلْك شؤونٌ لا تحتمل شرودَ الأذهان أو فتورَ الهمم. عليه أن يتجه جنوباً إلى لاواديسا، فأمر العملة الموحدة قيد الصدور، كما عليه المثول لولادة ابنه القادم من زوجته المحجوزة هناك، نعم هناك في لاواديسا؛ المدينة التي لازال أمر رحيل ابنه عنها يحيره ويؤرق فكره...

لمَ يا ترى يرفض أنطوخيوس دخول المدينة الجديدة؟

فرصةٌ لتقليب البصر والبصيرة

حدّثنا جدي يوم تفرّق صبيان القبيلة لاختيار عملٍ يمنح الرجولة ويكسب شرف العيش. كان لابدّ للصبي بعد اشتداد عوده وانتصاب قامته ونمو لحيته، أن يبرز خياراً رزيناً وقدرةً شبه متوحّشة على احتراف ما يمنحه البسالة ويبعدهُ عن مهاترات الطفولة وزعبرات المراهقين: من رفع الصخور لأعلى نقطة في السماء إلى رميها بالمقاليع الجلدية. تأنى في سماع الصبية من حوله. أحدهم اختار صيد الطيور النادرة، وآخرٌ حلم بترك البداوة والانتقال لترف العيش في المدينة وبهرجتها الباذخة. آخرون انتسبوا للدراسة في الجامعات، وفي الوقت الذي أصغى فيه الجميع لرغبتي بأن أكون راعياً، كنتُ قد صرتُ "خبراً" تلوكه الألسن الهازئة، وهزلاً يجري على الأفواه والألسن، تخللتهُ الضحكات والوشوشات الشامتة. كان من الشائع أن يرعى بعضٌ من الصبية القطعان، لكني بقامتي النحيلة الصغيرة، وقدّي الممسوخ صرت مهزلة!

كان جدي، يتابع صامتاً ما يجرى. شعر آنذاك بحزني ووحدتي. أجلسني بجانبه عند المساء، جمع صبية القبيلة، وقال مثلما يخرج عن لسانه دائماً، الكثير من العجائب:

"يطوف طائر الرصيّص في السماء محلقاً عالياً فوق كل النسور والبواشق، يحدث نفسه عند الصباح، أنه لن يقبل فطوراً بأقلّ من أرنبٍ سمينٍ بلحمٍ عظيم، فيظل يطوف ويطوف باحثاً

عن ضالته، يرى سنجاباً في مرمى نظره، لكنه يتعفف عنه، لا يرتضي لنفسه إلا أرنبه الموعود. تطلع الشمس في السماء، ويظل الطائر المأنّف تائهاً بين السهوب والغابات، ثابتاً على غروره مترفعاً عمّا تجود به البراري والمرامي الشاسعة، وحين يحلّ المساء، ويقرص الجوع أحشاءه، يرى قبل أن يغيب الضوء فأراً، حيواناً صغيراً لا حيلة له في كتم أبواق جوعه، لكنه ينقضّ عليه راضياً، ويعود لمسكنه بعد أن يتناوله بنهمٍ"

وضع جدي يده على كتفيّ وقال موجهاً حديثه للجميع:

احتكموا يا أبنائي، فبعد أن اخترتم أعمالكم، عليكم أن تحرصوا ألا تفضي مصائركم لفأرٍ ضئيلٍ...

وهكذا... صرتُ أخدم كائناتي بسعادة غامرة، من لحظة الولادة وحتى يقسم القدر نهايتها. أراقبها بعيني. أنام بجوارها، وإذا ما أصابني شيء من روثها أو بولها لا أضجر، فبحكم المداومة على مزاولة الرعي، صارت تفاصيل بسيطة، تثير فيّ الضحك والهزل. كانت نفسي التي شبت بين السهوب والبوادي، قد تمرّست على السكينة والوقار، بعيداً عن أسباب الراحة ومظاهر الترف، أمضي جائلاً بين الصحاري متحملاً شظف الحياة وخشونة المأكل، معتاداً على مؤالفة الظروف القاسية. كلّ ذلك صار خليقاً بطرد الكِبر عن نفسي، ومنحي السعادة والسكينة في سبيل خدمتها.

ثمة هدوء معلن يحتلّ نفسَ الرعاة. سكينةٌ أزلية. تمنحني النهارات القائظة همة محبطة ونوايا كسولة وأحلاماً مشوّهة، إلا أنني وبعد أن تهرب شموس الصحاري وتلملم فلولها، تدهم البرودة الليلية ويعم السكونُ العالمَ، تبدأ الحياة عندي. يبدأ عملي بمنحي سلاماً داخلياً، ورضا محبوراً بالبهجة وسرائرَ طافحة بالفرح.

ففي الليل تهمد الأغنام، تنهك جراء التنقل والبحث عن الكلأ، إلا أنني أجد فرصتي لتأمل الكون. أتقنتُ عبر تعاقب المساءات مراقبةَ الأبعاد، مهرتُ في ممارسة الصمت الذي يحتكم لتقليب البصَر والبصيرة، وبعد نوم الخراف، وإطعام كلب الحراسة، أدفع عني همهمته وتضجراته، أهيم في مناجاة الوجود تحت ظلال الأقمار وعبر هدآت الليل وقسمات الأسحار المضيئة.

كانت فترة الانتجاع الموسمي: تقطع الماشية مسافات طويلة باحثة عن الماء والكلأ. فالماء هنا أساس كل شيء. كان العالم على حاله؛ النهارات قائظةٌ، الليالي باردة، والتأملات غارقة متناسلة ما بين العالم والمستقبل والحبيبة. كل شيء يمشي من دون توقف، على الرغم من تعطل كثيرٍ من مفاصل الحياة في البلاد جرّاء الحرب الطويلة، إلا أن رعي القطعان منحني البعدَ، بعيداً عمّا يريده الآخرون، عن عالمهم وخصوماتهم ومطالبهم، هارباً من الجميع. أجوب السهوب والوديان مع أغنامي، أحشرها في الشتاء بين الزكائب والزرائب، أتلهى بجزّ صوفها وبيع ألبانها بمساعدة أفراد العائلة. أبحث في أوقات الحر عن بقاع خضرة، قد يحتاج الأمر مبيتاً في العراء أياماً قبل العودة لمضارب العائلة. لتسمح تلك النزهات القصيرة بالتأمل وتمنحني فسحاً أكبر لتقليب لساني بشتى أنواع الأشعار والأغاني ومناجاة عظمة الخلق الأزلية.

كان كلّ شيء على حاله حتى البارحة!

كنت قد قطعت مسافة لا بأس بها. تهتُ في التوغل عميقاً بين جنبات البوادي. جُلتُ مع القطيع شساعتها باحثاً عن بقعة خضيرة، ولأن الأغنام ضجرت وجاعت وظمئت، رحتُ أتوغل أكثر فأكثر حتى ظفرتُ بمأربي. تسكعتُ حول الخراف لتتجمع حول

الكلأ الرطيب. ركنتُ إلى بقعةٍ تعلوها أعمدة متهالكة، تفتحت بين جنباتها بقع من ظلالٍ، احتميتُ بها من لسع الشمس اللاذعة.

كان التعب آخذاً مني كلّ مأخذ، والإنهاك المضني جرّاء تقليب قدمي فوق الصخور وعلى الرمال الفاترة، قد حولهما لقطعتي خشب يابستين، لذا خلعتُ نعليّ... وشماخي... أمّنتُ على أغنامي التي حامت حول بقعة ماء شحيحة. وضعتُ أشيائي إلى جانبي؛ مزوداً أخرجت منه قطعتي جبنٍ وخبز وبعضاً من فاكهة مجففة، ثم أسندتُ عصاي إلى جدار متهالك، تناولتُ طعامي بنهم، وأنا أعدّ مقلاعاً أصد به ما قد يهاجم القطيع من حيوانات. أشعلتُ ناراً، عددتُ الأغنام مجدداً، وبدأ الوسن ينسلّ إلى بدني رويداً رويداً...

سيقول قائلٌ: إن الرعاة في مثل هذا العالم اللاهث بجنون نحو وجهته لم يعودوا يرعونَ البوادي مع قطعانهم مشياً على الأقدام. صار الراعي يقودها بشاحنته جائباً لائباً، فرسخاً إثر آخر، خلف الغدران والبقع الرطبة معتدّاً بنفسه، مريحاً باله وقدميه خلف مقوده، وكلبه واقفٌ خلفه ينبح على الغنمات الهائجات. نعم... هذا ما كان عليه الأمر حتى البارحة. كان العالم هانئاً وادعاً. أدير ظهري لأصداء الحرب المترامية عبر البعيد. الشمس تهبط برخاء، واللون الأرجواني المحمّر يضمخ السماء بغروبٍ خافت، انعكس المشهد على الرمل الذهبي، وعلى أجساد الأغنام، فبدا العالم جمرةً ملتهبة. كنتُ على وشك الإسراع إلى أكمة قريبة بعد ركن الشاحنة، أهيئ النفس للسكون، وأعدّ القطيع للتجمع والمبيت، تعلوها أشواك الصبار وعشبات الشوح والحنظل. جلستُ القرفصاء ألتقط أنفاسي، وإذ بشيء معدني بارد، قطعة صلبة يعرفها المرء دون أن يدير لها وجهه. كانت فوهة سلاح ما... بندقية ربما... رفيعة

تلتصق بصدغي الأيمن وتشدّ عليه. شعرتُ بأن الحرب وصلت إليّ.

ثمة حروبٌ تفسح بعضاً من نجاة، تمنح المرء فرصاً للهرب من براثن فخاخها، إلا أن حربنا، كانت من النوع الفتاك. مقتلةٌ لم توفّر نفسَاً ضاحكاً، أحكمت وثاقها على حناجر ضحاياها وماجت تخنق كل من يقع تحت رحمتها. لقد عرفتُ في تلك اللحظات أن الحرب التي هربتُ من حبائلها أميالاً، سبقتني إلى قدري.

- وكّف على رجليك... وإلا أطخّك... حركة وحدة تلاكي روحك طلعت ويّا السما...

عندما امتثلتُ لأمر المنادي القادم من الخلف، استدرتُ. وعيتُ فداحة الفخ. وقعتُ أسير مجموعة ملثمين مسلحين غير معروفي الانتماء. كانت تلك واحدةٌ من صور حربنا الفارقة، حيث يُخطف المرء، يهان ويُقتل، ولربما يُعاد إلى ذويه من دون أن يصل لمعرفة غاية أو هوية خاطفيه، بلا أدنى طريق لمطالبهم أو انتمائهم... هل هم من الصالحين أم الطالحين؟ ومن الصالحون ومن الطالحون؟ في الحقيقة لم يعلم أحد. اختلط الحابل بالنابل. لا قدرة لأكثر الحكماء معرفة على تحديد الخيّر من الشرير، لذا، ولحلاوة الروح... امتثلتُ لأوامر قاطعي الطريق أولئك. تقدم أحدهم وربط عصابة على عيني. أظلمت الدنيا فوق ظلمتها، لكز ظهري وأمرني أن أتقدم بضع خطوات للأمام.

"... في تلك اللحظات السريعة تذكرْتَ كل شيء. رحتَ تسترجعُ كل ما خزنْتَه في الذاكرة: صور الغدران الطافحة بالحياة، المراعي الخضراء المترامية، والقرى الهانئة المنتهية بمداخن متطاولة. تذكرتَ بدائع الحسان المائلات بين مضارب القبيلة، رحتَ تتلهفُ لاستعادة الصور الجميلة العابقة فيك. ما شكّلَتْ صورة الحياة

فيك. للمتَ أطرافها. جمعْتها وكثّفتَها ثانية تحت العصابة السوداء خوفاً من الظلمة التي شعرت بملامسة أطرافها القذرة لأصابع قدمك...".

- اركع على ركبتيك! صاح صوت عميق قريب.

- أمرك.

- هيّا وحدة مابو غيرها... نكلة بشاحنتك بين الغنمات ونفكك... من البادية لحد الديرة الي ندلك عليها...

- شنو نوع البضاعة؟

- ما خصك... إنت تقود وبس... صرخ أحدهم بعد أن لكزني بسبطانة بندقيته.

- حاضر... حاضر

- تحمّل الحلال... يركب وياك واحد من الشباب... شنو يطلع بالشاحنة ما يخصك... إنت تسوق لحد ما يكلك وكّف... تنزل الشباب والحِمل والله معاك...!

- أمرك يا شيخ... أجبته هلعاً فيما صور شتى تداعب خيالي بسوء القادم التالي..

كان الليل قد بدأ يرخي بظلاله على الرمال. انتظرتُ خلف المقود، تحت قمر سطع فوقنا مثل جارةٍ نمامة. دهمت برودة الصحراء أرجاءَ المكان. هششتُ أغنامي وجمعتها لتصعد إلى عمق الشاحنة. صعدتُ مجدداً خلف المقود. كنتُ أعلم أن شيئاً ما غير شرعيّ سيمرّ عبري. أدركتُ مقدار القذارة التي طمت قدميّ، وراحت ترتفع حتى ركبتي. سأصير بعد ساعات شريكاً في طميها ووحولها، سأزيد عمق مستنقعاتها الآسنة. سأصير طرفاً

في حربنا الملعونة ولم يعد لي منفذ للتنصّل أو النجاة. ولم العجب؟ وفيمَ التساؤل؟ ستكون البضاعة إما ممنوعاتٍ كحشائش مخدرة أو مساحيق منومة مطحونة، ولربما كانت أسلحة، وإذا ما زادت خطورتها، فستكون بشراً... رجالاً أو نساءً أغلى ثمناً مرفقاتٍ بفتيات صغيراتٍ يافعات.

تعوّذتُ وبسملتُ. انطلقتُ بعد أن خبط أحدهم على ظهر الشاحنة...

كانت المركبةُ تشقّ عتمة الليل تاركةً آثارها على الرمال في قلب الهدوء الكامن خلف الأشياء، خلف التلال والوهاد. كثيراً ما حاولت استراق النظر إلى مرافقي، لكنه بدا مثل غرابٍ قاتم، ملثّماً من أعلاه لأدناه، ظهرت منه عينان براقتان مفزعتان؛ ذئبتان قفّازتان لاهبتان، وفمٌ مدججٌ بلحيةٍ متوسطة الطول، يشتعل بين جنباتها شيبٌ دلّ على عُمرٍ ليس بقصير. مرت ساعة، والصمتُ يلفّ العالم. لا صوتَ يعلو على نشيج أنفاسي سوى عويل المركبة فوق الرمال الهشة. نفسي تتوق للتدخين، لإشعال ما يفتح نافذة لخروج ما فيّ من توتر وضيق. مددتُ يدي إلى لفافة أشعلها، فما كان من الرجل المحاذي إلا أن جذبها من فمي مثل ابنِ عرسٍ متأهبٍ وصرخ كوحشٍ أرعن:

- لولا النكلة لكنت طخّيتك... ما تعرف إن الدخان محرم يا ابن الملعونة؟

(يزجرني عن التدخين ويحرمه، فيما يفعل ما دون ذلك من محرمات...!)

هلعتُ. صعد الدم إلى رأسي. سألتُ الله العون، ولما بادرتُ

بطلب السماح، خرجَت اللهفةُ على لساني مثل هرة محبوسة:

ـ بجيرتك يا طويل العمر... سهوة الشباب وطيشه...

ـ إيش اسمك يا وال؟

ـ هزاع يا شيخي... اسمي هزاع

ـ لا تعيدها يا هزاع... هالسهوة تخفف عكلك وهيبتك كدام ربعك وريك...

ـ حاضر... حاضر يا عم...

كنتُ أسايره، أعدّ دقائق مرت مثل صخراتٍ جِسام، أطبقت على كل نفَسٍ في رئتي، لو علمت أمي بمآلي في تلك اللحظات، لكانت في عداد الموتى أو المشلولين. لا وجهة ولا معلم سوى خراب وخوف من مجهول يتربّص مثل ظلالٍ قاتمة. كلّ الاحتمالات ممكنة للموت، ولا آخر يلوح للنجاة. وفي الوقت الذي انحلت به أعصاب قدمي لشدة التوتر والتعب، جاء الفرج!

ـ عندك...

توقفتُ أخيراً في بقعة مظلمة. مبنى عاتم. طابق واحد ليس أكثر. كيف وجد هنا في قلب الخواء الأصفر؟ ما عليّ... أريد فقط أن أنفد بريشي وأطلق العنان لساقَي...

ـ انزل افتح أقفال الغلق الوراني ونزل الحلال...

هبطتُ من مكاني بعد أن تيبّست أطرافي. أدرتُ الأقفال، وبدأت الغنمات بالنزول مع باقي الملثمين. أنفاسٌ ليست كأنفاس غنمة أو خروف. أنفاسٌ آدمية موشاة بكيسٍ من الخيش. بقع مشكولة على ظهور الرجال. أنفاس حية حارقةً، ورائحة دم بشريّ تفوح... وفي

غمرة ذهولي وصدمتي، صرخ أحد الواقفين الذي بدا رئيس الجماعة:

- مالك انصرعت؟ احمل حلالك... دكيكة وما أريد أشوف وجهك... وإلا ما تعود تشوف وجه أمك...؟

كيف أعدتُ القطعان وأقفلت أغلاق الشاحنة، لا يعلم إلا الله. خطف أحدهم خروفاً ووضعه بين فخذيه. فيما ضحك باقي الرجال الذين تهامسوا وتهيؤوا للمبيت في ذلك المبنى... قال:

- هاي ديتك... فدوتك... حتى ما نذبحك على فعلتك السودا جوا الشاحنة يا ملعون...

ركلني بقدمه على قفاي، فما كان مني إلا أن أقفلتُ مركبتي صاعداً مثل أرنبٍ مسعورٍ، أحكمتُ الوثاق على ما تبقى من حياتي، وانطلقت مرتعشاً وسط ضحكات المهربين وتهريجاتهم.

رافقتُ الغنم والمضارب والسهوب، فلحقَتْ بي الحرب مثل عنزةٍ جرباء، بثّتْ سُمّها وانسلت بخسة امرأة لعوب، وها هي تتركني ملتاعاً... حائراً، أتخبط في حمى افتراضاتي وتأكلني التساؤلات.

ترى ماذا نقل الملثمون عبر شاحنتي؟ كم من روحٍ بريئة ساهمتُ اليوم في إزهاقها وسحلها وذبحها؟ لكني بلا حولٍ ولا قوة. كيف للمروءة أن تنهض مقابل سطوة الجبروت وظلمه؟ كيف لجبانٍ مثلي، لرصيّصٍ مأفون لجأ للصحاري والبوادي قارضاً الشعر، يحمّص البنّ ويلاعب القطعان. كيف لي أن أواجه وأنجو من إثم المقتلة لفضيلة الرحمة؟

شعرتُ بها كأنفاسي. كانت أنفاساً حارةً. أناتٍ معذبة وهواءً مشبعاً برائحة الدم والعفونة البشرية. قدتُ دون وجهة تذكر. كنتُ أقود فقط، وكانت المرة الأولى التي تمسني بها الحرب. لسنوات

أسمع عنها من الآخرين، وألمس آثارها في المبيع والشراء والحذر في التنقل من المناطق الآمنة للخطرة. لكني رأيتها اليوم. ذلك الرعب المخاتل، تلك الرجفة التي تسكن الجسد حتى القدمين، المصير الذي يتحوّل بلحظةٍ إلى مجهول يجلّله الضباب بأظلافٍ موحشة.

كان الليل يوشك أن ينجلي، والفجر على أعتاب الوجود. عيناي غائرتان، وجسدي منهكٌ مهدود. يجب أن أجد بقعة أرتاح على أديمها. أي بقعة آمنة أسترجع فيها سكينتي وأرمم ما ذهب مني. سأعود لمضارب القبيلة، لن أرعى قطعاناً بعد اليوم. سأفعل كما الرعاة الكسالى، أجلب الكلأ إليها، وأنزوي في خيمتي، سأغيب في صومعتي، وأبيع الأسفار والأسحار وأظلة الأقمار ووداعة الوجود بقشرة بصل!

يا إلهي كم أود لو أختفي الآن...

ركنتُ مركبتي في لحظةٍ بدت فيها الشمس توشك أن ترسل أولى حبائل الفجر القادم. أنزلتُ القطيع، وحيث أرسل الضوء أطرافه، لمحتُ في قعر الشاحنة شيئاً غريباً. شيئاً مختلفاً عن مزودي ومقلاعي وسائر أشيائي. صعدتُ إليه مستنفذاً آخر أنفاس متبقية لي. كان سروال رجل ما؛ مدمّى وملطخ بالأتربة والأوحال. أحدهم عرّاه، ورمى بشرّه عليه. عاينتُ القميص. فاح عطناً برائحة الدم المضمّخ بالعذاب، يكاد الأنين يخرج من أزراره وخيوطه ناطقاً... إلى جانب القميص... ورقة... واحدة... اثنتان!

إحداهما متسخة مغبرّة وغير مفهومة. تحوي صورة أترية، أوانٍ شبيهةً بتلك الأشياء التي يبحث عنها المهربون بغزارة في منطقتنا. شيء من الأوابد والآثار الزائلة فيها، لكن الكتابة المخطوطة بالأسود والأبيض لم تكن بأحرف عربية. لم أستطع قراءتها. على

ظهـر الورقـة الثانيـة خطـوط بالحـبر الأزرق. كلمـات بهـا قليـل مـن الشـعر. عـبر الكلمـات الملطخـة ظهـرت كلمـات كثـيرة: أرض. سمـاء. آلهـة ظلـم. خديعـة... لم أعـد قـادراً علـى الاسـتمرار. كان الإنهـاك قـد أخـذ قوتـي، وعينـاي غبشـتان. لا قـدرة لي علـى التدقيـق والتفصيـل. جمعـتُ الورقتـين. دعكتهمـا ولففتهمـا مثـل كـرة ورقيـة، ورميتهمـا عاليـاً في الهـواء.

الرحلـة الآثمـة. الأرواح المزهقـة والأسـرار المكتوبـة الـتي تحتـاج مـن يفكهـا... مـالي بـكل ذلـك؟ فضيلـةٌ واحـدة ليـس إلا. أريـد مـن هـذا العـالم أن أضـع رأسـي علـى الوسـادة وأنـام...

في الصبـاح كانـت السـماء تـذرّ بريقـاً رماديـاً، والسـهوب تعـبر ناظـري. الشـمس تسـطع علـى أشـدها، علمـتُ آنـذاك أنـي غفـوتُ سـاعاتٍ حتـى منتصـف النهـار. وبعدمـا فركـتُ عيـني متفحصـاً العـالم مـن حـولي، هلعـت. أصابتـني رعشـة. لا شـيء حـولي. لا مركبـة ولا مـزود ولا مقـلاع... أيـن كلـبي؟ لا شـيء سـوى رمـال حارقـة. وجـدتُ نفسـي هائمـاً مـع عشـر غنمـات، تذهـبن وتأتـين مثـل كائنـات ممسوسـة. وحتـى الورقتـان اللتـان رميتهمـا، لا أثـر يذكـر لهمـا. لقـد نهبـتُ. وسُـرقت.

ها قد تشردتُ بعد أن زارتني الحرب ليلة البارحة رغماً عني.

ها هي آثار ليلتي الأولى وإياها.

هـا هـي تنظـر إليّ بعـين ماكـرة، تقـدم صفعتهـا الثانيـة وتسـألني بخبـث:

"ها... أتريد أن تنازلني بعد...؟".

أرضُ الأُرجوان

-4-

يحتارُ الموج المتلاطمُ على أيِّ الشواطئ يُلقي رحالَه. مسافرٌ منهَكٌ قدِم من أقاصي العالم محمّلاً بالزبد والتعب، ليرتمي على جروف لاواديسا الغربيّة. تذهب المراكب محمّلة ببضاعة اللاواديسيين إلى وجهاتٍ يُتفَق عليها مع القباطين والبحارة. فيما سماسرة لا يهدؤون بين التجار والبحّارة والبازاراتُ تُعقَد على رصيف الميناء المحاذي لأسوار المدينة.

عبر تلك الأوقات الغارقة بالرخاء، جلس جايون على بلاط الميناء يتنعّم بدفء الشمس، تسري في جسده رعشة البهجة الغامرة. أحسَّ بشعاعها يحمله بعيداً، إذ ملأتهُ سكينةُ الحياة بهناء مسكرٍ. كان رأسه خالياً من الكدر يراقب المشهد راضياً؛ خلف الأسوار، أثناء سيره، أولادٌ يعبثون تاركين آثارَ أقدامهم في الطين. أمهاتٌ يغسلن الملابس في القدور، وبشرٌ يستحمون. على الشاطئ موجٌ يترك خطوطاً متماوجة بيضاء: باعةُ سمكٍ يدلّلون على صيدهم، وصائدو قنافذ بحريّة وأخطبوطات وسراطين يدفعون الذباب عن بضاعتهم. يرفعون أصواتهم بطريقة تجذب الزبائن والمسافرين. مفكرون يونان وقبارصة. نساءٌ حملنَ رُضّعاً على سواعدهنّ، يرتدينَ الملابس المزركشة بالتخاريم، بأعناقٍ زينت بالحليّ والأحجار الثمينة، بينما تبرجت القادمات من طبقاتٍ أقلّ

غنى بحلي البرونز وتلك المصاغة من الزجاج الخفيف. ملاحون وأدلاّء، قرويون جلبوا منتجات كرومهم وزكائبهم، إلى جانب الزرقة الطافحة بسفنٍ نقلت أخشاب الأرز المنتشر على السفوح الغربية للجبال. وأما المدينة، فقد لاحت كجسدٍ يتمطى برداء أخضر زاهٍ، وقدمين مغروزتين بزرقة البحر.

في قلب ذلك المشهد الغارق برائحة الملح ورطوبة الطحالب، اتكأ إلى الصخور متنعّماً بشيء من السلام الداخلي، ابتسامة الرضا على وجهه. ها هو العالم من حوله يشبّ وادعاً، وها هي المدينة، كما تراها أماليا، آمنة هانئة. تسيرُ الحياة على أطرافها بوجهٍ بشوش وقامةٍ قوية. سيكون العالم مكاناً أفضل؛ هذا ما حدس به في لحظات انتظارها. كانت مذ رحل والدها، تعاني حزناً وضياعاً. حاول أخوالها إعادتها إلى موطنهم في كريت، لكنها تمنّعت؛ قرأت في عيونهم نهماً، وعلى شفاههم سالت الرغبة لحيازة ثروات أبيها.

كان يرى أماليا ملاك نبلٍ ورهافة، أفانينٌ من الرقة والكياسة المغلفة بالأنفة. كثيراً ما قدرت بتحنانها وصرامتها على انتزاعه من التردي في حمأة الميول المضطربة. كان قبلها حزين النفس، وصار حساس الوجد، رغم قليلٍ من غضب محتدم بين ضلوعه. سرح بنظراته في عمق المدينة المطلة على الميناء، الشوارع، الساحات، الأعمدة، الباعة وأصواتهم، اللغات واللهجات الغريبة. أشعره المشهد بإعصارٍ قادم، عمّق إحساسه بأنّه منزوع الجذور. ما زالت المدينة تشعره بالغربة، كما لو أنّه يحيا حياة شخص آخر.

"**إنّه عصرٌ عجيبٌ...**" أسرّ لنفسه. إنّ شيئاً جديداً يهمّ أن يولد، شيء بين الحياة القديمة والأخرى القادمة بعجل. أمرٌ شديد الغرابة. كان جايون يطمر شعوره باقتراب شيء ما ينهش كلّ جزء

مـن جسـد الأرض حولـه. لكنـه كان يخمـد، يشـعر بغضبـه وحمـأة تخيلاتـه تطـير كنسـيم رقيـقٍ كلمـا تذكـر أماليـا.

كان يومـاً كئيبـاً ومظلمـاً عندمـا نقـل موكـبٌ مـن السـادة والعبيـد جسـدَ الراحـل بارسـينو إلى مدافـن جابـالا. خـرج منهـا صغـيراً وعـاد إليهـا ميتـاً. كانـت أماليـا في أضعـف حالاتهـا وأكثرهـا تمزقـاً وحزنـاً. كـم تمنـى لـو يعيشـان معـاً، كـم تمنـى لـو يأتـي يـومٌ يرمـي عـن كاهلـه أثقـالَ وعـده وحزنـه ويحملهـا بعيـداً إلى نهايـة العـالم.

أخبرتـه روبـين قبـل هنيهـات بإصابتهـا بالتوعّـك مجـدداً، لكنـه حـين هـمّ يلملـم رحالـه عائـداً، لفتتـهُ جلبـةُ سـفينة قادمـة. ففضّـل الجلـوس، حيـث كان متثاقـلاً في ذلـك النهـار المشـمس. صـرخ حمالـو المينـاء، ثـم قفـزوا لمسـاعدة القادمـين علـى الرسـو. بعـد مضـي بعـض مـن الوقـت: بـدأ المسـافرون مـن نسـاء ورجـال يهبطـون تباعـاً، ولفـت انتباهـه جمهـرةُ شـبان يلاحقـون رجـلاً، بـدت عليـه أمـارات الشـيوخ المعلمـين. كان الصبيـة يلحقـون بـه كظلّـه، تكسـوهم علامـات التلمـذة وتعلـو وجوههـم إشـارات الحـذر مـن أرض مجهولـة. بـدوا حديثـي العهـد بالمدينـة، وكأنهـم مواطنـون أثينيـون، ذلـك مـا نطقـت بـه ضخامـة أجسـادهم وصفـرة شـعورهم.

أحاطـت عصبـةٌ مـن الحمالـين بالشـيخ وشـبانه، عرضـوا خدماتهـم، بينمـا ظهـر المعلـم الهـرم غـير آبـه سـوى بتفحّـص المـكان، والتنقـل بعينيـه بـين البحـر والوجـوه والجبـال البعيـدة، موسـوماً بطيـفٍ مـن الحكمـة علـى وجهـه. بـدا كمـن يفتّـش عـن كلّ شـيء بعينـين جائعتـين، ملابسـه تختلـف عمّـا يرتديـه تلامذتـه. قـرأ جايـون في عينيـه ألفـةَ المـكان ولهفـة العائديـن لمنازلهـم بعـد غيـاب طويـل؛ كان يقـف والغبطـة تسـيل مـن عينيـه، رأسـهُ الضخمـةُ ذات الشـعر المشـعث واللحيـة المملـوءة

بالتجاعيد تحكي آثار البحار التي جاس خلالها، والموانئ التي رسا فيها، والأجناس التي تردد عليها. ناداه بعضهم "المعلم". لكنه بقي صامتاً، يتنسم الهواء ورائحة الملح والبحر. عيناه مغمضتان كمن يتأمل داخل نفسه أجمل بقاع العالم.

في قلب ذلك السلام المنسوج بالنعيم، تبعثر النهار عن هدوئه السابح بين الصباح وبدايات الظهيرة. فقد وقع اصطدام عنيف: تعثّر أحد حمّالي الميناء بقدم آخر تلميذ من وافدي السفينة الجديدة. دوى ارتطامه بالأرض عالياً، فملأت صرخته جنبات المكان. راح ينشج على بلاط الرصيف. هرع الجميع إليه، ونهض جايون مع من أسرع لمكان الحادثة، تجمع حشد من المارة، فمنعوا المصابَ من رؤية السماء وتنسُم ما يسكّن آلامه، صعب عليه الوصول عند احتشاد جمهرة أخرى، لذا استعان بعزيمة ساعدَيِ الصياد المنتفخَين بين مرفقيه وحتى أعلى كتفيه. أزاح أكوام الفضوليين الواقفين للفرجة والتحسّر، حين علا صوت الشيخ راجياً، بنغمةٍ خفيضةٍ، للتراجع وترك فسحة تمنح الشاب بعضاً من الهواء النقي.

انحنى جايون أمام قدم الشاب، علا صوته آمراً الناس بالابتعاد والانصراف، وحين هموا بالرحيل، أسند قدمهُ إلى ركبتيه، وراحَ يضغط ويتلمّس موضع الألم. ران صمتٌ تخلله صوت تنفس الشيخ وباقي التلاميذ الهلعين على حال رفيقهم. كان صوتاً أجفله من رقاده، ليس بقدر ما كان عميقاً وهادئاً وطافحاً بالرزانة، بل لأجل تلك اللكنة العتيقة، بسبب لغة أبيه وجدّه الغائبة. لم يسمعها خارج حدود قريته، ربما منذ أن ذُبحت عائلته وهاجر العديد من سكانها. لم تخلُ من تلك التغييرات الطفيفة التي وسمها بها اقتران جليّ بلغة أحفاد هيلين، لكنها لغةٌ

لم يعد يتحدث بها سوى قلة من سكان القرى الجبلية البعيدة.

ـ هل تراها مكسورة؟ سأل الشيخ بصوت هادئ.

حدق جايون بالشيخ. تفرس فيه بشكّ. أومأ بإمكانية إصابة الشاب بكسرٍ بسيط في كاحله الأيمن. خرج عن صمته مجيباً :

ـ أظنّ بحاجة خبرة أحد الكهنة أو عرضه على واحد من عطاري المدينة. قدمه مكسورة ولا بد من جبرها بأسرع حال.

أشار بيده نحو مرتفع الأكروبول حيث تتجمع المعابد المشيدة إلى جانب القلعة الملكية.

لم ينتظر، رفع الشاب وأسنده إلى كتفيه. مشى وإياه نحو المعبد الكبير. لحق به المعلم وتلامذته، فيما نقل حمالان الرحال والمصابَ على ظهر بغلةٍ فتية.

ـ في المعبد سيهتم به الكهنة ريثما يحضر العطار. سيلقى عنايتهم وبركاتهم لا بد من ذلك؟ سأل الشيخ بتفرس وريبة...

أومأ له جايون موافقاً.

راقب الشيخَ صامتاً، خيل إليه وهو يشخص لنظراته أنّها نظرات عجوز ثاقب البصر، نظراته تنفذ عبر الجلد، وعبر العظام، وحتى ما وراءه حيث ارتفعت أبنية الأكروبول والقلعة، وإلى ما وراء القلعة، حيث الشاطئ والبحر والقرى والحقول. تأمل الشيخُ الشاب، فوجده مختلفاً، ليس به من رعونة الشباب شيء، كيف تمتد نظراته لأعمق ممّا يظهر عليه ويظهر، لأعمق من البحر. بعيداً حيث كمَن فيه شيء لا نهائيّ راكدٌ ومعتم، شيء يثير الحزن والجزع ليستقر نهاية في عينيه.

ـ هل أنت صياد أسماك؟ سأل الشيخ

ـ صياد كل شيء.

ـ من السكان الأصليين إذن؟

ـ يلاحظ الشيخ الغريب بدقة لافتة.

هـز الشـيخ برأسـه باسمـاً، فيمـا عينـاهُ تتجـولان عـبر الأمكنـة مـن حولـه.

ـ أحيانـاً... غالبـاً مـا تكون الأعـين خداعـة، والبصـر مكاراً، بينمـا تمنحنـا العـين حقيقـةً أشـبه بضبـابٍ أغـبر وسـط غابـةٍ كثيفـة. أجابه جايـون.

ابتسم الشيخ لفطنة الشاب وتابع:

ـ في النهاية نصف الحياة كما تحدث وتقع عليه...

ـ تتحدّث لغة القدماء من شعبي؟

ـ نعـم. كان أبـي صيـاد أرجـوان عتيـق، هجـر صيـدون وسـافر إلى أثينـا، خُلقـتُ هنـاك، وأعيـش أعمـل وأفكـر وأكتـب وأتنقـل بـين جـزر اليونـان، إلا أنّ بـي شـعوراً لانتمائـي لهـذي السـواحل، شـعوراً عميقـاً يـكاد يأسـر كل نسـمة تمـر عـبر جوارحـي.

ـ سـواحلنا مكلومـة، وأرضنـا منكوبـة. مـا زالـت النوائـب تتوالى، لم يبـق مـن آثـار اسمهـا القديـم شـيء يذكـر...

لم يكـن الشـيخ الـذي علّـم شـبّاناً كثيريـن قـد عايـن قبـل ذلـك سـخطاً مشـتعلاً يتمشـى بقدمـين ورأسٍ ممـزوج بقـدرة هائلـة علـى الرفض والجـدل. كان معروفـاً بكرهـه لجمـوح الشـباب وحماقتهم، إلا أنّ مـا لاحظـه في الماثـل بـين يديـه مـن ذكاء وعمـق، يـوازي حكمـة رجلٍ بمثل سنـه.

ـ نعم. تتالى الغزاة، فالغزو من طبيعة الإنسان. سيمضي على الناس زمن طويل، سيخسرون الكثير من الأنفس والدماء حتى يتعلموا كيفية العيش بمحبة ووئام. على الإنسانية أن تعيش بإخاء أيا كان منبتها.

ـ كنا أفضل حالاً قبل مجيء الإخمينيين والمقدون واليونان.

ابتسم الشيخ لغضب الشاب. بدأ يفقد سيطرته على نفسه:

ـ استرخِ أيها الشاب. علينا أن ندرك أنّ في العالم أشياء يصعب فهمها، وعلينا تقبلها كما هي، أن نعيش وفق ما تقوله الطبيعة وقوانينها.

ـ وهل الطبيعة عادلة؟ هل ينظر الإله لحال سكان القرى المنفيين خارج الأسوار؟ أليسوا من ملك الأرض والحقول والجبال؟ ألم يزرعوها وأجدادهم قبل مئات السنين؟ ألم يعتاشوا من ثمار بحرها وصيده؟

كان الشيخ يستمع لجايون من دون أن ينظر إليه، يراقب الأمكنة ويعاين الناس والأقبية والأسواق التي تنذر بقرب هيكل المعبد، وعندما همّ بإجابته، قاطعه جايون بغضب:

ـ قريباً ستجدهم جميعهم؛ فلاحين وصيادين، يفتحون عيونهم إلى القصور، ويتحسرون على ما كان لهم. سيرتدون البؤس بلباسٍ مزيف...

كان صدرهُ يعلو ويهبط، فيما منحه الشيخ جل اهتمامه وتفحصه. سأله باهتمام:

ـ ما اسمك يا بني؟

ـ جايون...

ـ حقائقـك ثابتـة يـا جايـون، لا غبـار عليهـا، ولا ينازعـك عليهـا أحـد، لكنـك بحاجـة لأن تتحـرّر، ثـمّ وضـع يـده علـى قلبـه الغاضـب وقـال:

ـ عليكَ أن تكبـح جمـاح عاطفتـك وغضبـك، روحـك تـرزح تحـت إصـر ثقيـل. حـرّر مـا تخفيـه بـين ضلوعـك حتـى تشـعر بالراحـة، تخلّـص ممّـا تشـعر بـه، علينـا جميعـاً القيـام بذلـك... قالهـا رافعـاً صوتـه ليصـل لآخـر تلامذتـه الذيـن سـندوا صديقهـم الأعـرج علـى طـول الطريـق نحـو القلعـة. تابـع:

ـ حتـى نشـعر بالسـعادة، علينـا أن نخضـع مـن غـير تذمّـر لمـا لا نملـك حيالـه مـن حيلـة أو قـوة. العواطـف يـا بـني تمنحنـا أخطـاء في الحكـم، وحتـى نظـل سـعداء، علينـا أن نجعـل إرادتنـا ملائمـة لظـروف العـالم مـن حولنـا.

وصـل المسـير لسـلالم تنتهـي بمبنـى مرتفـع جلـل مدخلَـهُ تمثـالان عاليـان لأسـدين شـامخين. وضـع الشـيخ يـده علـى كتـف جايـون وقـال:

ـأنـت شـاب طيـب وخـير، قـوِّ مشـاعرك يـا بـني حتـى تصغـر آلامـك فالحيـاة ليسـت سـهلة علـى مـن هـم مثلـك.

وفي الوقـت الـذي بـدأ فيـه التلاميـذ بحمـل رفيقهـم ونقلـه للمعبـد القريـب، كان صـدر جايـون مملـوءاً بالغـلّ، لكنـه يفتعـل الهـدوء. أدار وجهـه مخفيـاً ملامحـه الرافضـة لكلمـاَت الشـيخ. سـأله الآخـر في محاولـة لتهدئتـه:

ـ إذن هـذا قصـر الملـك سلوقس؟

ـ نعـم... قالهـا بعـد أن هـز برأسـه موافقـاً.

ـ إذن هنا ستكمل مهمتنا.

ـ أيعملُ الشيخ تاجراً؟

ـ كنتُ. قبل مضي وقت طويلٍ على ذلك. الخسارة معلم قاسٍ يا بني، لكن النجاة منها يمنح المرء كمالاً استثنائياً.

ـ وما أعمالك اليوم؟

ـ أكتب وأدرس وأعلّم... أقرأ وأفكر...

أخفى جايون إعجابه بالشيخ، ليس لفصاحته أو صبره وهدوئه، بل لأجل ذلك الإشعاع المضيء في نظرات عينيه التي تثقب كلّ ما تسقط عليه، فضلاً عن زهده الكامن في نبرات صوته. تجاسر زيادة وسأله من جديد:

ـ إذن ما سبب سفرك وقدومك إلينا؟

ـ أتيتُ بطلبٍ من الملك لمعاينة ابنه.

ـ أنطوخيوس القائد؟ ما به؟

ـ يقال حسب ما أعلمني الحكيم، أنّ الشاب طريح الفراش، صريع مرض أعجز الأطباء والعرافين والحكماء.

صمت جايون، فمشاعره إزاء الملك وأبنائه مصمتةٌ كتيمة...

تابع الشيخ كأنّما نفذ لدماغه وقرأ ما يجول بين نوازعه:

ـ لا تعجبني مخالطة الملوك. قبل سنوات ألحّ "أنتيجونيوس" لاستضافتي معلماً في بلاطه. رفضتُ ذلك بلباقةٍ. تذرّعتُ بمرضي وكهولتي، إلا أنني في الحقيقة لا أرتاح لصحبة الملوك والقادة. ففيها ما يضلّل المرء ويسلبه عقله وملكوته.

- إذن لم قبلتَ طلب سلوقس وحكيمه؟ ألن يسبب ذلك حنق ابنِ عدوه عليك؟

- الأخلاق تفرض عليّ مساعدة من يحتاجني عند قدرتي على منحه الراحة، ولكوننا أبناءَ طبيعة خالدة فالفضيلة تميزنا عن سائر المخلوقات بالحس والفكر والعاطفة...

- شيخنا مثالي، ما تقوله يصحّ في عالم آخر. ليس في عالمنا سوى الظلم والسلب وضياع الأخلاق الإنسانية.

ضحك الشيخ ملء فيه. وضع يده على كتف جايون بينما يصعد على درجات المعبد المرتفعة:

- تخلص من عواطفك أيها الشاب. ستتعب وتجعل حياتك عسيرة. تذكر أنّ الكون لا يُعانَد والطبيعة آلهة قاسية فيما لو عاكسنا قوانينها وتمردنا عليها.

- لم يخبرنا الشيخ باسمه؟

- لو أردتَ لقائي، فإنني سأمكث في القصر سبع ليالٍ. اسأل هناك عن المعلم. قل لهم أنك صديق قديم.

عندما عاد جايون أدراجه إلى الميناء، كانت الشمس تتهيأ للغروب. سقطت ممتزجةً بألوان نارية على البحر الأزرق، فبدا العالم والمدينة مصبوغين باللون الأرجواني، وكأنه ينظر لجوهرةٍ كبيرة، اختلطت فيها الزرقة والحمرة، فخرج الأرجوان مضمخاً لون الحياة فيها. شعر بالتعب، أنهكتهُ محادثة الشيخ. كما أتعبه عقله وأفكاره، وأشاع غياب أماليا في قلبه الوهن. فنهض مغادراً عبر الطريق إلى كوخه، إلا أنّه أجفل إذ سقطت على كتفه يدٌ أجبرته على الجلوس مرة أخرى. استدار بحركةٍ هلعة، ممسكاً اليد في وضعٍ شبيه بهرّةٍ متحفزةٍ

للهجوم، لكنه فوجئ بوجه شيموئيل يبتسم إليه، فيما نظراته نظرات ذئب جائع.

❖❖❖

أما في القصر اللاواديسي، فقد جلل الوجوم الأروقة والجدران. كان مرض ابن الملك يعذب الجميع؛ الحاشية والخدم والحكماء وقارئي النجوم، حتى أصغر فرد في العائلة الملكية. والملك في أسوأ حالاته. تكفلت المنغصات الخارجية بمضاعفة أرقه، فمحاولات ديميتريوس انتزاعَ عرش الإسكندر زادت من عنفه. كان يطمر الحواضر ويغزو المدن والقرى حتى صار أهلها يلعنون اسمه كلما طلعت عليه الشمس.

كانت الأحداث مثلها في القصر البطلمي جنوباً، فبطليموس الذي خرج خالي الوفاض من معركة "أبسوس" ما زالت عينه تنظر لالتهام المزيد من جوف سوريا، وهو يعيش كغريمه حالاً لا تسر عدواً ولا صديق داخل قصره الملكيّ. كان سلوقس يقدّر مكانة تركَته إذ ما قورنت بورثة الإسكندر، فالأراضي الواقعة تحت سلطته من أكثر الممالك نفوذاً وامتداداً، والغنى بالمحاصيل والثروات القادمة من سلوقية وبابل شرقاً حتى منافذ البحر غرباً، أكسبته مكانة عليا بين القادة. لقد جعلتهُ موضع حسدهم، وأججت رغبة التخلص من عرق السلوقيين الذين راحوا يؤسسون المدن ويرفعون الأكروبولات ويمدّون الآغورات بين أروقة معمدة. وقد دخلوا التاريخ من أوسع أبوابه، لكنّ همّاً آخر يشغلهُ: مرض ابنه الذي أعسر الأطباء وحيّر الحكماء؛ جلب لهُ أفضل العطارين واستعان بحكماء عرب وهنود جربوا كلّ أعشابهم وخلطاتهم، أرسل لبلاد الفرس ونقل سرّاً أطباء من مصر، إلا أنّ الشاب ما زال شبح إنسان خسر خير ما في جسده،

ونحُلَ حتى صار خرِباً يباباً. كما برزت عظام وجنتيه ونفر فكّه بصورةٍ مخيفة. وجههُ أصفر شحوب، وسحنته مرعبة تثير الهلع في نفس الناظر إليها.

كانت لاواديسا هي المدينة التي يرفض دخولها، واستغرب الجميع تمنعه. هرب منها إلى باقي الحاميات البعيدة، ثم نكص عائداً يتنقل بين مدن السلوقيين ويقضي أشهراً بين معسكرات الجند. بقيت أرضاً محرمةً على قدميه، رافضاً رعاية شؤونها، متمنّعاً عن تولي ولايتها. فنقله والده إليها مذعناً. حارَ بسرّ صده عنها، في وقت كانت حكاية ابن الملك حدثاً شغل من لا شغل له عبر مدن السواحل السلوقية.

هبط الملك من مخدعه ما إن أعلمهُ عبدٌ بقدوم طائفة أخرى من الحكماء. كان قد اتفق مع حكيمه أمفيون على استقدام طبيب يوناني شهير يكنى باسم "إيرازيسترات"، لم يعجزه مرضٌ لا في السند ولا في الهند. إضافة لمفكر ذي قدر عالٍ رفيع، ذكر الحكيم أنّ والد ديميتريوس ذاته تمنى لو تتلمذ على يديه. لم يخرج بحلته العسكرية وفضّل أن يبدو بحلةٍ بسيطة؛ أطلّ برداءٍ أرجواني رقيق يعلوه آخرٌ رمى به عبدٌ على كتفيه. رفض وضعَ إكليله أيضاً، لأن مزاجه الضاغط جعلَه غير قادرٍ على تحمل قطعة معدن واحدة من درعه الملكي. أطلّ برأسه على زوجته ستراتونيكي، فوجدها هي الأخرى شاردة في عالم غارق بالتعاسة والكمد. أصابتهُ حيرة غلفها الحزن. أغلق بابها، هابطاً إلى مخدع ابنه حيث كان الجمع يتصدر المشهد ...

وجد أنطوخيوس يتمدد على مخدعه شبه عارٍ، يجسُ نفرٌ من الأطباء أنحاء جسده. يتلمسون جبهته، فيما آخرٌ عرفه من هيئته من سمّاه الحكيم "إيرازيسترات". انحنى الجمع لمهابة الملك.

ساد صمت تبعته إيماءة من الملك للبدء في المعاينة. راح الحكيمان يتفحصان الشاب ويدرسان حاله. جلس الملك غير بعيدٍ عنه، وراقب ما يحدث مهموم البال مؤرق الفكر.

مرَّ وقتٌ غير قصير، بينما طافت على وجوه الحاضرين لعنة الترقب المذعور، إلى أن انزوى الحكيمان إلى زاوية محايدة وأفضى كلٌ بمنكوناته للآخر. كانت الشمس تغمر الجناح وتجلّل ستائره المزركشة بضيائها الذهبي، بينما ملأت ابتهالات الكهنة جنبات المكان. فاحت أعواد عطورهم وأبخرة خلطاتهم. جلس الملك وعينه تتعلق بابنه المرتمي كورقة ذابلة. مضى الوقت بطيئاً حتى اقترب الطبيب من الملك وهمس في إذنه، وما هي إلا هنيهات حتى أمر الجميع بالخروج...

- الآن يمكننا التحدث بصورة جلية. قال المعلم فيما بدت نظرات الملك مذعورةً، وتفاصيل وجهه منقبضة عبقة كسماء ممطرة. بانت سرائره غائمة قاتمة. أومأ برأسه ويده للمعلم أن يبدأ، فأكمل الأخير قائلاً:

- ليس ما يؤلم الشاب جسدٌ أيّها الملك الجليل.

- إذن؟ سأل الملك بلهفة ألف أمّ...

- شيء ما في أعماقه. شعوره ذابل، عاطفته مشبوبةٌ بحزن سيطر على أعضائه فمنعه من التحرر والشفاء. الشاب يصارع ثقلاً هائلاً، يبدو كمن يحارب مدينة لوحده.

- وما العمل أيّها المعلم؟ ما العلاج لحاله؟

- لو سمح لي ملكنا بالتحدث وطرح ما في البال من أفكار. سأل الطبيب.

أومأ الملك بكل تأكيد.

- بعد أخذ الأمان من جلالك، كان الشاب قوياً ورجلاً طموحاً وفارساً مقداماً، سمعتُ أنه لم يتزوج بعد، ولم يقترب من النساء طوال فترة مرضه، أليس في أمر ذلك سرّ؟ أليس في من يملأه مجون الشاب وقحته غرابة وعلل بيّنة؟

- وماذا تقترح أيها الطبيب؟ تساءل الملك.

- أتفق مع المعلم أنّ ما في الشاب عاطفة طغت وغلبت تعقله ورجاحة منطقه، لذا نقترح معاً... وتباطأ الطبيب، ثمّ أكمل: -أن تأتونا بجميع من في القصر من نساء، كلهن مولاي من دون استثناء من وصيفات وخادمات، وحتى ال...

- من أيّها الحكيم... قل من؟ أي شيء في سبيل شفائه يهون؟

- حتى الملكة يا مولاي!

- الملكة؟

أحنى الأربعة رؤوسهم... كانت الدهشة والذهول تغزوانِ المكان. أطرق الملك... فتابع الطبيب: -أستميحك يا مولاي أن تجارينا بما لدينا من حلول علنا نبرئ وريث عرشكم ممّا أصابه من وهن وشرور؟

مرت أوقات بدت دهوراً. أطرق الملك... وما هي إلا هنيهات حتى أمر بتنفيذ مطالب الحكيمين. وتُرك أنطوخيوس الذابل وحيداً في مخدعه. كان ساهماً يروز الجدران والنوافذ، فيما تخفى الحكماء والمعلم والملك خلف ستائر شفيفة.

لم يمر وقتٌ طويل حتى بدأت النساء من وصيفات وخادمات بالمرور تباعاً أمام مخدعِه. كان الحكيمان يرصدان نظرات عينيه

وردّات فعله؛ جميلاتٌ فارسيات ويونانيات، أجمل نساء لاواديسا وأنطاكِية وسائر المدن والحاميات؛ أجسادٌ خصبة طافحة بالوفرة، نهودٌ تفوح بالجمال وخصورٌ تجذب الأفاعي من وكرها، لحاظٌ تسلب ألباب أرجح الفرسان، لم يحدث شيء يذكر. وكاد صبر الجميع أن ينفد، لم يُبد الشاب أدنى إشارة، إلى أن حدث ما حدث!

دخلت الملكة ستراتونيكي، تخلع على جسدها ثوباً شفيفاً مرصعاً بالمرمر. كانت قد قلنست رأسها بطاقيةٍ مذهّبة تجر خلفها الحرير وتحتشد في معصميها الأساور وفي قدميها خلائل الياقوت والعاج. وقفت غير عالمة بمآلها، إلى أن ألفت نفسها وجهاً لوجه مع حبيبها. ما حدث آنذاك كان أسطورياً. بقي مشهداً حاضراً في ذاكرة السلوقيين. وقد تناقلتهُ ألسنة الباعة في الأسواق والموانئ، وطافت به شفاه النسوة عبر الجدران والخدم بين أروقة القصور حتى نفذ خَارج حدود البلاد. وحتى بعد رحيل الملك بأعوام، بقيت قصة هذين العاشقين أشهر قصص العشق في الأراضي السورية.

سقط الشاب في بكاء مرّ، وراح ينشج ويهتز مثل ورقة يابسة تروزهُ الملكة بعين بائسة، ووجه أرّقهُ الهجران. وقفت الحقيقة ماثلة على قدميها، حينها عُرفَ السبب، وغشي العجب وجه الملك وحكيمه. نظر الحكيمان إلى بعضهما نظرة الظفر والحبور. ابتسما ابتسامة هانئة، حين غامت ملامح الملك شاداً أعصابه، ناطقاً بذهول:

- إذن... إنّها ستراتونيكي...

❖❖❖

تلاشت هناءةُ البال، وخفتَ غضب جايون بعد لقائه بالمعلم. أوشك الحدث أن يتبخّر لولا يدٍ ثقيلة سقطت على كتفه وأيقظت

في داخله كل ما يمكن أن يؤجج أحاسيس الرفض والتطير. زادها رغبةً بالصراخ وتوجيه لكماتٍ مؤلمة على ذلك الوجه المتكدس بالدهون النتنة.

كانت الشمس تنزلق عن عرشها شيئاً فشيئاً، وأرض الميناء تنزع عنها حرارة النهار في ذلك السطوع التأملي الحاني. سقطت مثل جمرةٍ ملتهبة وسط الزرقة، حين هدأت حركة المارة والباعة والمسافرين، وصارت حركة النهار تشبه تنقّلَ امرأة مكدودةٍ أنهكها ثقل الأحمال. استلقى الزمن قليلاً، وعمّ الهدوء. تلاشى ضجيج المارة ما خلا بضعة حمالين هنا وهناك، وبقايا صيادٍ يلملم شبكة صيده وسلاله. لا أثر يُرى للبحارة أو لصرخات قادة السفن وأنفة أحاديثهم، فقد غادر الجميع إلى أماكن يجدون فيها الراحة والطعام والغذاء. حتى المسافرون، أووا إلى نُزل المدينة أو لمنازل معارف لهم يؤنسون غربة الأوقات التي سيقضونها في ربوع المدينة السلوقية الجديدة.

عندما التفّ جايون، قدحت عيناه شرراً. نظر لوجه شيموئيل بتقزز مفرط. كان التاجر يتمنى لو يطبق بكلتا يديه على رقبة الشاب، لو يُنهي إحساسه العارم بالذلّ. كلما تلاقت نظراتهما، اضطُر الأخير للتهرب منها والبحث عن حجة أو تكلفٍ ببضع نكاتٍ وافتعالٍ مزرٍ للهزار هرباً من مشاعره المتقدة بالذل. من تلك الأحاسيس المضنية التي ترميه بها عيناه؛ كيف بقي شاهداً على خيانة أسرته؟ لمَ وقفت السماء وإياه ليبقى مثل صخرةٍ في طريقه؟ علقةً تفضح أسباب سفره لصيدون وصور وطرق كسبه ودّ التجار في جنوب السواحل الكنعانية؟ تلك الخطية التي تتنامى في الخفاء مثل مرض معدٍ، ذلك السرّ الذي يضنيه ويحلم كلّ ليلةٍ في رفع

نصل سيفه عن رقبته...

ـ أما آن لاتفاقنا أن يعقَد يا جايون؟

سأل شيموئيل بعينين تغزلان مثل مغزل يدور بخفة.

ـ لا اتفاق بيننا أيّها النحس... لملم رحالك وارحل من هنا.

ضحك التاجر ضحكة خبيثة نزّ منها كلّ ما هو قميء:

ـ لا يا جايون... هذه المرة سنتفق من دون رضاك أو موافقتك!

قال جملته ونبرات الثقة ممزوجةً بنبراتٍ لعوبٍ تفوقت على صوت الجبن الذليل، ذلك الشعور الذي يخفضُ رأسه مذعناً كلما لمحه قادماً على بغلته عبر البوابة الشمالية.

ـ ماذا تخبئ نفسك اللعينة يا شيموئيل؟

ـ بل ماذا تخبئ أنت يا جايون؟ هناك في الأنقاض البعيدة بين أشجار الشوح والصنوبر وتحت رفات قريتنا المندثرة؟

في تلك اللحظات، تصاعد الغضب في نفس جايون. اشتعلت روحه بسخطٍ مستعر. كشف عريّ سرِه. لم يشعر بجسده يحمله، اتقّد غضبه أكثر فأكثر، ولم تكد تمر هنيهاتٌ، حتى هجم بيدٍ بثّتْ على وجه التاجر كل ما كان يعتمل في نفسه منذ الصباح: غياب أماليا، جداله مع الشيخ المعلم، غضبه المتجذر من إحاطته بغرباء وأجانب، رفضه الباتر لمقتل أبويه، مقته لذلك الذلّ الملتف بجسد شيموئيل. راح يكيل اللكمات مُخرجاً ثأرهُ من صدره برفساتٍ على البطن والأرجل. لم يترك التاجر إلا بعد أن أدمى وجهه. لملم رحاله من تلك البقعة، وقد كره أن تمر عليه لحظة أخرى فيها؛ أفلت بغلته من عقالها، وشدَّها فيما تصبَّب عرقٌ زاخرٌ من جبينه ويده وكلّ

أنحاء جسده، ثم مشى باتجاه الشمال عابراً بوابة أنطاكية، بعيداً حيث لا راحة له ولا هناءة إلا في كوخه الناجي من قحولات المدينة.

ارتمى شيموئيل على أرض الميناء متأوهاً، انسلّ خيطُ دمٍ رفيع من بين شفتيه وجبهته. في الحقيقة كان قبل أن يداهمَ خلوة جايون، يتخيل ردة فعله العنيفة، ويرسم ملامح وجهه إثر معرفته بكشف سرّه المطمور، إلا إنه لم يتوقع العاقبة على هذه الصورة. مرّر أكمامه على طرف لسانه وشفتيه، بصق ما سال داخل فمه إذ أحسّ بطعم الملوحة المرة، حاول الاتكاء على صخرةٍ قريبةٍ صاغت هيكلاً أرضياً منبسطاً، إلا أنّه شعر بجسده مثل طيرٍ ذاوٍ أُرديَ بإصابةٍ عابرة. كان برغم ما نزل به من آلام وأوجاع يبتسم مثل نسناسٍ مكار. ها قد تحقق مراده في إغاظة جايون وردّ صاعٍ صغير لإهاناته. قريباً سيجعله نداً. سيُزلقه لمهاوي طمعه وتجارته. لا شكّ برغبتهِ في تحصيل ما يشاء من طمائره ومكتنزاته، وذاك أقصى ما يمكن أن يتلذذ به من مشاعر بعد أن أُشبعَ ذلّاً واستصغاراً.

كان شعوره المتزايد بالوضاعة والتذلل المخجل يفوق الوصف، الأمر الذي جعلهُ يحيا أسيرَ كآبةٍ سوداوية، لم يعد يسعى لكسب الفرح أو السعادة، بل المال فقط. صار يزدري المشاعر والأفراح، ولم يعد يجد غاية لتذوق معاني تلك الامتدادات الروحية التي تسمى غبطةً. صار إنساناً وقحاً، شبه بائس داخل نفسه، إلا أنّ حقداً أعمى مضى يتغذى بين جوارحه، وبذور مزاجٍ وحشي سبغت تصرفاته، من جشعه وحتى احتقار كلّ ما هو دونه من عبيدٍ وخدم ونساء. نهض متحاملاً على نفسه. راحت الشمس ترسم آخر خيوط الضوء عبر الأفق، أما البحر فقد استسلم أمام ليلةٍ

كست المدينة والشواطئ بغلالة داكنةٍ سترت عجز شيموئيل وعرَجه نحو منزله شرق ساحة المدينة.

❖❖❖

في صباح اليوم التالي، عندما بدأت خيوط الفجر تتسلّ معلنةً بدءَ يوم جديدٍ، كانت أماليا تعدو على ظهر هابوبو نحو الكوخ، يشعّ مِنَ وجهها ودٌ سماوي ممزوج بجزءٍ أخفى ما حملته من فراسةٍ وذكاء.

كان كل شيءٍ يبدو سائغاً بالنسبة لها، كل شيء كما يصفه جايون، يبدو خارج الأسوار صادقاً حقيقياً: رائحة الملح، إشراق الصباح، المحيط الشاسع المترامي، والحقول الممتدة بين الأكواخ المنتشرة في المروج مثل زهورٍ متفتحة. مداخنٌ تُخرج خيوط دخانٍ رفيعة، من دون أن تتخلى تلك القرى البعيدة عن ابتهاجاتها الصباحية، مخفية قلقاً أجوفَ يحتل وجوه سكانها... مشاهدٌ من جمالٍ صباحي مشعّ يترك في النفس آثاراً منعشة. وفي الحقيقة كان يبدو للعيان ما يعتمل داخل نفسها من شوقٍ لرؤيته، إلا أنّ سبباً كمَن خلف استيقاظها مبكراً وهلعها في مثل تلك الساعة. فقد ترامى لمسامعها أحاديث عن مشاجرة جرت بين جايون وشيموئيل، وذاك من أمره ما يُنذر بكثيرٍ من الحزن والغضب في قلب الشاب. وفي الحقيقة من جهة أخرى، فقد شعرت كم أهملت لقاءاتها به، فهي تعلم عمق علاقتهما التي وسمها الوقت بكثير من المتانة والغرابة، شيء مختلف عما خبرته من علاقات مع شبانٍ ورجال آخرين؛ علاقة بعيدة عن الزيجات المعهودة أو الصداقات الشائعة. كانت مغلفة بغلالةٍ لا تكشف ما تحتها. عندما يلتقيان يصيران كائنين لامرئيين. هنا تصبح أماليا نفسها، مع الرجل الوحيد الذي أشعرها بأنّها أنثى، آلهة،

ربة... معه كانت امرأة كاملةً، كياناً أنثوياً منسجماً أيما انسجام برقته وحضوره.

كان البحر هادئاً تماماً، أشبه بمرآة ملساء تعكس أشعة الشمس المتألقة. النسيم مالحٌ والمياه مفعمةٌ بالحياة. ولّدَ ذلك في نفسها فرحاً نسيتهُ برحيل والدها. رضىً عميقاً قلما شعرت به مؤخراً، كان كفيلاً بأن تشعر بهناءة العيش، لولا وجه جايون الغارق بالذهول أمام مدخل الكوخ. كان يبدو مكدراً، مشغول البال. وعندما وصلت، أسرجت فرسها، بقي على حاله شاخصاً نحو البعيد من دون أن يُعير انتباهاً لما يجري حوله من أحداث. هرعت إليه. أقعت القرفصاء أمام وجهه. طوقته براحتيها... همست:

- جايون...؟

لكنه نهض مثل من لسعه عقربٌ سام. حمل عصاه واتكأ عليها. ذهنه ذاهل شاردٌ. مشت خلفه في جزعٍ وهي تصرخ:

- جايون... ما بك... ماذا جرى؟

نهض نحو باب الكوخ. لحقت به مذعورةً تتنبأ بخرابٍ قادم، وعندما وقع نظرها على جوفه، أدركت أنّه لم ينم، ولم يُضعِ هنيهةً واحدة من ليل البارحة. كان الكوخ مقلوباً رأساً على عقب. تعرفت على الأشياء المنضدة على أرضه؛ صناديق خشبية وأحمال من جلود حيواناتٍ برية. استدارت ناحيته، وضعت يدها على وجهه تتلمس حاله، بينما مسد بيديه الخشنتين وجنتيها مركزاً نظره على عينيها. لم تشعر بالترقب كما شعرت لحظتذاك. بل تهيأ لها أنّها تكاد ترى ما يوجد خلف بؤبؤي عينيه البنيتين.

همس برباطة جأشٍ: عديني يا أماليا... عديني أن تساعديني في

حربي مع شيموئيل.. لقد كشف سرّي.

- أعدكَ بكلّ ما فيّ من أنفاسٍ يا جايون... لكن احكِ لي ما حدث؟

كانت الأشياء المتراكمة مبعثرة هنا وهناك، أطمورات وأحفورات وجرار محشورة داخل الصناديق. حمل أحدها على كتفه وخرج به نحو قارب مركون إلى طرف الشاطئ. أسرعت لداخله ترتب مواضع الصناديق، تفسح مكاناً لها. انبرى يروح ويجيء ومعالم العزم تجتاح وجهه. بدا أنّ قلة النوم لم تؤثر فيه أو توهن مبتغاه، بل زاده التعب إصراراً والإنهاك عزيمةً على إنهاء ما كان ينوي فعله.

مرت لحظات شوهد القارب بعدها في منتصف البحر، عبر تلك المسافة الفاصلة بين الشاطئ أمام الكوخ إلى الجزيرة القريبة. وفي الحقيقة هي لا تُسمّى جزراً بقدر ما تكون نتوءاتٍ يابسة برزت في البحر، وفي وسطها كان جايون يسكن لصيد أصداف الأرجوان. أميالٌ ويصلانها. كانت ذراعاه تجذفان وعينه ساهمة عبر الأفق البعيد. والقارب يعدو بثباتٍ في تلك المساحة الزرقاء، وحيث تستقر الجزيرة الصغيرة مثل فتات في البحر اليباب. كبقعةِ نورٍ لا متناهية، غامضة، مسجورة بأسرار أثارت نفسها كتأثير حضور جايون عليها. بدت جوهرة متلألئةً على صدرٍ حافلٍ بالخبايا. كان المشهد مبهراً، ينضوي على كلّ ما يجذب نفسها من شغف ومغامرة. من ترقب وحيطةٍ وخوف. أسرارٌ وخطط قادمة، بينما يلفّ العالم من حولهما ويدور وادعاً بأجمل حلله. بدت الحياة خارج تلك المشاهد غير محتملة، فاترة مثل نهرٍ ينساب فيه الوقت برتابة، لكنها تدفقت عندما نظر لها بعينه الرؤومة، نظراتِ لهفة وعشقٍ آسر، فعادت للتفجر فائضة بالبهجة والحياة.

بدا كل شيء ساكناً، متراخياً في ظل ذلك التوهج. حتى هي خلت لسكونها، فبعد موت أبيها اعتادت تحمل صروف الحياة بجوارح أهدأ من ذي قبل، إلا أنّ فرحاً أكبر من كلّ ما خبرته من هناء بدا ينمو بين ضلوعها ويكبر. وجهها تغمره قسمات من التوهج، ونظراتها تشعُ بذلك الألق البهيج الذي ينير ليالي الأعياد في المعابد.

ها هي، إنّها جزيرة. حيث يمكن أن ينعزل المرء ويكتفي بها عن العالم.

لم تكن مساحتها تتعدّى مساحة عشرة أكواخ من ذاك الذي ألفياه لدى الشاطئ. كان يبدو من آثار الأتربة والركام والمجارف المغروزة أنّه لم يُضع لحظة من ليلته الآفلة. فالحفرة كبيرة، وطافحة بعشرات الصناديق وأكياس الجلود التي تحفظ داخلها أتربة ولفائف. كانت كبيرة كما لو أنّه أراد أن يخفي بداخلها كوخاً بحاله. تصوغ أرضها أصداف الميوريكس عوضاً عن التراب والعشب، في حين نمت شجيرات برية ضئيلة هنا وهناك. طحالب وأعشاب بحرية، رائحة الملح والزبد تطغى على كل شيء. اقتربا من الحفرة حيث سُيطمر كل شيء. خرج جايون عن صمته وهو ينقل صندوقاً ثقيلاً:

- يجب أن نخدع شيموئيل...

فتحت عينيها على اتساعهما. ابتسم لاستغرابها وأوضح:

- سيتهيأ له ذلك... لا تخافي... أريد كسب الوقت ليس أكثر.

- كيف سيتم لك ذلك؟

- ستذهبين إليه وتخبريه بقبولي عرضه...

- أنا... دُهشت لقوله.

ـ أجل... أحتاج لأكثر من عشرين يوم لنقل ما في الكهوف. كيف سأنقل مدينة بحالها يا أماليا؟ سأحفظ ههنا كلّ مخطوطة أو أحفورة نادرة. لستُ متأكداً من صحة ما أفعله، ربما يأتي يوم ويطمر البحر كل هذي البقاع. سيكون ذلك أمر حسن، فالأرض تأمن أسرارنا أكثر من قلوب الناس الجشعة. سيكون غمرها بالماء أفضل من إخراجها من الأرض التي ستحضنها وتحفظها.

ـ لك ذلك يا جايون... لن أتوانى عن فعل أي أمر في سبيل مساعدتك.

نقل الصندوق الأخير، صفق براحتيه ورفع قامته. اقترب محوطاً جسدها بذراعيه، أحس لمساتها الدافئة تشتعل في جسده. ارتعشت قليلاً... تململ وارتبك. لكنه بقي صامتاً ينقل عينيه بين فمها وعينيها. اقترب أكثر وانحنى نحوها. قبّلها. أسكرتهُ رائحتها. دمعت عيناه لفرط البهجة. شعرت برعشة جعلتها تستسلم لآثار يديه على خصرها ووجهها. لشفتيه اللتان أغرقتاها بالقبل الحارة. كان يأمل لو يحملها بعيداً إلى آخر العالم. تمنى الرحيل حين وقف هناك في تلك النقطة التي جمعت ماضي أسرته ومستقبله الساكن عينيها.

كم رغب بالرحيل، حيث لا شيء يسكن سوى البحر والصمت والنوارس المهاجرة. لكنّ حزناً غلّف الهواء من حولها، وخلف ابتسامته المشرقة، كان ثمة أسى أزرق يشعّ...

مكتبة
t.me/soramnqraa

آثارُ الزّوال

ثمة أثر عميقٌ باهتٌ، أثر زائلٌ لكنه غائرٌ ونفّاذ، تتركه الأشياء العابرة فينا. لا شيء يثيرني مثل تلك الأشياء، أكثر مما يفعلهُ لغزٌ أو أحجيةٌ غامضة. كانت الأمور القادرة على استثارتي في الحياة قليلةً، إلا أنّها ذات وقع رنان: المحرماتُ، النساء، الممنوعات. أثارتني تلك الجُدر المغلقة، بعيداً عن بيت قرويّ وأبٍ يصلي ليل نهار وأم صموتةٍ مثل عبدة. ذلك المجهول المظلم، طرف العالم الآخر، القريب مسافة جدارٍ فصل شقتي حيث كنتُ في العاصمة أتابع دراستي في الطب، عن الشقة المجاورة. مكانٌ مشبوهٌ تعامى سكان الحي والمدينة عما جري في داخله. مضى على ذلك زمنٌ طويلٌ. قبل سنوات بعيدة. قبل أن أغرق في عالمٍ صاغ الممنوع كل حجرةٍ من أركانه.

"بدأت الحكايةُ بعد أن وقعتَ صريع عينيها، قتيلَ خضارهما المعشوشب وسط لجةٍ من البياض الشاهق. مايوشكا. الراقصة الروسيةُ، بائعة الهوى التي عملت مع فرقةٍ مشبوهةٍ في العاصمة. مضى عليها زمن طويل. تغير كلّ شيء اليوم. تغيرتَ أنتَ. وتغيرت البلاد كأنّما صارت بلاداً أخرى. صرتَ أكثرَ غرقاً في طرف العالم الآخر. لم تعد على حافته، بل صرتَ من المتنفذين والمحافظين على سيرورته. رحتَ تغرقُ وتغرق، مذ لمست القشعريرة جسدكَ، مذ صار المبيت بين أحضانها غاية

عيشك الكبرى. لم ترسب في جامعتكَ إلا بعد أن صرتَ تنحدر إلى عالمها. بعد أن ذقتَ طعم الانتشاء والخدَر وأنتَ تصهل فوق غابات جسدها مثل ثورٍ إغريقي. خبرتَ لذة الوصول إلى أعلى نقطةٍ في الشعور. لذة اللذات، فرحة ليالٍ طويلة مرت بين ذراعيها. هناك حيث تعلمت أصول المجامعة، ورحت تختم الليالي والأسحار باستنشاق محرمات سلبتك مالك وعيشك. وضعتكَ مايوشكا على أول الطريق، رحلَتْ، اختفَتْ. تركتكَ مثل رجلٍ معلقٍ في الفضاء، غارقاً في همهات روحكَ التي صارت تعوي في الغياب مثل وعولٍ رامحة. لم تدم علاقتكما أكثرَ من شهرين، كانت زمناً زائلاً مؤقتاً، جزءاً من الأحداث العابرة، إلا أن أثرها كان عميقاً... غائراً.. متجذراً حتى أقصى نقطة من دمكَ... أثر مايوشكا العابر، صار المحرك الذي وسم حياتكَ القاتمة التي تعيشها اليوم!".

أنهكني هذا الحديث المقتضب، هذا الجدال الممض مع نفسي كلما رفع ضميري الغطاء عن بئره العميقة، كلما انسل للضوء لأعيدهُ مجدداً. كانت سيارة الإسعاف المزيفة تنقلني، كما جرت العادة، نحو وجهةٍ غالباً ما تكون إلى مناطقَ أخرى بعيدة، بقاعٌ صارت محرقةً بعد أن قامت القيامة في البلاد. كأنما بي غريزةٌ وحشيةٌ لسبر أغوار العوالم المحرمة. انقسمتْ المدن إلى مناطق محظورة وأخرى آمنة. سيطرت عليها منظمات وميليشيات متشددة، وأخرى نظامية عاودت اجترار حياتها بحذرٍ مريب. ولأني ربيب مايوشكا، ربيب الفحش، وجدتُ لنفسي طريقاً في قلب الخراب. كنتُ الطبيب والتاجر والمخرب، القاتل والمجرم. المنقذ والمميت في آن معاً. طالما تنتهي رحلتي بحفنة دولارات وقبضة هيروين، مما

من شأنه أن يمدني باللذائذ، ويساعدني على استمرار عالمي الذي بدأته قبل عشرين عاماً.

كنتُ الساحر القادر على التنقل بين تلك المناطق. الطبيبَ الأشهر بين مشافي العاصمة، صاحب الاسم المدلل ذي السمعة الحسنة، وابن العائلة المتدينة المتشددة الملتزمة. كنتُ العميلَ السري لأنظمةٍ سيطرت على مناطق شمالاً، والصديق المقرب لتجار العاصمة، وابن قريةٍ نسي أمر قريته الفقيرة، الغارقة بالصقيع والوحول والعفونة.

كنتُ صديق الجميع، لذا وسط الحرب، صرتُ من زمرة القادرين على فعل أي شيء. كانت الحرب مناسبتنا العظمى، فكل منقوص ومهرّب يتوفر مثل مطرٍ زاخر. كنتُ غارقاً بالخيرات: الوقود في سيارتي، المشروبات الكحولية لسهراتي، الأضواء المشتعلة ليل نهار، وحتى... الأعضاء المعطوبة لأجساد أثرياء المدينة وأغنياء الحرب. قدرتُ على اجتياز كلّ شبر في البلاد. قدرتُ على مصادقة هؤلاء وأولئكَ. لم يهمني صلاح الأطراف بقدر ما شغلتني حرفية مهمتي ونجاحها. أستبدلُ الأعضاء بلمح البصر، هناك في المناطق المحظورة. أعضاءً طريةً ناضحة بالحياة، لأجساد هرمةٍ وعاجزة، طالما ينهمر المال، وتؤمّن حرية التنقل والحركة، بقي عالمي المظلم يمشي على قدميه رافعاً رأسه، مملوءاً بالحياة...

أعود لطريقي: تمضي سيارة الإسعاف في هذه اللحظات من تحت جسر فيكتوريا إلى الطرف الآخر. دبر أحد أفراد الفريق تأمين بطاقة عبورٍ لها؛ بطاقة سحرية تجتاز كلّ العوالم. نتجه جنوباً إلى الوجهة المتفق عليها حيث ستقطع الحواجز باسمي المعروف لديهم، تتخطى الدروب ليلاً، ترتدي السواد، فأطيل

لحيتي، وأمضي بين مرافقَين لما بين التلال وما بعد الحواجز، حيث الميليشيات والمعسكرات والمخيمات، وحيث تجري الآثام مثلما تجري في جميع أرجاء البلاد. لكن بفروقٍ بسيطة: أُبرزُ ههنا بطاقتي كشيخ جليلٍ، يتبدل دوري لا أكثر، أذلل نفسي وشهادتي وطبّي رخيصاً في سبيل نشر الدين ودعامة أركانه.

هناك في الخفاء، أجدُ ما أشاء لقاء خدماتٍ قد تبدو بسيطة في العلن، إلا أنّها ملوثة بالدماء في الخفاء. عمليةٌ جراحيةٌ لفتاة عذراء، ختان لفتياتٍ لم يتجاوزنَ التاسعة، شبانٌ مخدرون تنبض قلوبهم بالحياة، أشعر بحرارتها بين يدي قبل أن أستأصلها وأرسلها لوجهاتها. كلّ ليلةٍ، أنتزع بحذرٍ كلية أحدهم، أو أُخرج قلباً نابضاً، وأجري بخفة مع كادرٍ طبي لنقله على وجه السرعة إلى وجهته، والتي ليس من الغريب، أن تكون داخل المناطق النظامية أو خارجها.

هكذا أبتسم بمكر غجري، أستبدلُ أعضاء سكان البلاد بين بعضهم بمعزلٍ عن الموانع، سواء عبر الحدود جنوباً أو عبر الحدود مع لبنان، وقد يتعدى ذلك لإرسال المنقولات خارج الحدود، قد تكون نساءً جميلاتٍ أو صبياناً وسيمي الطلعة أو أطفالاً رضعاً لعوائل عقيمة، غير آبهٍ لما يمكن أن يوصم بالجريمة، وما يتبعها من مآتم تحدث بعد غرز المخدر في أجساد ضحاياي.

"أعجبكَ سحرُ السطوة؟ سلطة القدراتِ الخارقة؟ فعلُ ما لا يُقدَر عليه؟ أَأبهرتكَ مؤاخاة الأبالسة؟ جوالكَ الذي لا يهدأ؟ رؤية ما خلف الحواجز؟ وعقد الاتفاقات مع الذئاب من الطرفين؟ انتشيتَ برائحة البلاد المذبوحة؟ وارتحتَ لصدى اسمكَ في قريتكَ النائية؟".

جوالي يرن. سيارة الإسعاف تقطع السهوب الجنوبية ليلاً:

"تعال بسرعة... عملية جديدة!".

تلتقي الحدود جنوباً مع نافذة واسعةٍ مفتوحة على العوالم كلها. يظن المرء أن بإمكانه وطء المريخ بقدميه. يدخل ويخرج كل شيء، بلا استثناء. ثمة عملاءً لجميع أنواع الصفقات. أكثرت الحرب أعداد أولئك القادرين على بيع أنفسهم. فصارت المركبات تدخل وتخرج من الخارج عبر كلّ الجهات بسحر ساحر. وعلى الرغم من الحصار المضروب، إلا أن تلك النافذة الحدودية الصغيرة شكّلت رئة تنفسٍ لمن ينفذون جرائمهم وأفعالهم الشنيعة.

العربةُ تقطع وعورة التلال. تتجه جنوباً بعد أن حييتُ من خلف الزجاج أفراد الحاجز الفاصل بين منطقتين يحظر اجتيازهما. الليل يدهم والظلمة صارمةٌ مثل أرملة محرومة تتشح بالسواد، والصمت يخبئ تحت رماده موجاً من الغصات والأنين.

"يراودكَ شعوركَ بالضآلة... إحساسٌ جديد طارئ يدب بين أوصالك؛ إحساسٌ اشتعل البارحة وراح ينتفض ويتصاعد داخلك. كيف لنفسك الجَحودِ أن تفسح الطريق لمشاعر مثل تلك التي نفدت صباح البارحة؟ كيف للآلام والندامة أن تجد لنفسها فسحة في زحمة لياليك العامرة؟ أهو الشعور بالوحدة بعد مضي حياتكَ الماجنة؟ أهو المشهد الذي أيقظك صباحاً عندما رن جرس المنزل الفارهِ وسط العاصمة، وحين قمتَ لفتحه متثاقلاً؛ فوجئتَ بعابرَين من أولئك الذين سمعت عنهم في الحكايات؟ لكنك كنتَ تشاهدهما وجهاً لوجه! طفلان مشردان، بأسمال بالية وشُعورٍ ممعوطة، وأقدام حافية مدماة.

هل ساءكَ المشهد وسط كل الآلام والذبائح التي تفعلها؟ نفذ لداخلك شعور بالخراب والتهتك إذ طلبا إليك كسرة خبز. أثرا فيك نفذا لعمقٍ مظلم غارق في عتمتك رضوان؟ اسم أكبرهما كاسمكَ؟ كنتما رضوانَين اثنين، لكن بفارق بسيط: أحدكما طفلٌ مشرد جائع وبائس، والآخر طبيبٌ مجرمٌ وسفاح!".

ولأن المشهد كان شبه صحوة ضمير، أو فطرة أول جدّ من أجداد عائلتي خرج حين غرة عبر الأنسال المتلاحقة، فقد قدمتُ لهما ما يفوق العادة والمنطق، أطعمتهما، وأكرمتهما، ولأني لم أحتمل ثقل الحقيقة. لأني وجدتُ نفسي حينذاك في آخر محطات العمر طرفاً مشاركاً في تشردهما ومقتل والديهما. صرفتهما. لم أعد لنومي كما عادتي، بل ذهبتُ مخموراً إلى المطبخ. أعددتُ القهوة ورأسي يعج بعشرات الصور والأفكار والمشاهد المتناحرة.

في تلك اللحظات، رحتُ أتحرك وأذهب لأعمالي. أجيب جوالي مثل غائبٍ في عالم آخر. رأيتُ صورتي في المرآة أول مرة. كنتُ بشعاً إلى حد بعيد! أيمكن لحادثة عابرة أن توقظ في أحشائي كل تلك المشاعر بالخزي؟ أهو أثر الزوال؟ أثر الأشياء العابرة التي تومض وتختفي بسرعة؟ أيكون عبور الطفلين وحديثي إليهما المعادلَ المكافئَ لأثر مايوشكا العابر أيضاً قبل عشرين عاماً؟ أكانت مايوشكا الغرق وهما المنقذان؟ أكانت الخطيئةَ وكانا وجه الله تجلى أمامي في لحظة مفاجئة؟

لم أكن بأفضل حالٍ حين هاتفني خبر مهمتي القادمة. أول مرة مذ اندلعت الحرب أشعر بالحنق يروم في حنجرتي. شعرتُ برغبةٍ عميقة بإغلاق الهاتف والوقوف على جبلٍ عالٍ وأصرخ:

كفى... كفى!

لا مهادنة بعد اليوم. لا مشاركة في عمليات إجرامية. لا نهود رامحة ولا أحضان دافئةً ولا ليالي حمراء! تبدى العالم مثل غلالة لأرى بعيني مدى القحولة في عالمي. رأيتُ وجهي في المرآة بأنيابٍ، ولم تفلح الياقة المطوية بعناية ولا ربطة العنق الحمراء، التخفيفَ من مقدار بشاعتي. لم يحن الليل إلا وكان الأرق قد أخذ مني ما أخذ. اللعنة على مايوشكا! أم اللعنة على ذلك القدر الذي ساق الطفلين إلى باب منزلي؟

رحتُ أعيش اضطراباً وتشويشاً. كم كنتُ هانئاً منصاعاً لنفسي قبل أن يدق الباب البارحة؟ لكن الصباح نهض، ولم تكد شمس النهار تطلع، حتى عقدتُ العزم على إنهاء مسيرة حياتي. بداية طريق أخرى، بعيداً عن عالمي السابق الذي صار يشعرني بالغثيان كلما لاحت صورته أمامي.

وصلنا مقر المهمة جنوباً. ولجتُ بوابة مدججة بالمتاريس، تستقبلني وجوه ملثمة. يبدأ عالمٌ آخر بالبزوغ؛ صدى لجرائم البشرية ومحرماتها، كلّ اللغات تتراقص بين جنباته، العربية والإنكليزية والشيشانية. لغات هندية وغربية، محلية وأخرى صحراوية، قد يتطور الأمر لسماع اليهودية بحكم القرب من الأراضي المحتلة. كان عالمي المألوف، حيث من السهولة بمكانٍ إخراج وإدخال ما يخطر على بال المرء. هناك من يأتون بأسلحةٍ تحملها خصورهم، هناك من يجيء بالعصي والسكاكين، مخضبّين بانتماءاتهم ومناصبهم، يكاد المرء يظن أن كل مكان في الأرض لهم. يشعر بالصغر والضآلة أمام قحتهم. اتجهتُ نحو السلالم وسط فناء المبنى، هرولتُ باندفاع العارف نحو بوابةٍ دهمها ضوءٌ ساطعٌ من تلك الأنوار التي تزدحم بها سقوف المشافي وغرف العمليات.

"... اعتدتَ معالجة مهامكَ بصمتٍ. الصمت الذي يلفّ الأمكنة التي نغرقها بأمورنا الشائنة، ذلك السكون الذي ينسلّ كأفاعٍ على ملامح المحيطين بكَ. هو ذاته صمتٌ ندرك معانيه ونفهمه من غير أن يضطر المرء لتحريك شفتيه، كالسكون الذي يدهم الغابات بعد أن تعصف بها زوابع مدمرة، ذلك الصمت المدبِّر للكوارث، السابق لكل شرور..."

تجيء ملثمتان بالأبيض. من غير المسموح التحدث إليهما أو النظر بشكل مباشر لعينيهما. تعقمان اليدين وتلبسانني مريلة الجراحة. ينتظرني طاقمٌ كاملٌ من مساعدين طبيين مألوفين، وبضع ممرضات تلوح في نظراتهنّ رغبات الهجرة والسفر.

"... أمامكَ اليوم جسدان. مغطيان بأرديةٍ بيضاء. أحدهما بدا غضاً، جلدهُ الطريّ ينافس جلد الجسد الآخر المتيبس كقريةٍ محطمة...".

في غرفة العمليات، الخفة والصمت صنوان العمل. أشرعُ بتفحص الجسد الأول المسجى أسفل غطاء أبيض. كان ثلاثينياً، تفوح منه رائحة التعذيب والعفونة. تبدو عليه لاحة الجندية وتحكي عظامهُ البارزة والهالات الداكنة حول عينيه عن جوع وضنك. أمسدُ الجسدَ، ترتعش قدمه اليمنى تحت تأثير مخدر دبّ بين أوصاله، فأنتبهُ لأصابعها، عفنٌ شبيهٌ بالغرغرينا. لا بد من بتر القدم قبل أن يستشري العفن في باقي أنحاء الجسد، لكن ما الفائدة طالما الموت مصيرهُ المحتوم؟

وجههُ يحمل آلام العالم، إنهاكٌ يتراقص بين حاجبيه. المطلوب كليتين، وبعد ذلك يتم رميه في حفرةٍ مجاورة خصصت لأجساد نفدت

صلاحيتها. وذاك كان أسهل ما يمكن أن أقوم به، لكن ليس مع "رضوان" اليوم، كان ذاك "رضوان" الأمس. اليوم ولدَ شخصٌ جديد...

يداي ترتجفان قبل أن تشرعا بحزّ جلده، الأمر الذي أثار ريبة الطاقم المحيط. تنقلت نظراتهم المتشككة فيما بينهم. شعرتُ بغثيانٍ عنيف يضطرم داخل معدتي. دوارٌ طارئ يتلاعب بين صدغَيّ. آخذُ نفساً عميقاً، فالمراقب خلف اللوح الزجاجي يطاول قامته بعد ملاحظته تبدل حالتي. والوقوع في شرك الخيانة أو التراجع في قلب الوكر سيكون بمثابة انتحار غير محتمل. خرج صوت من خلف كمامةٍ بيضاء:

- هل هناك ما لا نعرفه؟

- ارتفاعٌ في ضغط الدم ليس أكثر؟ أجبتهُ بهدير صوت مرتجف.

ها أنا أقبض حياةً أخرى. كم أشعر بالكره إزاء نفسي. رحتُ أحز بالمشرط خاصرة الشاب، بتّ أحسّ أني بلا ثقل، صرتُ مثل ريشةٍ في مهب الريح، كم من الأجساد نهبتُ؟ كم من الكلى والقلوب والأرجل والأقدام بعتُ؟ كم من الأسر يتّمتُ؟ وكم مَن الأطفال الذين يحملون اسم رضوان شردتُ وجوعتُ؟

مرَّ الأمر بخفةٍ ومهارة. خيطَ الجرح خلال ثوانٍ، ونُقلَت الكليتان إلى صندوقٍ مخصص أرسل لوجهته على جناح السرعة. كان العرق يبلل جبهتي، والقرف من المكان يتجلى في نظراتي الهاربة من الوجوه. لا يزال أمامي جسدٌ آخرٌ. جسد محطمٌ تحت غطاء أبيض. بادرت ممرضة لمساعدتي في تعقيم يدي، نبرتُ يدها مثلما ينبر الفلاح شجرة جوز مثمرة، تجاهلتُ شعورها بالحرج والغرابة، إلا أنني فتحتُ الصنبور ضائعاً هائماً، ولما عدتُ بخطواتي بعيداً

عن السرير الآخر، لمحتُ كتاباً ما... كتاباً لم ألمح وجوده داخل غرفة الموت. بدت عليه علامات التلف، كما لو أنه خاض حرباً لبلوغه المكان. مكسواً بالدماء والطين، مشلّع الأوصال مخلوعاً من جلدتيه. بدا كتاباً صالحاً لأي شيء إلا للقَص أو نقل الحكايات، تتناثر بين صفحاته وريقات بيض... ولما اقتربتُ منه داهمتني رائحة الشاب ذي الكلى المنهوبة. وإلى جانبه لفّ قميصٌ مهلهلٌ أزرق اللون، بدّلَ الدم والطين لونه حتى اسودّ كما قتمت الحروف المطرزة فوق جيبه بلون أزرق غامقٍ... ت... و... **لا شيء... لا شيء... ق!**

الصوت الخفي من خلف الزجاج يجيء بنبرة مكرية تسرق الهناء من أوكاره:

ـ ما حال طبيبنا اليوم؟ ليس الفضول والارتباك من شيمه التي عهدناها؟

نفض الدم داخل رأسي. رضوان يقع في شرّ نفسه. عليّ أن أنجو، أن أنفذ العملية الأخيرة وأهرب خارج البلاد. سآخذ ما أحتاجه لعيش كريم في بلاد لا خراب فيها. سأترك ما بقي من ممتلكاتٍ للأيتام ومساكين الحرب. سأنقذ نفسي وأنحو بعيداً عن أرض اليباب، سأطهر روحي التي سودتها الحرب، وأخلقُ نفسي مجدداً. أنشئ أسرة: زوجة وادعة وطفلاً محبوباً...

كان التقزز يغزو كلّ ركنٍ من أركان جسدي. أتحامل على نفسي. أجاهدُ ارتفاع ضغط دم حقيقي يدبّ بين أوردتي. عيناي جاحظتان، وقلبي ينتفض بسرعةً، لكن عليّ أن أنتهي، أن أتماسك للمرة الأخيرة. يجب أن أكون حذراً، فأحدهم التقط بعض نقاء فاض على روحي واحتلها. ثمة بياضٌ ناصع من غير المسموح أن يلجَ عتباتي. الطاقم ينتظرني عند السرير الآخر. تلملم الممرضة

الكتاب والقميص وتجمعهما بحرصٍ بالغ. ها قدماي تتجهان للعملية الأخيرة. أمشي إليها برأس مطأطئ في طريقه للمقصلة. أقف أمام الجسد. آخذ نفساً عميقاً فيما يرفع مساعد غطاء أبيض عن الجثة. وبصورة لا شعورية أتجه بعينيّ لأصابع قدميه. أتفحصها: لا عفونة... لا أثر للغرغرينا فيها. أبتسم لسذاجتي فليس كل الأجساد القادمة بأصابع معطوبة. كانت القدمان لعجوز هرم وملامح الموت تركت آثارها من يباس أو حطام. آخذ نفساً عميقاً من جديد. المطلوب كلية أخرى وأنتهي. أرفع بصري للضوء الساطع أعلى الغرفة وأهبط به على وجه العجوز المخدَّر: أشعر أن العالم صار أبيض. عمي بصري. غشاني ارتجافٌ أرعش جسدي من رأسي حتى أخمص قدمي، يدي تمسك فمي وتمنع إقياءً صارخاً... إنه وجهٌ مألوف!

وجهٌ يمسني...

وجهٌ تجري ملامحه على ملامحي...

دمهُ يمشي في دمي... كان وجه أبي!

أأصمت؟ أأصرخُ... كلي صراخ...

أعلم أن عقاب السماء عسير، لكن ليس بهذه الخسة والحنكة. ليس بهذه الخباثة. كم كان القدر لعوباً... وكم كانت الحياة رعناء حتى ربطت نهاية حياتي بميعاد مذبحة أبي؟

"كل الجروح التي غرزتَها. كلّ الطعنات في أجساد الآخرين صارت رداءً حالكاً. كأنّ كل سنيّ عمركَ، كلّ الجرائم والصفقات والسهرات، كلها لم تكن شيئاً أمام اللحظة الآنية الخالية من الحياة والموت، لحظاتِ الموت الحيّ، أو الحياة الميتة...".

يدا أبي تمتدان لي، مجردتان من كل حياة، ليس في عروقهما الشاحبة نبض. الآن أشعر بمآسي الأرض مجتمعةً فوق رأسي. الآن أحسّ بالمصيبة. بآثارها تشعرني بدوارٍ عنيف، دُوارٍ شبيهٍ بطنين النحل، يئزّ مثل قطيع أسودٍ جائعة. أمسكتُ جمجمتي بين يدي. حرقةٌ مدويةٌ خرجت من قلبي، لكن ما لبثتُ أن شعرتُ ببرودة البلاط تسري بين أوصالي، فوقي رؤوس كثيرةٌ، إلا وجهاً آخر غريباً، بدأ يغيم ويغيب مع غياب الرؤية. ثمةَ جوالٌ يطنّ بإطناب، يكاد صوته ينفذ من أذنيّ وجبهتي. صوتٌ عميق خفي، ذاك الصوت المدبر لكل المهمات في الأعوام الآفلة. جسدي يفقد قدرته على الحركة. شلل زؤامٌ يدهم مفاصلي، على وشك أن أتحول لطيفٍ عابرٍ، لكن الصوت يشدني للحياة، شبيهٌ بأولئك الذين يعيشون هنا. منَ الذين يملكون جبروتاً يفوق علم الطبيب ومقدراته الجراحية.

ها هو يقترب... نظري غبشٌ مغبر، إلا أنني شعرت بأنفاسه تلفح وجنتي:

- لا أمل يرتجى منه... فلنستفد من الجسد الجديد...

تناهت لمسامعي شهقات باقي أفراد الطاقم الطبي. سألت ممرضة بلكنة عربية ثقيلة:

- الآن؟

- الآن، وليس غداً... قالها بحزمٍ وبلا تراجع...

عبر تلك اللحظات، بدأ الضوء يغيب من عيني رويداً رويداً... توقف صوت الجوال الفاجر، رد صاحب الصوت الخفي، أنهى حفلة تعذيبي بسكين عبارته الأخيرة:

"تخلصوا منه سريعاً... اهلا بك مستر الفونس أنتظر مهاتفتك مذ مدة طويلة!".

أرض الأرجوان

-5-

إنها مقدونية الجديدة...

هذا ما قالتهُ آباما راميةً ذراعيها على كتف الملك، أرخت رأسها إليه كزهرة عبّادٍ مائلة. كان الصبح ينبلج، ولم يكن الملكان قد أحسّا براحةٍ صافيةٍ كما اللحظة. قطع انسياب هدوئهما وصولُ طبق مفضضٍ بكأسين من شراب العنب. كان الملك يُنقّلُ أنظارهُ مبتهجاً على شرفة القصر المطل على فساحة لاواديسا. يرقبُ بزخم معجزة رفع الأكروبول وتوزُّع المعابد بين أعمدة الأسواق وأروقةِ التجار ومنازل الباعة. حمّاماتٌ اعتلى الآجرَ الأحمر سقوفَها ومداخن طاولت غيم السماء. تصدّر الميناء الغرب، إلى جانب السور. رست سفن جديدة، بينما رحلت أخرى محملة بأطايبها وخيراتها. وعن بعدٍ بدت بوابة أنطاكية شمالاً وآباما جنوباً مثل فوهتين ضخمتين، تشبهان فمَ أفعوان. تبتلعان أعداد الوافدين والخارجين منهما.

- إنّه حلمي الأثير... صورتي المطلقة عن النعيم الأزلي! قال الملك بهناء ورخاء.

- تبدو مشرقاً هذا الصباح.

هذا ما قالته الملكة عندما استدار الملك وانثنى عن مراقبة جنته، تناول الكأس من يدها. داعبَ بيده الأخرى وجهها.

ـ ذاك إشراق أنطوخيوس، تلك سعادتهُ المحلقة. كلّ ما ترينه أمامك من قلاع وأملاكٍ ومذهبات وحقول، هو جزء من الراحة التي أنشدها منذ أعوام بعيدة.

ـ شكراً للآلهة على كشفها علله وبرئها جسده. سيكونان في سلوقية سعيدين أيما سعادة، ستراتونيكي امرأة طيبة. ستجدهما إلى جانبك سنداً وحليفاً يُخشى جانبه.

أومأ برأسه موافقاً. استدار ينقل ناظريه بين أرجاء حاضرته. لم يكن ليمنع السعادة عن ابنه. لم يتوانَ عن التنازل عن كل نساء الدنيا وأغلى ممتلكات القصور والقلاع في سبيل عودته لقوته وشبابه. لقد شعر مع الملكة بالغرابة بادئ ذي بدء. صدمتهما تلك المشاعر التي خبأها الشابان عن الجميع، أثار حفيظتهما كشف اعتلال صحة أنطوخيوس، لكنهما وجدا بتزويجهما، وسط زفافٍ ملكي مهيبٍ، براءة من نوائبهما ودماً جديداً يمنح السلالات المقدونية سلطات أشمل، وزعامات اتسعت من البحر غرباً وحتى تخوم الهند شرقاً.

ـ ماذا عن ديميتريوس؟

قطعت آباما شروده، فقد طُرِدَ من كلّ الحواضر الشمالية، عاث الفساد في السهول الحدودية. والحقيقة أنّ سؤالها لم يكن خوفاً منه، إنّما فضولاً مشبوباً بالحذر من تبعات تزويج ابنته.

ـ ليس به أمرٌ على نفسه حتى يحكم على ابنته، ثم إنّه خيار ستراتونيكي، لقد صارت سلوقيّةً من اليوم الذي وطئت به سواحل فينيقية. لقد باركتْها الآلهة هنا، ولم يعد لها من الأنتيجونيين سوى دم جدها الممزوج بدمائنا. لا آبه لردة فعل أبيها، ما يشغلني

أفعالـه مـع قواتـه وفلولـه الـتي شـرذمها ليسـماخوس. أفكـر في ابنـه وقواتـه المرابضـة علـى تخـوم تراقيـا. لكـني أعلـم علـم اليقـين أنّـه سيجوع قريباً. سيتحول مجونـه مـع جنـده إلى وحش كاسـر. لـن يجد مالئاً لفمـه النهـم سـوى حواضرنـا الشـمالية وكـروم سـكانها وبسـاتين قروييها.

- وما العمل إذن؟ سألت الملكة بقلق ظاهر.

- عرضتُ عليه شـراء السهول الشمالية لقاء المال الذي سيسندنا. وإن لم يقبل، عرضتُ شـراء مـدن صيدون وصور، وحينذاك، سيتمكن مـن العـودة لعرشـه في مقدونيـا، فيمـا سـأمدّ سـلطة السـلوقيين علـى كامـل مـدن كنعـان حتـى تخـوم بطليمـوس جنوباً.

في تلـك الأثنـاء قطـع قـدوم الحكيـم أمفيـون حديـث الملكين، فقـد أرسـل القائـد ديميتريـوس ردّه بسـرعة غريبـة مـع أحـد جنـده. كان يحمـل معـه أخبـار قيـام الأخـير بالانتشـار والتمركـز عـبر سـهول المفتوحـة علـى كيليكيـا.

- ما عند حكيمنا؟ سأل الملك.

- عمـت صباحـاً ملكنـا المظفـر برضـى السـماء والآلهـة. هـذا مـا جـاء مـن رد ديميتريـوس علـى عرضكـم الأخـير.

أومـأ للجنـدي بفض ورقـة بـرديّ ربطـت بجلد غـزال، أحاطـه ختـم قرمـزي باسـم المتعجـرف الأنتيجونـي. بـدأ الحكيـم بتـلاوة مـا جـاء فيهـا:

"مـن حضـرة جلالتنـا أنـا القائـد المقدونـي ديميتريـوس لملـك سـلوقية نيكاتـور المعظـم...

لقـد وصلنـا عرضكـم وأبلغنـا رسـولكم بمطالبكـم، وحـين دققنـا

النظـر فيهـا مـع كهنتنـا، وجدناهـا مطالـب متعجرفـة ومزاعـم ظالمة ينـز منهـا الجشـع السـلوقي الـذي يبـدو بـلا نهايـة نتسـاءل متـى كان لمدننـا صيدون وصـور أن تتحـول لحواضـر سـلوقية؟ ومتـى كان لكـم فيهـا مطامـع؟ أمـا كفاكـم العـروش والمقاطعـات والحواضـر مـن الشـرق وحتـى الغـرب؟ أم أنّ سـلوقس صـدق كذبـة أنّـه خليفـة الإسـكندر العظيـم؟

وأمّا بعد... فأنا أعلن من عرشي الذي سأستعيده قريباً وقواتي ومرتزقتي أنـي أرفـض عرضـك المجحـف، بـل وإني أشـعر بالندم على وضعـي يـدي في يـد سـلوقس وتزويـج ابنـتي لـه، زهرتنـا الأنتيجونيـة ستراتونيكي تلـك الجميلـة الـتي نقلتموهـا كعبـدة غانيـة مـن مخـدع الملـك لمخـدع ابنـه؟ أهكـذا تعامـل بنـات الملـوك والقـادة؟ وأمـا عمّـا نفعلـه في كيليكيـا فـذاك ليـس مـن شـأن السـلوقيين، وهـو خـارج عـن نطـاق سـلطاتهم وإنـني أؤكـد للمظفـر، أنـي ولـو خسـرتُ عشـرة آلاف معركـةٍ مثـل معركـة أبسـوس، فإنّـك لـن تشـتري يـا سـلوقس صهـراً بمالـكٍ؟".

ابتسـم الملـك إثـر انتهـاء الجنـدي مـن القـراءة. كان الجـزع يمـلأ ملامـح آبامـا:

ـ لطالما كانت العنجهية موطن ضعفه! قال الملك.

ـ ليـس فقـط العنجهيـة، بـل أعلمنـا رسـولنا أنـه وقواتـه يعيثـون الفسـاد شمـالاً ويسـرقون المحاصيـل ويقتلـون السـكان. إنهـم يسـبون النسـاء ويسـكرون كمجـون قائدهـم، ومـا لم يوضـع حـد لهـذا، فسـيصل الخـراب لحـدود أنطاكيـة وحينئـذ سـتصير الحـرب في أرضنـا عوضـاً عـن حدوثهـا بعيـداً عنهـا. قـال الحكيـم بسـرعة مفرطـة.

كان الملك صامتاً، يهز برأسه ويبتسم، فيما على وجهه أماراتُ من ينتظر فأراً ليدخل قفصاً طَافحاً بالجبن.

- ماذا ستفعل يا سلوقس... همست الملكة بحذر.

لكن الملكة الجزعة تتحفّظ على ابنها وزوجته. سألته بصوت مشوب بالقلق:

- أثق بحكمتكَ، لكن لا تنسَ أنه والد ستراتونيكي، مهما حدث فهو والدها، ولا بد أن قلب أنطوخيوس سيَرقّ لحالها، لا أريد لهذا الخلاف أن يحدث شرخاً بين الأب وابنه.

ابتسم الملك لفطنة زوجته، فيما استدار يراقب سير الحياة في لاواديسا. نظر لحكيمه بطريقة مفهومة ونطق بصوتٍ جهوري:

- فليتحضر الجند والقوات للذهاب شمالاً. أما أنتِ يا آباما فلتتهيئي مع الحاشية للرحيل إلى قصرنا في أنطاكية.

❖❖❖

في تلك الأثناء، وعند الظهيرة المشرفة على سوق المدينة، كان شيموئيل يرمي بحبائلِ نقمتهِ ويعدّ الخطط لتنفيذ انتقامه. تلمّسَ جبينه وأطراف حاجبيه. لقد هُشمَ نصف وجهه فصارَ مثل بومةٍ متورمةٍ مبتورة المعالم. عضّ على ناجذيه ألماً، في وقت حاكت مخيلته مشهدَ الانتقام الكبير. سينتظر قدوم جايون لتسليم البضاعة، بينما يهيئ عدداً من رجال السوق الأشداء. وحدهم من يكتم سرّهُ، كما أنّه الخبير بآثار الذهب على ألسنتهم، وسطوة المال على فضولهم. سيدفعهم للانقضاض على بوابة الكهف هناك على الشاطئ، وسيخبرونه بعدد الطمائر ويقدّرون حمولتها. بعدها

سيضع معهم دلائل وعلامات على أغلاها ثمناً تمهيداً لتنفيذ الجزء الثاني من خطته.

كان يجلس أمام عتبةَ دكّانه المستند إلى عمودين شاهقين. تحتل بضاعته من الأصواف والمنسوجات تلك المساحة الحجرية البيضاء. تخللتها كوىً للتهوية وأخرى أكثر مساحة خلف الدكان، حيث جللت الأردية الكتّانية والمصبوغات ذات الأحجام متعددة الجدرانَ مثل فزاعات هائمة في حقلٍ أخضر. رشف شربة من شراب الشعير المهدئ، وإذ همَّ بفتح شفتيه، مرّ من فكّه حتى طول صدغه الأيسر ألمٌ أشبه بسيخ نارٍ، دخل من جانب لآخر. صاح متأوّهاً. أقسمَ وتوعّدَ بالانتقام، إلاّ أنه فجأة، حين لاح طيفٌ من البعيد، أخفى آثار ألمه العالقة بين خديه وفمه. تراءى له وجهٌ حفظهُ عن ظهر قلب، وجه أماليا جميلة السوق، مرت هنيهاتٌ غامت فيها الفتاة بين المارة والحشود، في النسق المعمّد بين المتاجر. رآها تتجه إليه. لم يُخفِ دهشته، إلا أنّ مكرهُ دفعه للنهوض والتحامل على أوجاعه. رسم علَى وجهه قناعَ الواثق، وازدرى كلّ ما يحيط به بابتسامة ماكرة. صاح متهكّماً بصوتٍ تندّريّ شديد السخط:

ـ جميلة جميلات لاواديسا في متجري... يا مرحباً... يا مرحباً.

دخلت أماليا من دون أن تنبس ببنت شفة، أو ترتعش بردة فعلٍ. حفّ رداءه بثوبها برعونةٍ وخبث. لحق بها، وجلس خلف مصطبةٍ من خشب السنديان صُفّت فوقها عيناتٌ مما يحتويه المكان من مشتريات:

ـ ها... ما الخطب العظيم الذي دفع بأجمل النساء لزيارتي؟ أم أنّ العاشق الولهَ أرسل من ينوب عنه بالاعتذار وطلب الغفران؟

كانت أماليا صامتةً، وهي لم تأتِ إليه لتصمت، بل صمتت

بمقدار ما أسرّت لنفسها حول كراهيتها لتلك الكتلة المكدسة من اللحم المترهل. ولكم عذرت جايون، فقد منحها لقاؤها بالتاجر شعوراً بالتقزز، وغضباً راح ينشأ ويتصاعد. كم ودّت لو تمارس بعضاً من قوتها عليه، إلا أن مهمتها محددة، وقد منحت جايون وعداً بتنفيذها على أكمل وجه، ومع ذلك لم تستطع كبح جماحها عن مداعبته بقليل من الهزء والهزار، فقالت وعينها مصوبةٌ إلى وجهه بسخريةٍ لاذعة:

ـ ما حالك يا شيموئيل؟ هل سقطتَ في جورةٍ موحلة؟

تحامل على نفسه موارياً عن الرد. رسم على شفتيه ابتسامةً صفراء، فهو يعلم معرفتها بما حدث، لذا أجابها بدهاء ثعلبٍ:

ـ لم تأتِ الجميلةُ للتحدث عن السقطات والعثرات؟

ـ أحسنتَ إذن... لدي لك عرضٌ مربح.

ـ هاته...

ـ ستأخذ حصتكَ وترحل من هنا... إلى أي مكانٍ تختاره... إلى ما بقي من عائلتكَ في الجنوب أو في صيدون... المهم أن ترحل عن المدينة.

فتح فمهُ في دهشةٍ بالغة، هدر صوتهُ، واتسعت عيناهُ مثل فتحتَي كهفٍ مظلم... صاح:

ـ أرحل...؟ أرحل عن أرضي وأرض أجدادي؟ ثم تابع بخبثٍ:

ـ تعلمان أني أستطيع الحصول على ما أريد من دون أن أترك حجراً واحداً أملكه في هذي البقاع؟

ـ جايون لن يضمن صمتكَ، مثلما لا يأمن غدركَ وتوقفك عن

ابتـزازهِ... خذ ما تشاء وارحل...

ضحك التاجر ضحكة مدوية ترددت بين جنبات المكان:

ـ نعـم نعـم... هـي بقايـا بائـدة فَلِـمَ نخفيهـا ومـا فائـدة طمرهـا فيمـا نعلـم مـا يسـاويه الذهـب المكتنـز فيهـا؟

ـ في صيـدون وصـور سـيدفعون ضعـف مـا سـتتلقاه هنـا. قالـت أماليـا. فكـرت كـم هـو خسـيس ووضيـع وذليـل... ثـم ردت بجفـاء:

ـ ما لدينا لا يخصكَ... ترى من أي الدماء جُبلتَ يا شيموئيل؟

مـدّ يـده بحركـة شـبه ميتـة، وأخـرج مـن جيبـه قطعـةً ذهبيـة. عضهـا بأسـنانه، ثـم تبسـم قائـلاً:

ـ مـن هـذه يـا أماليـا الجميلـة... أخبري فتـاكِ أنّ مـا دون هـذه لا شـيء يهمـني... لا اعتبـار ولا وزن عنـدي إلا لهـا.

ـ إذن لا اتفاق؟

ـ لـن أرحلَ وفـق شـروطكم. أخبريـه أنـي سـأحصل علـى مـا أبتغـي ولـو كلـف ذلـك سـفك دمـاء جديـدة!

ارتعدت أماليـا إذ سمعتـه ينطـق، نهضـت في داخلهـا رغبـة عميقـة للمبـارزة، وقبـل أن تخـرج مـن أفكارهـا كان قـد اقـترب منهـا حتـى صـارَ شبه ملاصقٍ لوجههـا... راح يهمـس مثـل شـيطان:

ـ مـا رأيـكِ لـو تصـير الصفقـة بيننـا... ذهبـاً ومـالاً ثـم أشـار بيـده إلى جسـدهـا:

ـ سأسعدكِ يا أماليا... ومنكِ فقط رأس الغبي جايون...

لم تتمالـك نفسـها، تأجـج غضبهـا لصفاقـة مطالبـه ودنـاءة نفسـه. وإذ رفعـت يدهـا تمنـح شـفاءً لغلّهـا المسـتعر، كان قـد سـبقها رافعـاً

يـده، معلنـاً ألا ضربـة سـيتلقاها بعـد مـا حـدث لـدى الميـنـاء. راح الاثنـان يمارسـان لعبـة شـد الأعصـاب بالأيـدي. عيناهمـا تشـتعلان حقـداً. لكنـه كان محتقنـاً بالكـره، وقـد استولت عليـه رغبـةٌ جامحـة، يـده صـارت صلبـةً عنيفـة، مزقـت رداء الفتـاة حتـى بـرز ثدياهـا ناصعين مشـدودين... بينمـا هبطت الأخـرى علـى تمثـال مـن صخـر، نـزل بـه بـكل مـا أوتـي مـن قـوة علـى رأسـها . أطلقـت صرخـةً شـحب وجهها علـى إثرهـا، وغامـت الدنيـا بعينهـا . انزلقـت مثـل ورقـة يابسـة، فـدوّى صـوت ارتطـام جسـدها بـأرض المتجـر.

حدث ذلـك بلمـح البصـر. وبعـد أن وعـى لأمـره. صحـا علـى الواقـع: كان صـدره يعلـو ويهبـط. عينـاه ثابتتـان. متسـعتان. بينمـا علقـت يـده عاليـا في الهواء مثـل مـن تلقـى تعويـذة جمـودٍ سـحرية.

كيـف نهض إذ ذاك كل مـا هـو قمـيء في باطنه؟ حقده وذلّهُ وغروره، خـرج كل شـيء دفعـة واحـدة. نظـراتُ الاشمئـزاز الـتي تشـعره ككلـب المدينـة المسعور. كلـه هجـم علـى رأسـه دفعـة واحـدة ففعـل مـا فعـل. هـرع إلى بوابـة المتجـر تحسّـباً لدخـول أحدهـم، وبسـرعةٍ خاطفـة، سـحب جسـد الفتـاة علـى أرض الدكان نحـو الفسـحة الخلفيـة. تخفّـى خلـف سـتارة كتانيـة سميكـة، ورمـى بهـا علـى حامـل خشـبي، فيمـا وضـع أذنـهُ علـى صدرهـا وتلمس بأطرافـه سـاعديها:

ـ ما زال الدم يتدفق...

تنفس الصعداء. الفتـاة حيّـة. يجب أن يجـد مخرجـاً للورطـة الـتي أوقعتـه بهـا.

مـرت سـاعاتٌ قليلـةٌ، سـقطت شمـس المدينـة في البحـر العميـق. بـدأت الظلمـة تنشـر غلالتهـا علـى وجـه السـاحل الصغـير. أغلقـت المتاجـر. وخفتَ صـوت الحياة الآفـل. هـرعَ النـاس لمنازلهـم ومعابدهـم،

وعبر ذلك المشهد الليليّ الصامت، لم يكن هنالك من يشاهد فعلة شيموئيل سوى قمر سطع وسط السماء المعتمة. كان يمشي، تسير بغلتهُ خلفه محملةً بشيءٍ ما ثقيل... شيء ما شبيه بجسدٍ ملفوفٍ بأقمشة مصبوغة بلون أصداف الشواطئ الأرجوانية.

❖❖❖

كانت الحيرة تلتهم ما تبقى من وجه جايون وجسده. آثار السهر باديةٌ على محياه. احتل الضيق وجهه، مثل طيرٍ بلا أجَنحة. مضى يومان على غياب أماليا. لم يردهُ عنها أدنى خبرٍ، لعلّ مرضاً ما أجلسها في المنزل، لكنه التقى جاريتها روبين وكانت الأخرى أشد قلقاً وتوتراً.

كانا قد اتفقا على تنفيذ الخطة. أن ترحلَ لإلهاء شيموئيل وتقنعهُ بعرضٍ خُلبيّ. سيمنحهما ذلك الوقت لإخفاء معالم الكهف. كانت مكتنزاته من الكثرة ما يحتاج أشهراً لنقلها وجرّها، لذا لم يلق مفرّاً لإخفائها سوى بسترِ معالم المكان كله. شرعا بالتنفيذ. ذهبت ولم تعد، بينما انشغل بهدم ما يحيط بالكهف، وتغيير كل ما يمنح خصمه علامات للنبش والحفر. هدم الجدُر المتهالكة، ونقل الركام لمكانٍ بعيد. صفف بضعة حجارة بيضاء في أمكنة جديدة. انتزع العشب، وقلّع ما نما من غرسٍ وشوكيات وجذورٍ. مضى عليه يومان عمل خلالهما مثل صنم صامت. حرث المكان بوساطة ثورٍ استأجره لأيام. لكن شعوره بالندم كان يأكله من الداخل. ذهنه مشغولٌ بعشرات الأفكار، والاحتمالات تتوالى وتتكاثف حتى بنَت في بالهِ همّاً أوقفه عن عمله المضني.

ترى أين اختفت أماليا؟ وماذا حدث؟

كان النهار يتسع حتى يفرد ثوبه المضيء على العالم من حوله.

لا بحر ولا سماء. لا خضرة ترطب القلوب. فقط ظلامٌ يظلل قلبه، وحزنٌ كثيرٌ يتسامق داخله. تعاسةٌ تجرح كل مسامة من جسده. كانت الأخبار القادمة من الحاضرة الشمالية (أنطاكية) كذلك الأمر غير مطمئنة. فما بين الحين والآخر ينسلّ أمام كوخه أرتالٌ من جنودٍ سلوقيين. يرحل القادة والجند من معسكرات لاواديسا وثكناتها إلى الشمال. كانت الأنباء تشي بحربٍ سلوقس للإيقاع بخصمه. شاع الترقب والحذر. ضلّ الناس طرقاتهم وخفتت همة أعمالهم، وحتى لحظات الليل المتأخر، كان يتمددُ أرقاً يهذي حول مصير رفيقته، فيما غزت عتمات الليل، خبطاتُ الجند ودعسات المقاتلين الذاهبين لمؤازرة الملك.

أألحقَ بها شيموئيل الأذى؟ كيف سيتأكد أنها وصلت إليه وحدثتهُ؟

عليه أن ينهض. أن يفعل أمراً ما؛ فالضيق يتسع في صدره ويخنقه. لم يعد يمتلك قدرة السكون دونما اكتراث. سيذهب إلى المدينة ويراقب شيموئيل علّه يمسك ما يقوده إليها. سيطلب من روبين أيضاً مساعدته في مراقبة دكان التاجر ريثما ينقل إليه بضاعته.

بضاعته!

جفل من رقاده. لقد نسي أمر بضاعته. نهض نحو الفناء الخلفي للكوخ حيث وضع الأحواض. لقد غفل عن أمر الأثواب التي صبغها مؤخرا. نسي وضع الملح لتثبيت الصباغ. لن تتعشق بعدُ باللون، سيختفي البريق الأرجواني الخافت قبل أن يحل المساء. أمسك بيده قطعةً ونظر إلى العمل. كان في الحقيقة أسوأ ما قام به. رمى به غير مكترث، عليه أن يجلي همومه ويريح سرائره. لفّ

خصائل شعره خلف رأسه، وارتدى ثوباً يكاد يصل لركبتيه ثم زنّر نفسه بحزامٍ متوسط. فكَ إسار بغله واتجه نحو المدينة جنوباً.

أما شيموئيل، فقد كان الآخر مشغولاً، لكن بصورة مختلفة. استيقظ باكراً على غير عادته. عبأ جرة بشربة ماء، ثم لفّ رغيفي خبز جافين منطلقاً نحو الكهوف في البقعة الملاصقة للمكسر يمين الميناء. كانت بعيدة عن الأعين، أخفى أماليا فيها، بعد أن مكّن وثاقها. أطعمها بيديه. أجبرها على ابتلاع اللقيمات الصغيرة، بلا مصير لصرخاتها إلا لجدران الصخر الأصم. كانت تشعر بدوارٍ قاتلٍ، غثيانٍ مستمر جعلها تقيئ على نفسها وعلى أرض المكان من حولها، ففاحت منها رائحة كريهة دفعته للتقزز، وفضلاً عن ذلك، فقد حوم بعض من الذباب والحشرات اللاسعة حول رأسها وكأنها تحتفي بعذابها وتزيد آلامها.

كان قد عزم صباحاً، على إغلاق متجرِه والذهاب مع شابين كتومين حيث كوخ جايون. سينتظر حلول الليل، ويوحي لهما بالكيفية التي سينقل بها أرتال الطمائر الخبيئة في البقعة الخلفية. وفي حال افتضاح أمره، سيحميانه. كان على الرغم مما به من مكرٍ، شديدَ الجبن، يذعر إذا ما تذكر آثار قبضة غريمه وضرباته التي لا يزال طعمها تحت لسانه. انتهى من أمر أماليا، أحكَم وثاقها مجدداً، وخرج يرجرج بجسده المدهن مثل كرة من الشحوم الذائبة. خرج يقود بغلتين معتلياً طرقاتٍ وعرة، سائراً حتى جدران المعبد الكبير هناك، حيث التقى الشابين، فمشى الثلاثة معاً باتجاه بوابة أنطاكية يقصدون الساحل الشمالي.

هذا ما كان من لعبة القطّ والفأر بين شيموئيل وجايون في أروقة لاواديسا. أما سلوقس، فقد كان الظفر يتسلق ملامح وجهه.

خيلاء الملوك العظام تترنح على ملامحه وقامته المنتصبة. لقد قضى بمعركة سريعة قليلة الخسارة على خصمه ـ ديميتريوس ـ، لكن الفرح لحظتذاك كان مضاعفاً، فقد تمكنت فرقة من فرسانه الأشداء من القبض عليه، وها هم يفدون إلى مجلس ملكهم ينتظرون منه الإشارة والأمر فيما سيفعلونه به.

كان أنطوخيوس قد وصل إلى ربوع أنطاكية على عجل. لقد وصلته مساوئ عمه وفعائله، واستنجدت زوجته لحماية أبيها من بطش أبيه. هلعت من تكرار مشهد مقتل جدها، ليصير والد زوجها قاتلاً لأبيها وجدّها، وهو ما لن تطيق عليه صبراً، خرج الشاب من قصور سلوقية شرق النهر مسرعاً، تاركاً زوجته فريسة للقلق والتربص. التحق بمجلس أبيه في تلك اللحظة التي كان الجند يزفون للملك سقوطه بين أيديهم.

كان الجزع بيّناً على سحنته، نظر إلى أبيه مذعوراً، تشوبه نظرات الترجي للإبقاء على حياته. وضع الملك يده على كتف ابنه، وشده إلى صدرهِ بعد أن سدد لعينيه نظرات الثقة والصرامة وهمس:

ـ لا تخف... من قارع مع الإسكندر ووقف في وجه بطليموس لن يخسر وفاق ابنه وزوجته...

تنهد الشاب الصعداء مرتاحاً، فقد كان طوال الرحلة يرزح تحت ثقل مقتل والد زوجته، وكان في سرهِ لا يأمن الوقوع في قلب ذلك المأزق العسير، وها هو والده كما دوماً، شامخاً بحكمته ووقاره.

ـ للملك أن يمنح الدروس في الحكمة والظفر، أن يكسب الأعداء ويفتح لاسمه أبواب المجد السبعة...

خرج الملك عن همسه آمراً بصوتٍ جهوري:

- فليسرج الجند حصاني، وليتهيّأ الجميع لاستقبال القائد ديميتريوس. لم يكن القائد أسيرنا، بل سنعامله نسيباً وقريباً، ونقدم له ما يُقدَّم للملوك العظام.

دهش الجميع لقرار الملك، ذُهل الحكماء والكهنة والشيوخ، وحتى العبيد. نظر أنطوخيوس نحو أبيه بإعجابٍ منقطع النظير، ذلك الإعجاب الأسطوري بالرجل الذي لم يزلَّ ولم يخطئ أمامه يوماً، تمعّن فيه وقلبه مملوء بالبشر والغبطة، ولما صحا من مآلات عشقه لأبيه كان الجميع قد خرج خلف الملك. تماسك مجدداً ووضع يده على سيفه وجرى خلفه.

عند التخوم الشمالية لمدينة أنطاكية، تلك السهول المفتوحة على الشمال الأخضر، كانت الحشود تتدافع والجند ينظمون الممرات لعبور القائد الأسير. تصدّر سلوقس المشهد إلى جانب ابنه وحكيمه تتبعهُم حاشية من المقربين والعرافين والكهنة. خطوة... خطوة... كان ديميتريوس يقترب. تعلو وجهه نظرات صقر أسير. طأطأ رأسه وانحنى ظهره خجلاً من كرم نسيبه. خفض نظره، وتمنى لو يخفيه بين يديه من نظرات المنة الحارقَة. في لحظة وصوله، هبط القائدان عن صهوة حصانيهما؛ سار سلوقس بثقة فارسٍ فاتحاً ذراعيه، فيما تمنى ديميتريوس لو تبتلعهُ الأرض مشيحاً بوجهه.

بقي الناس سنواتٍ طويلة، يتذكرون الحادثة، وذلك الانتقام الأسطوريّ. حتى بعد رحيل الملك سلوقس، ظلت الأحاديث في مدن أنطاكية ولاواديسا إلى تخوم سلوقية تتحدث عن نهايته، فقط طوى التاريخ صفحاته على اسمهِ. أُرسِلَ إلى حاميته في مدينة آباما[25]

25 آباما: قرية وقلعة في أطراف مدينة حماة حالياً، وسط سوريا. كانت تدعى أفاميا لفترة طويلة وقد أسماها سلوقس نيكاتور تيمناً بزوجته الفارسية.

جنوباً، حيث معقل السلوقيين العسكري، وحيث أُحيطَ بأكثر من ألف جندي وحارس...

هناك بين ربوع آباما وقصورها، أمضى ديميتريوس آخر سنوات حياته يشرب ويسكر ويتغنى بأمجاده الآفلة.

أميمة

هكذا كنتُ أكتب عنكِ...

رأيتكِ تهبطين إليّ، وكانت عطور الزهر الممزوجة بالزيت تعبق بأنفاسي، ملأت الدبابيسُ وملاقط الشعر والأمشاط صناديقكِ العاجية. كانت أصباغ شفاهكِ وخديكِ الحمراوين تفوح برائحة السلقون وجذور نبات الشنجار. رأيتكِ بحاجبين كسياجَين مضيئين، وأما الأهداب فقد كُنَّ يسودْنَها ويطلينَها بمساحيق الأفحام والإثمد. كانت النساء يرششن ذراعيكِ وساقيكِ بزيت المصطكي، تعرّق الجميع إلاكِ. كنتُ غارقاً بالشده والبلل، وكنتِ غارقةً بالضباب والنعيم والسحر، وعندما نظرتِ إليّ، راحت نسوة أخرياتٌ يدهنّ وجهكِ بمراهم النخيل ويدلّكنَ عنقكِ.

تطلّين بملامحكِ الشتائية. تطفو على وجوههن ملامح أم أو حبيبة، أما أنتِ فيكسو شتاء قديم تفاصيل وجهكِ. ليس من الآن، ربما من سنين طويلة مضت.

يعود صباحكِ البحريّ الأول؛ يوم وجهكِ الذي سلبتهُ طقوسكِ المتعالية، إلا أنكِ تجيئين بزرقة سماواتكِ المفتوحة على تأخر أفراحنا. يطلّ زمنٌ جديدٌ: تنهضين فيه من سباتك، لتودعي نوم السهرات الآفلات. تنقرين بأصابعكِ على عتباتنا الخائبة، فنخرج من أوكارنا؛ نحن الجوعى لمائكِ. هو صباحكِ. وصباح كل

من أحبك وعبرك، فكما للعشاق لياليهم، كذلك للمدن الحييات مثيلاتك صباحاتها...

هو مطلعك الأرجواني، مسرى الصبية النهّابة التي ما فتئت تسرق أقراط جدتها، وتنحو إلى الزرقة لتتحلى بالمواعيد المبهجة. هو يومك الحريريّ: يقصّ لقامتك الشريط، ويدفع بك لتخطين دعساتك الأولى نحو الحياة، ليس فقط في تلك الهيئة التي تخرجين بها علينا، وليس في سهوك الجامح نحو العالم المجحف، بل في شدوك اللائب كمدينة لا تعرف نفسها، ولم تحظ يوماً بمرآتها. تكتفين بالسير نحو أبعد طرف من العالم، تكتبين نفسك بأصابع من ماء، وتجلسين أسفل الشطآن قريباً من قلبي مسافة جدارٍ... وبعيدةً بعدَ نجم.

تعودين فتعيدين ملامحَ سوّدتها النوائب. تمضينَ كما طفلة تنفث فقاعات الصابون، تنظرين لقلبي باتساعٍ مفرط، فيحبو إليك ببشاشة رضيع يذوق طعم لهفته الأولى... تبحثين عن الكتابة التي تأخذ الحبّ حبراً، فتقطرين ماء بدل الكلمات، لكنك تظلين واضحةً، بسيطة: تودعين حمأة الجباه اللاهبة، وتقبضين سمرة الأجساد المعروقة ولهيب الشوارع الخانقة. ترمين تخمة العربات في سلة المهملات وتخطين نحو أزرقك المتسائل عن حاله، نحو أفول الجزع والحرائق. ولكم تأخرت صباحاتك. ولكم بدت بعيدة بعيدة. لكنك تخرجين من لباسك، وتهطلين علينا بوجهٍ يخلق الكلمات كما يُخلق الصباح، كما ثلوجٍ نقية تساقطت لتوها على الجفاف...

إبراهيم ناصيف

نوفمبر_2009

أرض الأرجوان

-6-

يرسم القدر ألاعيبهُ بمكر الثعالب ودهائها. فحين مضى شيموئيل ورجلَيه نحو طمائر القرية البائدة، اعتلى جايون بغلتهُ متجهاً إلى سوق المدينة. كلٌ ينحو وجهته من دون أن يعي عبثية مطلبه؛ الجشع يقود التاجر للسرقة، غيرَ عالمٍ بما ينتظره من ضياع وخيبة. بينما دفع القلق جايونَ لمراقبة شيموئيل، من دون أن يدركَ الآخر ما يُقدر له من مكائد وشيكة.

كانت السعادة تشرق على محيا التاجر، خيالاته تسرحُ بما سيجنيه من بيع في أسواق صيدون وصور. الشمس ترتفع مثل الأشياء التي اعتادت التواجد في تلك الساعة: الشمس، والبحر، والخضرة، والبساتين، كما القرى الناهضة من أَسرّتها نحو صباح جديد، ترفع أعناقها لاهفةً للحياة الجديدة خلف أسوارٍ عبرها جايون، قاصداً سوق المدينة. كم كانت خيبته كبيرة إذ ألفى المتاجر تشرع للحياة، باستثناء غريمه الذي أغلق دكانه كما قلبه المطفأ...

بدأت الشمس ترتفع، مضى الوقت عليه مثل سيفٍ باترٍ يقتطع في كل لحظة تمرّ جزءاً من راحته. يا لذلك الضياع المشتت وتلك الخيبات الهائمة. يا لتلك النظرات المكتسية بالحزن. كان يقف مثل مسافرٍ أضاع وجهته وسط صحراءٍ مقفرة.

أين سيذهب؟ أين سيبحث عنها؟ كيف سيتصرّف؟

دفعهُ حزنهُ ليقسم على بترِ كل ما يربطهُ بماضيه المؤلم، سيطمر أحزانه، وينسى حقدهُ والبلاد الهاربة من بين أصابعه. لن يفكر بعدُ بحياته الغابرة، بل سيكتفي بأماليا. كان صدرهُ في تلك اللحظات عامراً بالشوق، كان شوقاً مدمراً قادراً على محو كلّ ما في ذاكرته من حكايات وأحداث، إلا صورتها وشكل الحياة القادمة معها. أراد أن ينتهي كل شيء، بلغ به العالم الذي طالما حملهُ على كتفيه ثقيلاً، ناءت به أمانيه ورغباته حين حلم بحظوة العيش معاً في أي مكانٍ، ولو كان جزيرةً بعيدةً عن هذي البقاع الخربة. أسقط كلّ أمرٍ في يده. بدا مثل جسدٍ معلق في الفضاء، لا حسّ به ولا شعور، ما خلا ضيقٍ سلبَه القدرة على التنفس، وبعد مرور وقت ثقيلٍ، لاحت روبين وقد غزا الذعر نظراتها. ما إن لمحتهُ أسرعت إليه لهفة، أمسكت ذراعهُ وانسابت الأسئلة من شفتيها وقلبها.

- لم تظهر سيدتي... ها قد مرت ليالٍ على غيابها...

سألت الجارية وهي تحاولُ تفسير الصرامة التي غشيت وجهه. تلفتَ حوله سائلاً:

- روبين؟ يجب أن نبحث عنها... لا خيط يوصلني إليها. أظن علينا مراقبة شيموئيل وعليك أن تساعديني في ذلك.

هزت رأسها موافقة. بلعت ريقها تبعاً لإحساسها بأنّ ثمة أمراً ما كبيراً سيحدث قريباً.

- تأكدي... لو حدث مكروه لي أن تتبعي شيموئيل. سأرحل وأعود عند المساء لربما أحظى به في داره. انتظريه ههنا ولا تفقدي أثره حتى مغيب الشمس.

تركها في ساحة السوق الكبير تتخبط بظنونها، واتجه عائداً نحو الشمال قاصداً كوخه.

❖❖❖

في القصر الأنطاكي، كانت المكائد تُحاكُ في مكان خفيّ: أخرج ماردٌ مقدوني رأسه من تحت التراب، استل سيفه وأعلن الحرب على سلوقس. كان التراقي ليساخوس يطلب رأسه أملاً باستعادة عرش الإسكندر. أما سلوقس، فقد بلغ من العمر عتياً، ورغم ضعفه الجسدي، إلا أنّ في داخلهِ إدراكاً معتدلاً إزاء نفسه. ذاك الإدراك الذي يصيب التنانين بعدَ هرمها أو الأسود ذوات الباع الطويل في القتال. لقد شعر بجوارحه تسكن وبهمتهِ تهمد، صار بعد أسرِ ديميتريوس غير راغب بالقتال. مر ببضع مَناوشات بين معسكرات وجبهات متعددة، لكن إعلان ليساخوس من جبهات تراقيا وفريجيا أخرجه من فتورهِ. خرج لملاقاته وسيماء الموت تطفو على ملامحه.

في تلك الأجواء، كان يعدّ العدة لتجميع صفوف فرسانه. ناقش مجلس حكمائه وكبار كهنته حين دخل الحكيم أمفيون والذعر على محياه، وقد سبقت اللهفةُ قدميه وتقطرت جبهته بعرَقٍ كثيفٍ. خرق صوت تنفسه جدران القاعة الملكية، وصمّ آذان السكون فيها. جرع رشفة ماء، فهدأت نوازعه وصاح بصوتٍ يشوبه التحذير:

ـ حكاية ليست في الحسبان ملكنا المظفّر... لستُ أدرك خيرها من شرها!

ـ تماسك أيها العزيز أمفيون... انطق بها...

ـ هو ضيفٌ أثار قدومه استغراب الجميع في الميناء، لست أدرك

صحة غايته، لكني بعد تأكدي من هويته سبقته إلى مجلسك حتى تعدّ العدة لاستقباله...

ـتحدث أيها الحكيم... ما اعتدت منك مقدماتٍ.

ـ هو "بطليموس الصاعقة" ابن ألدّ أعدائك... ملك مصر!

شُده المجلس بأكمله، حتى الملك الذي أبهر الجميع برصانة ردات فعله، فوجئَ بالأمر. فمذ مات الإسكندر وتقاسم الورثةُ تركتَهُ، لم تطأ قدمٌ بطلمية واحدة أرضاً يحكمها السلوقيون.

ـ لا ريب أنّ ثمة نبأً عظيماً وراء مجيئه...

أومأ الحكيم وتابع لاهفاً:

ـ لكن حسب ما توارد لي من أعواننا في الميناء أن خبر قدومه لم يعد غريباً... يقولون يا سيدي إن الشاب أتى إليك لاجئاً!

ـ لاجئاً... صاح الجميع.

ـ هل انشق عن أبيه؟ سأل الملك بغرابة وذهول.

ـ نعم أيها المبجل... يقولون انشق عنه وجاءك صديقاً وحليفاً طالباً حمايتك!

ـ أينشقُ وريث عرش قوامه قوافلٌ من الياقوت والذهب والفضة؟ لم فعل ذلك بنفسه؟ انطق يا أمفيون؟

ـ بسبب النساء، كما وصلني أنّ خلافاً نشب بين والدته "يوريديكي" وزوجة أبيه "برنيقية". يقال إن الثانية كادت له ورسمت الدسائس حتى أقنعت الملك بطليموس بطرد ابنه وعزله عن وراثة عرش البطالمة، وبالطبع كانت غايتها ترك كرسي العرش شاغراً ليشغله ابنها لاحقاً.

صمت الجميع كأن على رؤوسهم أسراب من القلق والهمّ.

ابتسم سلوقس، رأى بعينه تضافر الظروف التي ستوصله لعرش الإسكندر، لتحقيق الحلم. سيصل عرش مقدونيا عبر لجوء ابن عدوه، سيلاقي خصمه ليسماخوس شمالاً، وبعد انتهائه منه سيصل أرض مصر بدعمه لبطليموس الشاب. ها هي أبواب حكم العالم مفتوحة على مصراعيها . ستبقى سواحل فينيقية لحكم ابنه، فقد صار آهلاً لذلك، لكن أن ترسم له الآلهة تلك الطريق لدخول أرض مصر؟ فتلك مناسبة عظيمة لم تكن في الحسبان! لكن سلوقس الذي قارع الحروب والمعارك والقادة، فكر جيداً قبل أن يبتسم في خلده. رسم صورة استغلاله الشقاق بين الأب وابنه. قرر بسرعة خاطفة استقبال الشاب باحتضانٍ أبويّ، سيقدم له أدنى مساعدة يطلبها، إلى أن تفتح الأقدار له بوابة العبور نحو الأراضي الجنوبية.

- فليخرج الجند وكبار الكهنة لاستقبال ضيفنا، ولتنصب خيام الولائم وتذبح النعاج وتشعل النيران تحت القدور ترحيباً به. ضيفنا هدية من الآلهة وعلينا إكرام ضيافته.

- لكن يا مولاي! صاح الحكيم مذعوراً.

- ما عندك يا أمفيون؟

- هل تراها خطوة حكيمة؟ أن تؤجج غضب خصم صلد كبطليموس؟ أبعد مضي كلّ تلك السنوات تشعل حرباً جديدةً؟

- ألا يثق حكيمنا بقرارنا؟ ألم يعهد منّا حنكة في البتّ والحكم؟

أطرق الحكيم على استحياء. أخفض رأسه كاظماً لسانه فيما اشتعلت الافتراضات والتوقعات في رأسه الأشيب. كان صمته إكراماً للملك الذي لم يُخطئ يوماً في حكمه. ساد الصمت ثقيلاً، إلا أنه

نطق قائلاً:

- إذن فلنفعل ما أمرنا به ملكنا المظفّر... سنستقبل خصمنا خير استقبال ونبقيه بيننا كسلوقي عتيد ونعامله معاملة أبناء الملوك حتى نتبين حاجتنا فيه.

❖❖❖

هذا ما كان عليه الحال في بلاط الملك، أما في لاواديسا: فقد بدا جايون على حاله، صريع القلق والتوتر، عندما ظهر شيموئيل يعضّ شفتيه حنقاً على خيبته. شعر كمن يُرمى بجبلٍ جليدي عندما اكتشف اختفاء معالم الأرض المحيطة بالكوخ. حُرثت بأكملها، وفعلَ بها ثورٌ ما يُفعل بالسهول المخصصة للزراعة. فقدَ صوابه. لا أثر لتلك الآثار والمعالم الهزيلة، لا وجود يتضح لأكباش الصبار والشوكيات المعرشة على الأعمدة المائلة. أين الفتحات الصخرية؟ أين الركام والردم المحيط بمدخل الكهف؟ كيف اختفى الغبار الذي ملأ البحر بنفحات زمنٍ غابر؟

إذن فعلها جايون؟ أوقعه في شرك التخبط والضياع. كان دمه يغلي. وأفكاره تسافر في رأسه، فيما رسمت الشمس على وجهه معالم الغباوة والتشتت. كيف له أن يكتشف فتحة الكهف؟ هل يحضر ثوراً ويقلبها رأساً على عقب؟ حينئذ سيضطر لكشف سرّه ليشاع أمر الطمائر ويصل سكان القرى المجاورة. ستصير كل قطعة إرثاً مباحاً...

كان الغيظ يأكل وجهه الدهن، ولسانه يعض على شفتيه ساحباً أذيال خيبته. حنجرته تخفي حنقاً عارماً. ولكم تمنى في تلك اللحظات لو يغرز سكينه في قلب جايون. لقد جعله أضحوكة!

ولكن... هيهات... شيموئيل لا يستسلم، وعلى الرغم من الغضب المشتعل في صدره، فقد عقد مع جماعة جديدة أمراً آخر يتجاوز كل ما في القرية من كنوز، ويتطاول فوق عروش المدن والحاميات.

سار على بغلته وخلفه رجلان صامتان. مشيا خلفه كظلّه، يكتمان كل ما يضطرم في داخلهما من أسئلة، وعند أطراف المدينة، صرفهما بعد منحهما مالهما. حرص على إخفائهما بين الحشود المكتظة أمام بوابة أنطاكية، ثم استدار عائداً يقصد شرق الأسوار لملاقاة حليفٍ جديد وصديقٍ من نوعٍ مختلف عما تحويه سواحل فينيقية...

هناك عبر مساء ذلك اليوم، كان ثمة لقاء غير عابر سيُعقد ويُبتّ بينه وبين بطليموس الصاعقة!

ابتسم في سره وهو يتجه لوجهته، وحين أبصر جايون بين الجموع، أسرّ لنفسه أن انتقامه في مثل تلك الساعة سيكون عظيماً. سيساوي أضعاف ما فعله به. كان غيظهُ مشتعلاً، فحرمانه من تلك التركَة دفعه للشعور بالحنق. ولعب دور المظلوم المنهوب، بل زيادة على ذلك اعتباره جايون الحائل الوحيد الذي يُمعن في منع السعادة عن طريقه.

كان يرغي ويزيد، فمهُ المملوء باللعاب يطفح غاضباً يكيل الشتائم. يتوعد بالانتقام، وفي اللحظة التي مرّ جايون لاعباً دور المهمل لوجود غريمه، نهض حانقاً، بينما جلل الأسى وجه الشاب ودفعه لفعل أي أمرٍ لمعرفة مكان أماليا. اقترب كبرقٍ ممسكاً ياقة ثوبه، حين انتفض رجالٌ تستّروا بين المارة مثل أسودٍ سبعة. هرعوا لنجدة شيموئيل، لكنه أومأ لهم بالابتعاد. أشار لخصمه بدخول دكانه، ولما ألفيا نفسيهما وحيدين سأل شيموئيل:

ـأعذرك يا جايون... فللقلب سطوته وللشباب جموحه...

ـ اخرج من هزارك أيها اللعين... أين هي؟

ـ ماذا تقصد؟ آها ... الكنوز والطمائر أم آثار قريتنا البائدة التي اختفت كما لو أن الآلهة قد لعنتها؟

ـ بل أماليا يا شيموئيل؟ ماذا فعلتَ بها؟

ـ الجميلة؟ تقصد ابنة الراحل بارسينو؟ فلترحمه الآلهة.

كان يدور حول منصة متجره الخشبية ببلادة وتهكم، الأمر الذي استفز النيران في قلب جايون، لكنه استعاد لأجل أماليا ثباته، وحافظ على هدوئه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ـ أين هي يا شيموئيل؟

ـ لن أخبركَ بمكانها حتى نتفق...

ـ إذن... أنت من أخفاها؟ صاح الشاب غاضباً بصوت يغلي...

ـ أي أذى سيلحق بي لن تخرج من هنا حياً يا جايون... كان صوته يحشرج مشيراً لرجاله السبعة، قبض جايون على رقبته وأركعه أرضاً.

ـ ماذا ستصنع لو قتلتني؟ كيف ستنقذ رفيقتك؟

هدأ الشاب حينذاك، همد روعه إذ تخيل صورتها مربوطة مثل نعجة في أحد الأقبية أو المنازل العفنة الرطبة.

ـ أين مكانها قبل الاتفاق؟

ـ هي خارج المدينة... بل بعيداً خارج حدود أنطاكية شمال النهر!

شهق جايون:

- كل تلك المسافة أيّها النذل؟

- هدئ من روعك يا صديقي ستحصل عليها سالمة عندما نتفق...

- على ماذا؟

- أدلك على مكان أماليا فتدلني على مخبأ الكنوز والطمائر...

- أماليا أولاً.

- هي لك إذن...

-كيف سيحدث؟

- بعد أسبوع. سيخرج موكب الملك المظفر عبر بوابات أنطاكية مع كوكبة من جنوده، ستودعه أنطاكية بأسرها وهو خارج لاستعادة عرش مقدونية. سيبدأ المسير صباحاً. سيرحل لينصب من هناك ملك الملوك.

- لن أصبرك أسبوعاً بحاله، ثم ما دوري أنا في كل ذلك القرف الهيليني؟

- على رسلك... باعتباري من زعامات التجار في المنطقة سأخرج مع موكب الملك وأدلك على مكان جميلتك في بقعة نتفق عليها خارج أنطاكية. أسلّمها لك فتدلني على مكان الطمائر.

- وكيف أستدل على مكان اللقاء؟ أين يكون؟

- لن تضيع يا شريكي... غرب النهر الكبير يوجد مذبح قديم، ستقودك قدماك إليه. بين غاباتٍ كثيفة. سنخيم في ذلك المكان مع حاشية الملك ليلاً، وعندها سأسلمك مطلبك.

غمر طيفٌ من الشك قلب جايون المسكين، شعورٌ بالأسى يكظم غيظهُ ويلجم يده عن قتل شيموئيل. لقد شعر بكثير من الغبن كما لو أنّه طريدة تتخبط داخل شباك صياد خبيث. لا فكاك له إلا بمطاوعته. هل سيفضي ذلك الاتفاق إلى موت؟ فليكن... إذا ما كان في سبيل أماليا، فهو لن يتوانى عن تقديم دمه قرباناً لعودتها.

- إذن موعدنا بعد سبعة أيام غربي نهر أورنتوس؟ سأل جايون

- لا بل عليك أن تسبق الموكب... اخرج قبل ميعاد دق الطبول بيومين، قبل أن تطلع الشمس على قصور أنطاكية...

- ستجدني يا شيموئيل... أعدك أننا سنضع حداً لهذا الهزار... قالها غاضباً وهو يهرول بعيداً عن السوق.

ابتسم شيموئيل. رسم على ملامحه فرحاً أبوياً ماكراً، بدا كصياد يتحين وقوع طريدته بين يديه. تذكر مهمته، والرجال السبعة الذين ينتظرونه في الخلف. سوّى ثوبه الممزق، وخرج يدعوهم إلى دكانه واحداً تلو الآخر. أخرج رأسه فبان السوق خارجاً على حاله... لا أحد يراقبه.

أغلق بوابتهُ بحذرٍ، واختفى الجمع في الداخل...

وكر الحمل الوديع

ما لم يتوقف عن فعله يوماً، كلما أرادَ الكتابة لي كتب عن المدينة؛ عن الزرقةِ والبحر والشتاءات الطويلة. لم يعترف بصيفها، كان حين تدهم الشمس والحرّ، يغادرها إلى قريته الغسانية. يلملم أشياءهُ ويهرب صائحاً: **"الصيف لعنةٌ على هذه المدينة، ربما كان غلطةً لم تتمكن الآلهة من التكفير عنها..."**.

أمرّ بحديقة المارتقلا، أنظر نحو كنيستها ومدفنها الأثري. لديرها الذي ردم وكُشف ثم رُدِمَ وكُشفَ حتى آلَ لما عليه. نصبٌ بائنٌ يخبر قصتها للعلن، دون أن يترك المجال لموارَاة حكاية الراهبة التي هربت إلى اللاذقية قبل سنواتٍ غابرة. أحملُ نفسي بمشقةٍ بالغة، ولا شيء آخر سوى حقيبةٍ صغيرةٍ بحجم قبضة اليد، تحوي جوالاً خارجاً عن عصره، وبضع أوراقٍ نقديةٍ ومفتاح الشقة في الدور الأرضي مقابل ساحة القديسة. وصورة إبراهيم، جرحي وقهري، يُتمي وأمومتي وأبوّتي، صديقي وحبيبي. إبراهيم الغائب: كان فرحتي ومصيبتي وثلة حسراتي وابتهاجاتي، جامع كل تناقضات العالم بمعولهِ وزارعها في قلبي.

أقطعُ ساحة الثامن من آذار، صخب الذاهبين والعائدين يصمّ وجه السماء. تمر الأبنية الشاهقة كماردٍ مهول، فيشعر المارة بقزامتهم. تغير وجه المدينة، بل تغير العالم كلّهُ حين اختفى وغاب. سبعة أعوامٍ على تلاشيه من الوجود، وما زال اسمه يقتطع من

القلب مزقاً كلما رنت أصداؤه بين حنايا جسدي. تغير الناس أيضاً، لم يعودوا على عهدهم، مذ قامت الحرب، صارت سحناتهم السَّكرة تمنحُ الأمكنة ملامح الغربة. بعضهم جاءها زائراً، خالوا أنهم سيقطنون صورتها المرسومة في مخيلاتهم، إلا أنها باغتتهم بأسمالها البالية ومعدتها المقرقرة وجسدها الناحل. أقطع المقاهي، أنزل عبر حيّ الأميركان المتعالي على باقي أحيائها . يتطاول بفخامة دُوره وأناقة عماراته اللامعة، إلى جانب واجهاته البلورية، ومقاهيه المزدانة بالتصاميم العصرية:

"تُرى... كم كان من أطلق عليه هذا الاسم يرى به من الأمركة حتى دعا حياً لا بأس بمساحته بمثل ذلك الاسم في مدينة كاللاذقية؟" هذا ما كان يقوله إبراهيم ساخراً كلما مرّ عبر الحيّ الذي يصلني بمكان عملي.

أصلُ أمام مقهى الكازينو، الفندق الذي زاره كبار الفنانين والرسامين والكتّاب، تلفحني رائحة البحر وريحه... أتذكر حنا مينة، لا يكاد يمر يومٌ أمام الفندق دون أن يباغتني اسمه وروايته التي أمضى أبطاله قصصهم بين غرفه وشرفاتهم المشرقة. أتذكر صوت إبراهيم يقلدهُ هادراً في أذني:

"أنا الطفل ابن المدرسة، حامل الشهادة الابتدائية، أجيرُ الحلاق كسرتُ بيدي الاثنتين قرميد بيتنا، وبالفأس خربت الجدران وقطعتُ التينةَ، كي لا أترك الأشياء للأعداء من بعدنا...".

إنّه الشتاء، وقد تأخر هذا العام كما تأخرت الأفراح. بدأت سيمفونيات المزاريب، ولاحت تباشير الغيم القادمة من نواحي قبرص والجنوب، هرولت لابتلاع المدينة، وفي مثل تلك المشاهد العائمة كان لا بدّ لوجه إبراهيم أن يغزو كلّ التفاصيل. لا بدّ لصوته

وزحمة ملامحه أن ترافق وهج الشتاء الرمادي، وصوت المطر تحت عجلات السيارات وبلور النوافذ.

يباغتني صوته فأختنق...

أصلُ مكان عملي مقابل حديقة البطرني، حيث أشتغل موظفةً في المتحف الوطني. أُلقي السلام على العتبات التي داستْها قدمه في يوم ما، وأقطع الباحة المستطيلة التي تعود لأربعة قرونٍ، عندماً كان الأحياء حينذاك يسمونها خان الدخان. حدث ذلك قبل أن تستولي السلطات الفرنسية عليه وتحوله لمبنى من نوع آخر. تطالعني ضخامة المبنى وحسن هندسته كما تناسب عناصر عمارته. ينتصب مثل سيدٍ رفيع أمام الفنادق والمقاهي من حوله، وينظر مَترفّعاً بعينين متعاليتين إلى مرفأ المدينة. ألقي السلام قبل الدخول على تمثال دوريفوروس[26]، إلى جانبه تمثالٌ لبعلٍ الكبير، أتذكر صورة إبراهيم وحركاته البهلوانية التي تقدس ما عبدهُ اللاواديسيون قبل عشرات القرون. ذراعه مثل طوق نجاة تلتفّ حول صلابة صخور المتحف، يده التي ذقتُ حلاوة أمانها من اليوم الأول حيث التقيتهُ ههنا.

كان زائراً قديماً وكنتُ الموظفة الجديدة، وقد دخل مثلَ حاكمٍ لكلّ الأمكنة، ألقى السلام على الجميع ودلف بثقة العارف. في ذلك اليوم المارّ مثل شريط سينمائي، كانت الأمطار قبل خمسة عشر

---

26 تمثال دوريفوروس: تم اكتشافه في اللاذقية في منطقة الصليبة قرب جامع غريب، وهو يمثل دوريفوروس (حامل الرمح) نموذج شاب يحمل رمحاً بيده اليسرى ويتصف بالقوة والجمال. يعتبر هذا التمثال من أشهر نماذج العصور اليونانية القديمة الكلاسيكية والذي صممه النحات اليوناني العظيم بوليكوليتوس في القرن الخامس قبل الميلاد. كان يوضع أمام الأبنية الرياضية التعليمية للإغريق والمسماة الجمنازيوم. ونسخة تمثال اللاذقية كانت على الأغلب تنتصب أمام الجمنازيوم في المدينة. ما يوجد في متحف اللاذقية هو نموذج أما الأصل فهو موجود في متحف دمشق.

عاماً تجلل المدينة كما الآن، تُغرقُ تماثيلها حتى أوشك صخرها يضمحلّ. كان يومي الأول في عملي، وكنت منزوية خلف طاولتي حين دخل بلا مظلة، بعد ذاك علمتُ أنه يعتبر المظلات أداة تهين آلهة المطر. نفض عن كتفيه آثار الماء، وَرفع بصرهُ نحوَي محدّقاً دونما توقف. تسمّر كتمثالٍ جامد. شعرتُ بنفاذ نظراته إلى عيني وتلافيف دماغي، شعرتُ بتلك العينين السوداوين تستطيعان رؤية قلبي والنفاذ بيُسرٍ لأعمق نقطةٍ فيه. بعدها مرت ثوانٍ قليلة، توقف العالم عن حركته. خطا ناحيتَي خطاً سريعة واثقة، فيما حقيبةٌ سوداء تحت إبطه، وسيجارٌ ثخين أصابه بسعالٍ مفاجئ قبل أن يبلغ طاولتي:

- أنتِ جديدة هنا؟

- نعم... هززتُ رأسي بعد أن وقفتُ وحياء العذارى يتملكني. صوته لا يزال طازجاً... طرياً... حين ابتسم بكل عضلة من عضلات وجهه وقال:

- إذن على المكان، بما فيه من عظمةٍ، أن يتحمّلَ وطأة جمالك.

قال ذلك وانسحب سريعاً إلى القاعة الأولى، قاعة آثار الشرق القديم. فيما تركني أغالبُ حمرة وجهي واضطراب أحشائي.

علمتُ بعدها من هو إبراهيم ناصيف. عرفتُ من أحاديث الآخرين عن الرجل الذي يزيدني بعشر سنوات، وبشغفه في التاريخ وتعمقه به. عرفتهُ من صدى اسمه ووقْعهِ أثناء التحضير للمعارض والزيارات الثقافية، ولم أكن أنا الغضة، ابنة الخمسة والعشرين عاماً - التي حصلتُ على شهادتي الثانوية بمشقة نجاحي لانتزاع اعتراف أبي بي - قد سمعتُ به لولا مساعدة أحدهم لتوظيفي

لصالح وزارة الثقافة. ومن يومها بدأت رحلتي معه، حيث كان عملي في متحف المدينة التي جهلتُها مثلما جهلتُ نفسي:

"لجمالكِ شبهٌ كبير بها، كلاكما لا يدركُ لغته وقيمته، لا مجال لوصفه إلا بريشة رسام أو أصابع نحّاتٍ أو قصيدة لشاعرٍ بعينٍ لاقطةٍ".

هذا ما كان يردده، فيما كنتُ أعلم من أنا. أردد بيني وبين نفسي: **"أين الثرى من الثريا؟".**

كنتُ ابنةَ الفقر واليُتم والقابلة "سنيّة" التي ولدت نساءُ المدينة على يديها، لكنها فشلتْ في منح ابنتها اسم أبيها، حتى بعد أن مُنحتُ اسمه، كنتُ قد كبرتُ، وعرفتُ أي كائنٍ متطفلٍ على الحياة جئتُ. لكن سنية التي احتال عليها ابن عملاق السوق، علمتني كيف أخشى تلك الاندفاعات العمياء، والقوة الجامحة التي مهرتُ في الهرولة بعيداً عنها. كلما شعرتُ بدنوّ شبح الحب في محيطي، هبتُ الوقوع في شرك حبائله. ألم يكن فيه مقتل أمي؟ أأتركُ لحزنه الممض أن يفترسني أيضاً؟ أأستسلمُ للكمد الجارف الذي حرمني رؤية ابتسامتها حتى فارقت الحياة؟ لكني دربت نفسي على الامتثال لنصيحتها وهي على فراش الموت بأن أرمي قلبي في الشارع، ألم يكن فيه نهايتها؟ لذا مهرت في طرد الحب عني حتى التقيت به.

رحلت أمي باكراً بعد أن قارعت حرباً ضروساً مع عائلة أبي، ولأنها الزوجة الثانية، غير الشرعية، عوملت كما تعامل الحشرات الزاحفة. قضت ليالي على عتبات بلاطهم ترجو وتشكو، وحين شكت فعائل أبي لشيوخ المدينة، أجبرهم الخجل والحرص على اسم العائلة بين تجار المدينة على الاعتراف بي. رحلت أمي بعد أن

انتزعت منهم غايتها المهزومة. حضر رجلٌ إلى قبونا القريب من جدران جامع العجان. سجّلها في المحكمة زوجة شرعية، ثم طلّقها وبذلك تبعتُ اسم أبي، بالاسم فقط، تُركتُ وإياها هكذا... نعاقب بما أسموه، جرم أمي، بفضح العائلة في المدينة، وبدأنا معاً نقارع أنواع الحياة الشقية وسنانها الجارحة.

بعد أشهرٍ من لقائي إبراهيم، كنتُ لا أزال تحت تأثير الخوف من الاقتراب، الهلع من السقوط، من رؤية الحافة وهي تحف قدمي وتدعوني للقفز. حرصتُ على أن أبقى ثابتة، وعاهدتُ نفسي ألا أواجه مصير أمي، لكنه الحب، الطيف الذي يدهم القلوب كفريسة، الحب الذي لم يعترف بإسلامي ومسيحيته، ولا بالسنوات العشر الفارقة بيننا. كان ساحراً طيباً، لكني كنتُ زهرةً برية، وحيدة وغريبة، وغير عارفةٍ بثراء العالم من حولي.

تحولت المدينة الظلماء إلى جنة. غدا المسير بين طرقاتها ويدي تشبك يده أشبه برحلة بعيدة عن مآسيَّ الآفلة. كان عارفاً بكل حجر من أحجار المدينة، يدخل أسواقها المقبية. يشير إلى كل تفصيلٍ وأثر وضربة معول في جدرانها. يتنسم هواءها سكرانَ، كما يتنسم الريح التي تعبر خصلات شعري، يصفها بأرق ما يمكن أن أسمع. كان شاعراً حنوناً. ينتظرني بعد عودته من مديرية الآثار، أذكر قامته المنتصبة لدى باب المتحف الوطني. المانطو الرمادي الطويل والسيجار الذي لا ينطفئ. كان حسن الهندام. حليق الذقن أبداً، خطّ الشيب رأسه فمنحه مسحة ذكاء وحدّة في الطباع. في بادئ الأمر ذُعرتُ من أسلوبه الذي تشوبه الأنفة والتضجر، شيءٌ مما لا يتماشى مع قسمات وجهه الأخاذ ولمعة صوته العميقة، لكنه كان مهذباً معي، ودوداً. وقع في عالمي وأثار في ركوده الصخب، التقطتُ

ضياء الهالة التي تدور حوله، منحتْه تفاصيلَ تُشعر المرء بالمثول أمام قامةٍ تجاوزت آلاف السنين لكنها نجت بأعجوبة. لا أقصد بذلك حس المغامرة بقدر ما أقصد ذلك الهمّ الرازح أسفل عينيه الكابيتين. تلك العلاماتُ التي تركتها الكتب والأبحاث والدراسات على وجهه صلبة.

حرص إبراهيم على نقلي على حسابه إلى شقة صغيرة مؤثثة بأناقة في ساحة القديسة تقلا. زرنا معاً كل ركن في المدينة وريفها، وحضرنا حفلاتٍ ومعارض. في إحدى المرات أخذني معه إلى بيروت، لقد خرجتُ يومها بكامل أناقتي، أتذكر كيف شهق حينذاك وهتف:

- حبيبتي وهي خارجة من أفلام الثمانينيات...

سافرتُ معه، وتكاد الطريق البحرية الواصلة بين سوريا ولبنان لا تفارق مخيلتي. كنتُ آمنة بين يديه، شعرتُ بما لم يمنحه أبي لأمي. بعدها عدنا إلى اللاذقية وبقيت الحياة مثل نزهةٍ لا ميعاد لنهايتها إلا حين أتذكر أنّنا من عالمين يدير كلّ منهما ظهره للآخر. لم يعترف إبراهيم بتلك الفوارق. كان يصف الفروق الكنسية والإسلامية بالهراء، يقول إنّنا نجابه قروناً من الهراء، لكننا كنا في مكان لا يعترف إلا بذلك الذي أسماه هراء. كنُت أدرك ألا مجال للسفر معه، فالسفر بعيداً عن اللاذقية وقريته كان بمثابة إخراج حوت من الماء. أمراً غير قابل للجدال، وهكذا، تحول الوقت إلى ثقلٍ يجثم فوق صدري، لا يأبه بحمله غيري، فيما إبراهيم غارقٌ في معتزله بين كتبه وأبحاثه في الغسانية.

أصلُ لمكان عملي، المطر خارجاً على أشدّهِ...

بعد عودة إبراهيم من آخر رحلاته إلى اليونان غاب صوته.

تلاشت معه النزهات والسهرات والإيماءات المضفورة بعمق الحب وفرادته. كان شعوراً قاسياً بعد أن تفتّحتُ على يديه. رميته بالقسوة، إلا أنّ قلبي كان لم يزل يرى فيه الطيبة والصدق. خلقتُ له الأعذار، آمنتُ أنه الطرف النقيض لأبي، الوجه الآخر لعملةٍ ظننتها صدئة، لكن إبراهيم الذي عرفته كان قد رحل بعيداً.

كان شخصاً غريباً. بدّلته غربةُ ثلاثة أشهرٍ. راحت الأعذار والهواجس تقفز في مخيلتي مثل سعادين برية. هل قابل فتاة ما؟ هل غشيهُ ملل الرجال؟ هل نفد حبه؟ كان في نبرات صوته نزقٌ هيستيري، لم يكن ضيقاً بقدر ما كان تبرّماً من أدنى حركةٍ أو كلمة. كان صوت امرئ يصارع الوقت ليحظى بفسحة تنفس، صوتُ أحدٍ مختنق، يهرول ويهرول من دون وجهة، يهاتفني ببرودة صخرة، وإذا ما أهملتهُ أسبوعاً بحاله -وذلك مالم يكن يطيق عليه صبراً- لا يكترث البتة، وإذا ما لذتُ للعتاب، يروغ وينسل من بين أصابعي كسائل الزئبق، يستقي الأعذار من هنا وهناك... ويضيع!

كان إبراهيم هائماً في عوالم بعيدة عني... لكني في لحظة ضعف: في صباح غائم منحني فيه الشتاء من الكآبة ما دفعني لصعودٍ الحافلة والذهاب إلى الغسانية. عزمتُ أن أحارب، لا لكي أعلم شيئاً، بل لأراهُ على حقيقته في حال كان لقاءنا الأخير. في طريقي إليه كان قلبي يصفر، خلتُها لحظاتي الأخيرة، أشحتُ بوجهي عن خضرة اللوز والصنوبر. كان قلبي يعصر نفسه، عالقاً في تلك البقعة التي يأبى العودة منها، هل سأعود من دونه وحيدة وخالية الوفاض؟

أمام منزل لا يخطئه حدس عاشقة، دخلتُ عبر فسحةٍ تفصل باحة المنزل المكللة بالأشجار عن البوابة. وطئت صخورٍ العتبة

المتراصّة، وقرعتُ الجرس. مرّت لحظاتٌ خلت أني سأقفل عائدة خائبة، لكن طقطقةً هربت من قفل الباب، برز عنها وجه رجلٍ نحيل ضئيل. لم يبُدِ دهشة، بل ابتسم مثل من يظفر بأحدٍ سمع عنه كثيراً، كنت على وشك مناداته حين تذكرت من يكون، لكنه قاطعني مرحّباً:

- الآنسة أميمة... يا مرحباً يا مرحباً...

تذكرته، هو سركيس خادم إبراهيم ورفيقه ومساعده.

- خادمكِ سيدتي.

لاح الحزن على وجهه، مدّ ذراعه نحوي وجذبني لداخل وكر حملي الوديع، لقلب معتزل إبراهيم الأثير. عرفتُ حينذاك كيف أنّ كلّ الناس الذين عرفتهم أنجبتهم بطون أمهاتهم، إلا إبراهيم، فقد ولدتهُ مجلداته. باغتتني جدران بلوحات كبيرة وصغيرة، صُلبان وتماثيلُ لأسودٍ برؤوس متعددة. مجسماتٌ لملائكة صغار، وفي غمرة ذهولي ذاك، قاطعني سركيس:

- السيد حزين... مشغول، مكتئب، في لحظات يبدو سعيداً وفي أخرى يبدو مهموماً...

إذن لستُ وحدي من يشعر بفقدانه، ها هو خادمه يعيش معه ويشعر بالغربة. لكن ضوءاً انبثق عبر رواق صغير. هرب من سحاباتٍ صباحية غائمة، انساب ساقطاً على ظهر إبراهيم المنكَبِّ على طاولته مولياً بصره لحاسوبه. كان قد مضى على معرفتي به أكثر من ثلاث سنوات، لم يحدث خلالها أن لمحتهُ بتلك الهيئة الرثة. كان شعره مشعثاً ووجهه أرِقاً، يظهر كئيباً من بين سحابة دخانه، فيما طال شعر ذقنه بصورةٍ عبثيةٍ وعيناه تسرحان بهشاشةٍ

مفرطة، تنظران إلى شاشة الحاسب دون أن يخفى على من يراقبه أنّه لا يدقق فيما لديه. وفي اللحظة التي أحس بدنوّي منه، رفع بصرهُ وارتعش مثل من لم يرفّ جفنه قبل أعوام طويلة. صاح فاتحاً ذراعيه:

- آه... أماليا!

ذهلتُ.

بلحظة واحدة أكلتني الغيرة. اعترتني كلّ مشاعر الغضب في العالم. حزنتُ. **أماليا**؟ إذن وقع في حب فتاة أخرى. أتراهُ سكران؟ أهكذا بعد الغياب والإهمال يبدل اسمي بأخرى؟ لكن قدميّ تجمدتا في مكانهما. صحا على سهوه، فضرب يده بجبهته خائباً، نهض عن كرسيه لافّاً ذراعيه حول جسدي لغابة صدره. فقدتُ أي شعور ناحيته، كنتُ أرتعش تحت تأثير غضبي، وحين هبط بعينيه إليّ مقدراً حالي، ضحك مثل من يمازح طفلاً:

- لا تحزني يا حبيبتي... ستعرفين أماليا يوماً ما وعن قرب.

- وهل هي بذلك القدر من السحر حتى جردتكَ من أحبائك؟ أجبته حانقة.

- أميمة الحبيبة... واقترب أكثر!

يا حبيبة! مضى وقت طويل دون أن أسمعها منه. خلتها لحظات لن تعود. أذهلني حديثه كما أثار استغرابي جرأته في وصفها، لكن ثقتي بنقاء سرائره أطفأت ناري. استأذن ليغير ملابسه، فيما راح صوته عبر الحمام يصدح كعصفورٍ يحتفي بربيعٍ جديد.

- اغلِ القهوة يا سركيس... فأميمة الحبيبة في ديارنا.

إلا أن سركيس نظر نحوي نظرة حائرٍ مضطرب، نظرة غير

المتأكد من صدق ما يجري. ربت على كتفي هامساً: لم يضحك ويشعر بمثل هذه السعادة إلا لحظة مجيئك.

كان في صوته عمقٌ وصدقٌ، لكنها نبرة لا تخطئها من اعتادت أن تكون طفلة منبوذة. هي راحة الذعر من قادم مجهولٍ، من سوءٍ يلوح في آفاقٍ ليست بعيدة. شعرتُ باقتراب مصائر غير مأمونة، واضطرب داخلي باحتمالات مكروهٍ سيحط برحاله حيث وقفت بكلي، ليست فقط هناك، بل على البلاد كلها.

قضينا يومذاك نهاراً جميلاً. كان إبراهيم الذي عرفت، ما خلا نهوضه الدائم من مقعده إلى ما خلف طاولته. يحكي عن رحلته الأخيرة كمن يتحدث عن حلم، يصفها بحلم حياته. يأتيني بصورٍ وأوراق، لكنها تتناثر على بلاط غرفته لشدة تأثّرِه. ثم يروح ويجيء. يرشف من فنجانه، ويشعل سيجاراً، ثم يتحدث عن قصة حب عظيمة وقع عليها. ولكنه يظل كمداً لضياع أجزاء منها. ما زالت الأسرار تحتل عقله، وتأخذ حيزها الأكبر عن تفاصيل الحكاية.

"حكايةُ عاشقين يا أميمة... لكنها لم تحدث هناك، ولا حتى قبل ألف سنة". ثم وضع عينه في عيني، فرأيت الأرق فيهما:

"حدث قبل قرون بعيدة سيكون اكتشافاً يهز العالم. سيحظى متحفك بالقصة، وسيحكي الجميع عن أساطير لاواديسا بحكاية حقيقية ومثبتة هذه المرة".

ونظر نحو السقف، ثم دار حول نفسه:

"يا إلهي.. كيف أوصلتَ أسرارها إليّ؟

لكن خيبة ما كانت تعود لتجلل ملامحه كلما سمع مني كلماتٍ

من مثل: كيف؟ لم؟ لماذا؟ وما البرهان؟

كان يتخبط. يروم حول غرفته ويخرج بالأوراق والصور. حكايات بلغات غريبة، ووعودٌ بإجابات شافية مع مرور الزمن. قضينا مساءً أكثر هدوءاً. بردت ناري، وعرفتُ حين رأيتُ معيشته معنى كلمة شغف. راقبتهُ منكباً على طاولته، فيما تمدّدتُ على أريكة قريباً منه، ألفّ جسدي ببطانية سميكة إلى جانب نيرانٍ عامرة. كان الدفء الذي نشدتهُ، دفء صومعته، وحنان ذراعيه اللتان راحتا تحيطان بي وتجوسان كل خلية من مسام جسدي. شعرتُ حينذاك بثقل صدره، وارتوى العطش. تبخرت كل الهواجس، وأيقنتُ بصدق خادمه سركيس. عرفتُ كم أحبه، وكم كان أيضاً. وبعد أن انتهينا، تمددتُ في سريره ويدي تشبك يده، نطق حينها بصوت خافت:

- حين أنتهي سنتزوج يا أميمة. سنذهب إلى بيروت وليحدث ما يحدث.

- كيف يا إبراهيم كيف؟

ـ دعيني أُنه ما بدأت به. سأجد حلاً، سأجد شاطئاً نرسو عليه معاً، أماناً أبدياً تظلين عبره إلى جانبي.

لحظتها، شدني من مكاننا الدافئ في غرفة نومه، لف جسدي وجسده بغطاءين سميكين، ميزنا الطريق عبر الظلمة بشمعة خافتة، وخرجنا شبه عاريين. همستُ مذعورةً: وسركيس... سيرانا

فأجابني هازئاً: سيكون في سابع نومة.

عبر الصالة المزججة بالأشياء، اجتزنا صالةً سقط عبر نوافذها ضوء قمرٍ شاحب. وصلنا رواقاً ضيقاً أفضى لغرف كثيرة، أشار بيده: هنا يا أميمة، لو حدث لي أي مكروهٍ ستجدين كل شيء. أثق بك.

صعد الدم إلى رأسي، واختنق صوتي. ضممتهُ إليّ كمن يشعر بقلبه سيطير من بين ضلوعه: ماذا سيحدث يا إبراهيم؟ لم ستتعرض للأذى؟

لكنه مد يده لمساحة فارغة بين عمودين، فأزاح الحائط بأكمله. قفز قلبي من مكانه، تكشّف المكان عن فسحة ضيقة تفضي إلى وكرٍ حقيقي يشبه ما نراه في أفلام هوليوود. مساحةٌ مؤثثةٌ ومرتبة بعناية. إبراهيم الآخر. وجهه الخفي، وكنوز حياته وأسرارها.

- لا وقت للشرح يا حبيبتي. ها أنت ترين كلّ شيء بعينيكِ والعين كافية لحفظ الأشياء وأمكنتها.

- هنا... وأشار لأرض الفسحة... ستجدين تحت البلاطة الثالثة كلّ شيء.

وجذبني من ذراعي وأغلق حائط الفسحة المستورة. تركني تحت رحمة أفكاري، من دون أن يشفي شقائي بجواب واحد. دون أن يروي عطشي لحاله. لكن رغد الدفء في سريره أنقذني من زحمة أفكاري، لذا سجلتُ المشهد جيداً في ذاكرتي "البلاطة الثالثة". لربما تكون هواجس باحث وهوس عالم لا أكثر.

بعدها بأسابيع، بدأت البلاد مسيرها نحو الهلاك.

تبدلّ كلّ شيء. خلع العالم وجهه السموح وارتدى أنياباً. ما حدث كان يفوق التصور، صفعة ماردٍ خرافي أيقظت سكان البلاد جميعهم. مواجهات، اقتتال، حرب شوارع، وميليشيات نبتت من باطن الأرض، ذبحٌ على الهوية، انفلات أمني في مدن كثيرة رافقه انقطاع للتيار الكهربائي. وقع حينذاك كلّ ما يدفع المرء لأن يلوذ بمنزله، ويحتمي من الخراب.

بـحّ صوتـي وأنـا أدعـو إبراهيـم للقـدوم إلى اللاذقيـة الـتي كانـت آمنـة نسـبياً. عـامٌ بحالـه، تخللـه انقطاعـاتٌ وخيبـات. لا أثـر روى ظمئـي لصوتـه إلا مهاتفـاتٌ سـريعة متقطعـة، وإبراهيـم هـو إبراهيـم، لا يغـادر صومعتـهُ. تسـمّر الجميـع أمـام الشاشـات وراحـت العيـون ترقـب الأنبـاء بهلـع. سـقطت مناطـق، وحوصـرت أخـرى. عمليـات إبـادة جماعيـة. قصـف لمناطـق عديـدة. هـو الخـراب، حيـث لا قانـون يسـود في ظـلال المـوت الكالحـة.

تناولـتُ ورقـة إجازتـي مـن الموظـف، وخرجـتُ أنشـد كراجـات المدينـة المغـادرة لقـرى الريـف البعيـدة. هـل حقـاً سـأعود بعـد مـرور ثمانـي سـنوات؟ هـل سـأنكص لقلبـي العالـق بـين ذاكـرة مشـاغبة وعقـل طفولـي؟ لكـن لا شـيء آخـر لـي في العـالم سـواه. أأتـرك فرصـة معرفـة مصـيره بعـد أن أشـيع عـن إمكانيـة العـودة لأهـالي القـرى المدمـرة؟ ألا أذهـب إلى الغسـانية مـرة أخـيرة وأطفـئ الغمـة لأضـع العبـارة الأخـيرة لحكايـة إبراهيـم؟

كان قـد مضـى علـى حصـار الغسـانية عـام ونصـف حـين رنّ الجـوال بعـد منتصـف الليـل. كنـتُ مثـل مـن دُقّـت عظـام جسـده بالمسـامير. أضـاءت الشاشـة حينـذاك باسـمه. هلعـتُ، شـعرتُ بخـرابٍ يلـوح، دقـاتٌ تنـذر قلـبي بإسـراع ضرباتـه. كانـت الشـبكة مقطوعـة منـذ شـهور طويلـة كيـف حصـل ذلـك؟ أجبتـهُ. كان سـكراناً... هائمـاً. أتانـي صوتـهُ كمـا لـو أنـه يخـرج مـن حفـرةٍ عميقـة:

ـ أماليا؟

ـ إبراهيـم... حبيـبي مـاذا حصـل؟ أيـن سـركيس؟ أخبرنـي عـن حالكـم؟ هـل تشـرب؟

يسعل ويسعل بشدة، ثم يبكي. يندب وينطق بكلمات غير مفهومة. رحت أبكي معه. أختنق لعجزي عن مساعدته. أشعر كما لو أن العالم قد استحال جداراً قائماً بيني وبينه.

- سأكتبها يا أميمة. إن لم يكتمل البحث ماذا علي أن أفعل؟ إن لم نستطع استكمال أحلامنا لمن نلجأ؟

- ماذا يا إبراهيم... تحدث... اهرب... تعال...

- نلجأ للخيال، في الخيال لن أكون ملزماً بتفسير الحكاية لأحد. به أروي وأقصّ دون أن أحتاج أحداً، فعالم الخيال واسع، يترك العقول مفتوحة على الافتراضات والأسئلة... سأروي وأقص المهم ألا تموت الحكاية. لن تموت يا أميمة...

ثم عاد للبكاء... واختفى صوته.

كانت ليلة عسيرة. اختفى بعدها كل شيء. أُعلن في نشرات الأخبار عن مقتل القائم بالكنيسة الأرثوذكسية في الغسانية، ثم تلته أنباء دمار كنائسها واحتراق أراضيها وحصارها.

إذن ليس أمامي الآن إلا أن أعود. الفرصة مؤاتيه والطريق مفتوحة. سأعود، لأجل وعدي لإبراهيم... ولأجل عينيكَ يا إبراهيم.

أرض الأرجوان

-7-

نهض الفجر منعشاً، وبدأت أماليا تفتح عينيها ببطء. لقد تبخرت آلامها. ولا أثر للتشنجات والوخزات القاتلة. كانت تتمدد هانئة على قش مغطى بكتّانٍ رقيق. تبسّمت للمرة الأولى ونظرت حولها؛ ثم علمت من تدافع الأمواج أنّها في كوخ بحريّ. حاولت استرجاع ما حدث معها؛ تذكرت أنينها الشبيه بمواء قطّة، كانت الآلام ليلة أمس تعصر معدتها، وجبهتها تتوقدُ مثل نار محرقة. لم يدر في خلدها أمر سوى تعاظم إحساسها بالألم، وعظامها المتكسرة جرّاء استلقائها على الأرض الصخرية. كانت الحبال تحرق معصميها، رفعت يدها فبان جلدها متقشراً ملتهباً، وبعدئذ لفّها الدّوار، تعمّق إحساسها بالتقيؤ على نفسها، لم يكن في الكهف أثرٌ لحياة، سوى صدى ارتطام الأمواج البعيدة. لا رائحة سوى لملح زاد شعورها بالغثيان، ولا نورَ ظلل المكان سوى كوةٍ غريبةٍ سُدّتً بصخرة كبيرةٍ.

كانت تعلم أنّها تحتضر، وأنّ الموت وشيك. كلّ شيء يروح ويجيء عبر ذاكرتها. يدعوها للرحيل، صورٌ عاتمة غائمة، ما خلا وجه جايون يمنحها مزيداً من الألم. لكن ما حدث كان عصياً على الفهم، حاضراً بغموض. تذكرت وقع الخطوات وفكرت ربما مر عليها دهرٌ بحالهِ. أسدلت جفنيها، تعاظم إذ ذاك شعورها بالغياب،

راحت المشاهد تختفي وتحضر، ذكريات طفولتها في كريت، وجه جايون، صور اختلطت برائحة الملح مع صوت جرس قادم من بعيد، لربما كان ثغاء غنمة. ما عادت قادرة على الحكم. باغتت حرارة لسانٍ رطّب وجنتيها. أدارت وجهها بتألم، إلى أن شعرت بيدٍ سقطت على جبهتها. مرت هنيهات غابت فيها عن الوعي، وهاً هي تنظر للسقف فوقها. يبدو كوخَ صيد قريب. ضجيج الميناء والباعة يعلو خارجاً، والمكان يطفح بالسلال والشباك. جالت بعينيها، لكن صبية فاجأتها. تحمل طبقاً من قش. وحين سقط بصرها على أماليا، شهقت مبدية سعادة وحبوراً:

- لقد استيقظتِ... حمداً للآلهة على سلامتك.

ابتسمت أماليا، تلمست الأخرى جبينها ووجهها.

- لقد زالت آثار النار المشتعلة عن جسدك، كنت بحالٍ مزرية حين وجدكِ زوجي، ولولا شرود غنمتنا، مصدر غذائنا، لخسرتِ حياتك.

أرخت قدميها على الأرض. ترنّحت. تمسكت بيد الصبية:

- كيف أشكرك على طيبتك وزوجك؟ أنتم أناس طيبون، سأجد سبيلاً لأشكره على حسن صنيعه معي.

-لكنك يا سيدتي تحتاجين لمزيد من الراحة؟

- لا أملك وقتاً للراحة. أشعر بصحة جيدة، ولا مزيد من الوقت أمامي لأهدره، يجب أن أذهب شمالاً وحبذا لو يكمل زوجك صنيعه بمرافقتي إلى خارج الأسوار.

- بشراك. سنقدم لك المساعدة التي تشائين.

نهضت تتهيأ بملابس قدمتها زوجة الصياد، ثمّ رحلت تنشد ضالتها شمالاً.

في ذلك الوقت كانت الاحتفالات تعم أرجاء أنطاكية وما يحيط بها؛ قرعت الطبول ابتهاجاً، وبدأ الناس بالتوافد لمشاهدة موكب الملك. كان جايون قد تجاوز تلك المشاهد قبل يومين، متجهاً لغابات غربي النهر. خرج على صهوة فرسٍ قوية، متجاهلاً كل معلم أنطاكي. لم ينظر للشوارع المتسعة ولا للأعمدة الفارهة. طاف السكون حولَ المدينة، كما كان فكره غائباً يسابق الوقت للعودة بأماليا. أنّبَه ضميره على ما أورثها من شقاء، واغتمّ لوقوعها ببراثن خصم لا صلة لها بمكائده. إلا أنّ المشهد بعد شروق الشمس كان مختلفاً؛ نبتت التزيينات والرايات من تحت الأرض، وتحولت المدينة الشمالية لأميرة مصقولة. استيقظت البهجة على وجوه الناس، عندما أفاق سلوقس مبتهجاً، كأنّه لم يذق طعم النشوة من قبل. كان برغم بنيته المعمّرة يشعر بقوةٍ هائلةٍ تستيقظ في داخله. إنه يومه المنشود. اليوم الذي انتظره وصديق عمره، الإسكندر، لحكم العالم من عرض مقدونيا. ها قد صار قاب قوسين، في مرمى يديه حكم المقاطعات من عرش الأجداد. استرجعه من خصمه ليساخوس. هزمه في كوربيدون. وصار الطريق إلى مقدونيا سالكاً، بلا خصوم أو مكائد. نهض يتهيأ للخروج، لكنه تأوّه إذ شعر بوخزٍ في صدره. كانت جراحه الأخيرة تؤلمه. هرعت آباما إليه مذعورةً، وقد أدركت أناته الخافتة، حمَلت صحاف الزعفران والخزامى وعطور المريمية المهدئة. ومسحت بها على مواضع ألمه، فقبّل يدها. مكتبة .. سُر مَن قرأ

ـ أنت لا تكبرين أبداً يا آباما. تظلين جميلة ولا أثر لما تفعله السنوات بك على وجهك.

تبسمت، نطقت بصوت يشوبه الحرص:

ـ هل سيطول غيابكَ هذه المرة؟ صحتك لن تساعدك لقطع كلّ تلك المسافة يا سلوقس...

ـ أبعدَ كل ما مرّ من أهوالٍ على هذا الرأس الشائب تخافين؟ لا تجزعي... سأهيئ إقامتنا الأخيرة في مقدونيا، سنعود لحكم البلاد من أرض الأجداد، وسأترك لأنطوخيوس حكم السواحل. عليه أن يعود ليستقر هنا ويحكم الحواضر والثكنات من عرش أبيه الأثير.

قطع حديث الملكين قدوم الحكيم أمفيون مستبشراً مهللاً:

ـ عمت صباحاً ملكنا المظفر... المواكب بانتظار أوامرك. والناس يهللون ويبتهجون لخروجك إليهم. ابنك أنطوخيوس في طريقه للمدينة. تستطيع الرحيل الآن، ولن ينقضي النهار حتى يصل إلى أنطاكية مع باقي أفراد عائلته.

خرج الحكيم بينما نهض الملك تساعده زوجته في ارتداء زيه العسكري: الدرع المفضضة فوق قطعتين منسوجتين من قطن يقيه حرّ الشموس، ورداءٍ تحتيّ يصل الركبتين. غطى قدميه بحذاءِ نعلهُ من جلد خنزيرٍ شُدَّ وثاقهُ بحبالٍ متينة من العوسج، ثم رفع تاجه المكوَّن من إكليل مذهَب لأوراقٍ زيتون وغارٍ، فصار آهلاً للرحيل. قبّل زوجته، وخرج يترأس موكبه. كانت قواته الكبيرة تنتظره على تخوم ما بعد النهر مسافة ليلتين، أما ما بقي من تلك التي شاركته موقعة كوربيدون، فلا بأس بها، سارَت خلفه صحبة القادة والتجار والحكماء، ومشى شيموئيل أيضاً مع القافلة صحبةَ نفَر من التجار، والكثير من الكهنة والعرافين،

بينما حاذى الملك من ناحية كتفه الأيمن حليفه الجديد بطليموس الصاعقة.

كان الشاب حانقاً. غمامةٌ من السخط والغيظ تحوم فوق ملامحه، لم يُنكر مساعدة سلوقس، فقد فتح له القصور ومنحه الحماية والمكانة، بيد أن وعده طال بلا أدنى اهتمام لمأساته. مر الوقت بطيئاً على قلبه، وتسلل الشك إليه. هل حقاً كما أخبرهُ شيموئيل؛ سيستغلهُ السَلوقيون كطعم سائغٍ لاحتلال مصر؟ أبعد معاداته أبيه وخسرانه عائلته ونفيه وطردهُ يرضى بهذه الأقدار؟ لقد عمّق مقتلُ ليساخوس هذه الأفكار في عقله، شعر بقيد سلوقي يلتف حول رقبته مثل رصدٍ. بل تزايد شعوره بأنه مغدورٌ أوقعَ به تمهيداً لمكائد قادمة. ها هو يفعل به كما يفعل الذئب بالنعاج، يطعمها حتى تسمن فينقضّ عليها دفعةً واحدة. كانت رأسه تضطرم، بينما تقرع الطبول وتهلل الحشود. بوركَ المسير إلى عرش مقدونيا، نساء رششنهُ بماء المعابد المقدسة، تحت سماء صافية تلتهب عبرها شمس ساطعة، منحت الورود والأزاهير المحلقة عالياً بريقاً ذهبياً يخطف الأبصار.

في تلك الأثناء كان جايون قد وصل إلى تخوم الغابات، حيث عقد اللقاء مع غريمه بين خضار الصنوبر والشوح الممتد بلا نهاية. لقد ابتعد كثيراً عن الديار، كانت تلك أطول مسافةٍ يمكن أن يجنح بها عن كوخه في لاواديسا. الأمر الذي زاد شعورِه بالرهبة والترقب، تلفت حوله حذراً، وصار أدنى صوتٍ ناتج عن طرطقة خشبة يابسة، أو تحليق دوريّ فوقه، كفيلاً بإجفالِه وإصابته بالرعشةً والترقب. تناوبت أحاسيسُ شتى على نبش روحِه، فما بين الحذر والحيطة والشوق، كانت عيناه تلتهمان كل ما يقع أمامهما؛ بؤرتان

جائعتان للحياة... لعينيها، وللأصداف المترامية على الشطآن البعيدة. نظراته الحائرةُ هنا وهناك، أظهرتهُ كمسحور يحيا تعاويذ غامضة، زادتهُ رغبةً في التحليق لما وراء العالم، إلا أنّ ما يحدث رماهُ في أكثر الوديان بعداً وقتامة. نسي ذعرهُ، وراح يغذّ في السير كما لو أنّ أبالسةً تعدو في أعقابه، كاد ينزلق في مرة، ويحطم رأسه بجذع شجرة مائلة، لكن دافعين قويين راحا يدفعانه لمزيدٍ من السير؛ كان الذعر أولهما، فقد همس إليه: "**إن تأخرتَ أكثر مما فات فستصيرُ أماليا لقمةً سائغةً في فم غريمك، حافظ على اندفاعكَ، وانجيا بنفسيكما.**" وقد كان ذلك كافياً لبث الحرارة في نفسه كلما دهمها الفتور والتعب. وأما الآخر فقد كان شوقاً يحدثهُ من وراء المسافات البعيدة، مالئاً جوارحه بصوتها: "**سأبقى بجانبك، لن أتركك وحيداً**". وكانت تلك العبارة الرقيقة بصوتها كافيةً لا لكي يجري بأقصى سرعةٍ نحو وجهته فحسب، بل لأن تجعله محلقاً، ولو نبت له جناحان في تلك اللحظة، لما تأخر عن الطيران بهما نحو المكان المنشود.

كانت الشمس تغرب إلى مكان آخر. بحث عن آثار المذبح القديم. أمسك بيده فأساً وبالأخرى عصاً مبعداً كلّ ما غطى دربهُ من أشواك. كانت لحظاتٍ عصيبةً؛ ضاق صدره واختنق باللهفة لرؤية أماليا. ها هي تحتل فكره وكيانه، وفي غمرة أفكاره، لاح خيال معبد منقض. بين أطرافه مقاعد حجرية لعابري السبيل، لكن حدثاً ما جعل كلّ ما في المكان يذوي، ربما كانت حرباً أو زلزالاً، فزال عنه جماله ودُكّت تصاويره. بدا هيكلاً تعساً، كوماً من خرائب جديرة بالبكاء على ما فاته من عزّ بائد، لذا لم يعد العابرون والفلاحون والفرسان يأتونه للتبرّك بقداسة مقامه.

أخذ موقعه على صخرة مستوية. وضع رحاله، مرجئاً إشعال النار مخافة لفت الأنظار، وجلس يترقّب كذئبٍ جريح قدوم غريمه.

❖❖❖

في تلك الأثناء كانت أماليا قد وصلت أطراف البساتين تنشد كوخ جايون، كم كانت خيبتها كبيرةً حين ألفتهُ خاوياً. طلبت من الصياد انتظارها خارجاً، ونفذت لجوف الكوخ باحثةً عن أثرٍ يُعلمها بأحواله. كانت الصحاف خاوية، ولا أثر لطعام يُذكر، وحيث يستلقي بدا مخدعاً لم يمسّ منذ أيام. المكان هادئٌ، لاً صوت يقطع صمتهُ سوى صدى الأمواج المجاورة. ساءها ما حظيت به، بل يئست من شعورٍ رنّ في داخلها كطبولٍ مشؤومة. بحثت بين الرفوف وخلف الجرار، داهمتها رائحة عفونة منسوجات رطيبة حُضِّرَت للاستلقاء تحت أشعة الشمس. أخبرتها الأحوال بطول مدة غيابه. ثمة أحداث طارئة إذن، لكنها تذكرت تدوينَهُ لكلّ حدث على لفائف جلدية من أمعاء حيواناتٍ مذبوحة. بحثت بين الأقمشة والرفوف، وانحنت أسفل مخدعه، فوقعت على حافظةٍ جلدية مربوطة بإحكام. كانت حبال العوسج ملتفة حول العقدة، لكنها حلّتها بصعوبة، فانبلجت غيمة كثيفة من غبارٍ مكدس. أصابها بالسعال، وحين التقطت أنفاسها، كانت اللفائف قد تكشّفت منسدلةً من الحافظة على أرض الكوخ.

حكاياتٌ وأحوال قديمةٌ، كلّ ما مرّ على رأسه، صبياً وشاباً، كل ما اعتمل نفسه من كروبٍ ومشاعر، أحزانٌ معتقةٌ، حنين لاهبٌ لعائلته المذبوحة. مناجاةٌ لإله شعبه القديم "بعل الكبير". تساءلت في سرها، كم كان شخصاً كتوماً وصموتاً؟ كم يحمل من الجبروت حتى أخفى ما بداخله من نيران مشتعلة؟ لكنّ كلماتٍ أخرى

داهمتها، حروف تشتعل بالحب، لم تدرك آثارها إلا حين غشيتها ذكرى لمسات يديه على جسدها، وآثار قبلاته على شفتيها:

وردتي البرية
مهجة السواحل الخضراء
موقدة آثار الموج على شواطئي
شعلة المعابد المقدسة
قربان السماء
بسمة الحقول حين تحضنها الخيرات
رعشة الوجود
زلزلة صدري حين ينطق حروف اسمها أماليا...

مكتبة
t.me/soramnqraa

انهمرت دموعها، وعبق وجهها بالحزنِ واللوعة. كان شعورها بحبه عميقاً، لكن رصدها عريّ مشاعره، كشف خلف صلابته قلباً رقيقاً ونفساً هشةً ضعيفة. كم اشتاقت لصحبته، كم تحنّ لنزهاتهما معاً. لذلك الشكل الذي جعل حياتها تصير عليه، بحجم السعادة، والانطلاق بحجم العدو على ظهر هابوبو. لكن ما حصلت عليه منحها مزيداً من الهم والتخوّف. أخذت نفساً عميقاً، صمّمت على أنها لن تتركه وحيداً، بل ستبحث عنه ولو احتاجها أن تنشب أظافرها في وجه شيموئيل لما توانت لحظة عن فعل ذلك.

ضمّت اللفائف إلى صدرها، أعادت إحكام إغلاق الحافظة الجلدية. ثمة شعور ينذرها بأن تخفيها بين ضلوعها. طوت أطرافها بحرص من يطوي أطراف جسدهِ، ودسّتها تحت ردائها، وخرجت.

❖❖❖

دهمت الظلمة أطراف الغابات غربي نهر أورنتوس. كانت

البرودة الليلية تسري عبر أوصال جايون، والتعب والإنهاك جليين على وجوه مرافقي موكب الملك إلى مقدونيا. لاحظ سلوقس بطء حاميته وتأخرهم عنه، فأعلن عن استراحة تعيد للجمع نشاطه وتشدّ عزيمته عند أطراف غابةٍ كثيفة. بدأ العبيد ينصّبون الخيام، وذهب آخرون لشي الطرائد والغنائم التي قنصها الفرسان خلال مسيرتهم. تأهب الجميع للخلود والراحة، ما خلا شيموئيل الذي انزوى ورفقائه. كانوا يتباحثون في أمرٍ خارج عن المشهد كله، في وقت ظهر الملك يتفحص بقدميه أرض المكان، ويتطرف في مشيه مع بطليموس الصاعقة. في تلك اللحظة السانحة، اقترب شيموئيل من الملك، وراح يتذلل ليعظمه وينحني حتى كادت جبهته تلامس الأرض. استغرب الملك قدومه إليه في مثل تلك الساعة، لكنه استظرف صحبة تلك السحنة الدهنية البشوشة، سيما بعد أن علم بما قدمه للسلوقيين من خدمات وكنوز.

- هل تقول إنّك تحفظ هذي النواحي بكلّ تلالها وسهولها يا شيموئيل؟

- نعم ملكنا المعظم... فعبدك تاجر، والتجار يحفظون مشارق الأرض ومغاربها، كثيراً ما سرتُ مع القوافل والبضائع عبر هذي الغابات، أحمل الأقطان والمنسوجات والأطباق النحاسية للبلاد المجاورة.

- إذن أخبرنا عن مكاننا بإسهاب؟

- إنّنا يا سيدي على أطراف غابةٍ تحوي معبداً كان شهيراً فيما مضى. كان بها من المعابد والمذابح ما يفوق ما في أراضي السلوقيين أجمع.

- هل حقاً ما تقول؟ مذابح ومعابد في هذي البراري؟

- نعم يا ملكنا. ولو أردت لصحبتكَ حيث يتربع مذبح قريب، له من القدسية والبركات ما يمنح القوة والصحة. كان موطئ معسكر ما، ولو رغبتَ لدللتك على دربه راضياً ومحبوراً.

نظر الملك لبطليموس الصاعقة، فغمزهُ الشاب معلناً رغبته القيامَ بتلك المغامرة الليلية. لم تمض لحظات طويلة، إلا وكان الملك ومرافقه، مع أربعة جنود، وشيموئيل يغيبون معاً عبر الأكمات والأدغال المجللة أطراف نهر أورنتوس.

في تلك الأثناء، مرّ الوقت ثقيلاً على جايون، كان مثل سجين مكلوم بظلمة حالكة. زادهُ الليلُ أرقاً، بينما نخرت عظامه صخرةٌ استند إليها. حاول تلهية نفسه وتعزيتها بالترجل والتسري هنا وهناك، لكن آلامه تفاقمت، فمسيره كان شاقاً وانتظاره بدا بائن الطول. التحف جسده بذراعيه يؤوي صدره من لفح النسائم الباردة. كاد صبره ينفد، ورئتاه تنفثان بين الفينة والأخرى كل ما حُبس داخلهما من هواء فاسدٍ.

مرت لحظاتٌ عصيبةٌ. كاد يتفطر قلبه. راح يعلل التعب بقرب لقاء أماليا، لكن وقع أقدام غيرَ بعيدٍ أجفلهُ من سُهاده. بدأت تقترب منه شيئاً فشيئاً، ليستْ دعساتُ شخص واحد، بل بدت دعسات قبيلة بحالها. تأهب دافعاً يده داخل ثوبه، أخرج خنجرهُ مستعداً لملاقاة ما سيأتيه من وراء الأكمات. مر الوقت ثقيل الوطء وسط ترقب وجزعٍ. بدأ العرق يزخّ من جبهته وأسفل ذراعيه، شعر أنّه غارق لا محالة، وما هي إلا لحظات حتى ظهر أمامه ما لم يكن بالحسبان!

فوجئ بمداهمة رجال شيموئيل السبعة من حوله. كانوا يراقبونه

طوال مسيرته دون أن يشعر بهم. يعرفهم جيداً، فهم بضعةٌ من صبية السوق ومرتزقته. يلعنهم التجار والباعة كلما طلعت عليهم الشمس، يعملون في كلّ شيء، حمالين وعتالين بالأجرة. وأما خارج الأسوار، فقد كانوا يحرثون الحقول ويسرقونها. لاحت له وجوههم تبرق مثل سنان مصقولة تحت أشعة القمر الفضي. حاول استذكار أسمائهم[27]: ديوتموس السلاميني، وديماغوراس، ونيكاتور البيوني، إلى جانبه وقف نيكون الهارب من جرائمه في هرقلة، وبينيس التراقي المعروف بشراهته للنار والخمر، وبعيداً استند لجذع شجرة ضخمة ديون الكورني، وبيرهيموس المكدوني، وكلاهما مجرمان معلومان لرجال المدينة وأهلها.

لكنهم كانوا جامدين كتماثيل ميتة، استمر الصمت هنيهات بدت دهراً، إلى أن ظهر شيموئيل وابتسامة الهزء على ملامحه، يلحق به شاب طافح بالوفرة والقوة، إلى جانب رجل شبه هرم مربوع؛ عرفه جايون جيداً من إكليل الغار المجلل قمة رأسه، إنهُ المظفر سلوقس! كان الموقف غريباً، لكنّ التفاتةً من الشاب المرافق لشيموئيل، أكدت له موتاً لا شك فيه، دفعت الرجال السبعة لمهاجمة الملك. راحوا يغرزون خناجرهم في جسده واحداً إثر الآخر. كانت صرخات ألمه تملأ الأصداء، ولا مجيب سوى حفيف أشجار الغابة الهامدة. خرّ الملك صريعاً، وأطلق حشرجات موت ترددت بين جذر المذبح المتهتكة. جرى كلّ ذلك في لحظات، حين سقط جايون صريع

---

27 أسماء المرتزقة السبعة: تم اكتشاف نصب من الحجر الرملي عليه كتابة يونانية في العام 1975 في منطقة ابن هانئ وقد عُدّ وثيقة تاريخية بالغة الأهمية ضمت أسماء مرتزقة عدّوا شواهد على الصراع بين السلوقيين والبطالمة للسيطرة على شرق المتوسط. تألفت الكتابة من عمودين ضمت أسماء سبع رجالٍ يبدو أنهم كانوا يعملون لصالحهم. وما زال النصب موجودا حتى اليوم في متحف مدينة اللاذقية **وقد استخدُمت اسماؤهم عبر متن النص على سبيل الافتراض والخيال لا التوثيق|** المصدر: الحوليات الأثرية العربية السورية. بقلم جان بول ري كوكيه.

الدهشة والذهول، جامداً كجبل من جليد. هرب الشاب الذي يشابه الفراعنة على فرسٍ تنتظره، فيما ابتلعت الأرض الرجال السبعة. كان جايون كمن يشاهد حلماً أسودَ، تبخر الجميع من أمامه، وبقي مع الجسد المرمي على أرض الغابة، فيما وجه الغادر شيموئيل يبتسم بظفرٍ وهناء: أأعجبك انتقامي يا جايون؟

لم يجبه، فقد كان معقود اللسان. هرع لجسد الملك الذي ينازع آخر أنفاسه. حاول أن ينطق بكلمات أخيرة، لكنه لم يفقه معناها. نزع الجسد عن الأرض ليحمله على كتفيه، كان به من الثقل ما ناء بجسدهِ أرضاً.

ماذا يفعل الآن؟ أين هي أماليا؟ أيترك جسد الملك ويهرب؟ رأسه تغلي كمرجل من نار. وأطرافه ترتعش بمهابة. شدّ الملك جاحظ العينين على ذراعه، حاول أن يقترب بأذنه من شفتيه. كان يتألم كأسدٍ مذبوح، صوته يختنق تحت تأثير نزعات الموت الأخيرة. إلا أن كلمةً واحدة نطقها أدركها جايون: أن... طو... خيوس...

قالها بعدها أسلم روحه للسماء، وساد صمت مهيب. مر ما حدث بسرعة البرق، وجايون المسجى بذهوله، يقف مهموماً ببليته. كان صدره يضيق، وحاله في ضنك وذعرٍ. تمنى في تلك اللحظات لو لم يولد، لو لم يعرف الحياة ولا العالمَ ولا الحبّ. مرت لحظات بطيئة عليه، لا صوت من حوله إلا دبيب نمل وأزيز صراصر الليل، بينما سطع القمر كشاهد أخيرٍ يسجل الوقائع بحشرية امرأة نمامة.

في ذلك الوقت الهارب من أحلك لحظات حياته، سمع جايون صوت شيموئيل يصرخ من بعيد، عرف مآله من الصرخة الأولى، علم حقيقة الفخ الذي أوقعه فيه. كان رهط من الجند والفرس يركضون

مثل نمورٍ جائعة، عرفهم من وقع أقدامهم المعدنية على أرض الغابة، أدرك مآل حياته القادمة من صرخاته المالئة أرجاء نهر أورنتوس:

لقد قُتل الملك سلوقس... مات ملكنا المظفر سلوقس.

أميمة وإبراهيم

ها أنا أعود لزيارة الأروقة التي نما فيها شبابُ قلبي، أعود إليكَ يا إبراهيم؛ أرتدي صليب صديقتي، أحملُ هويتها، وأدعي شبهها بوجهي البادئ بالتجعّد. وقد قررتْ ألا تعود، فضّلتْ ألا ترى خراب قريتها.

في طريقي إلى الغسانية، أسير على درب آلامي، أبحث عن الوجه الخفي للحكاية. أعبر كامرأةٍ بيدين فارغتين ما خلا صورة رجلٍ لم يعد لرحيله أدنى ذكرى. كُنتُ ملزَمةً بإجابة فوضى التساؤلات في داخلي، رغبةٌ دفينة للرقاد بسلام. في الطريق أوقفنا حاجز عسكري، وكنا سبعة متوجهين إلى القرية التي أُعلنت آمنة. قدمتُ هوية صديقتي، وعندما دقق الجنديّ في وجهي، شعرتُ أنّ الرحلة توشك أن تتبخر، لكنه سرعان ما أعاد الهوية وخبط بأصابعه على ظهر الحافلة إيذاناً بإكمال تقدمها.

لاحت الغسانية بعد ساعةٍ. لم أتمالك نفسي من البكاء، وجدت الديار خراباً. الأراضي محروقة، والأشجار متيبسة. لا أثر لذلك الخَضار المعرش فوق القلوب، لقد سُويت المنازل بالأرض. نزل بعض الركاب فيما بقيتُ حتى نهاية الطريق وحدي، وكان السائق يتابعني بعينيه صامتاً، يفهم معنى البكاء ويتابعه مثل من يقدس حرمة صلاةٍ طاهرة. سألني بعجل:

- لوين نازلة يا ستّ؟

ـ آخر الطريق... عند التلة.

وعلى التلة التي يتربع عليها منزل إبراهيم، كان الصمت يفرش أجنحته.

وافق السائق على انتظاري ومنحي بعضاً من الوقت. كان الدربُ متعرجاً، والنسمات الخفيفة تدفع النباتات لتصطدم بركبتيّ. بدأت أنعطف مع الأعشاب البرية، أصعدُ التل، فيتسع الدرب، وينفرج المكان عن رقعةٍ منبسطة. أتوقف لأستعيد أنفاسي، وأنظر نحو الجبال المنخفضةً في الأفق. قليل من أشجار اللوز كان قد نجا من المحرقة، وبضع أشجار حورٍ وأخرى برية يعسُر على بنت المدينة تسميتها. كان إبراهيم يقول:

ـ هنا هبطت الملائكة يوماً يا أميمة...

أعبر الرواق، وأخطو نحو السلالم المتهتكة. أرى زجاجات صدئة بين الأحجار، عبوات معدنيةً مغطاة بالعفن. قلبي يدق، أغذّ السير نحو المدخل، أنظر للوراء مجدداً، لكني أتعثر بهوةٍ سقطَت فيها بلاطات متكسرة. ألهث حتى أصل العتبة. يا إلهي... إبراهيم ما زال هنا!

رائحته تطغى على رائحة الخراب. اقتربتُ فسمعتُ الذباب يطنّ، وتفاديتُ ارتعاش أعشاش العناكب في مهب ريح مباغتة. ولجتُ عتمة الداخل، فكان عليّ أن أمنح عينيّ بضع دقائق لتتكيفا. وقعتا على ألواح متعفنة منزوعةٍ عن الجدران للتدفئة. كانت الأرض مكسوة بأوراق جافة، وزجاجٍ محطم، وفطورٍ برية. كما وجدتُ أعقاب سجائر هنا وهناك، وفوارغٍ رصاصات تختبئ بين الأعشاب القصيرة.

ثمانية أعوام وها أنا أنصت للريح والخواء. مزيدٌ من شبكات العنكبوت تمتد عبر السقوف الواطئة. أحدهم كتب عباراتٍ تنادي للجهاد، وأخرى لإقامة دولة إسلامية بريشة سوداء،

فيما تناثرت بين الأركان والزوايا أعشاشٌ لطيورٍ مهاجرة.

أغمض عيني برهة، أجلس حتى أستعيد توازني.

في اللاذقية صعب عليّ تذكر تفاصيل وجهه، كنتُ أفتح الجوال وأدقق كمن يريد حشو دماغه بها، لكن إبراهيم هنا يحضر بكلّه. تسترجع الذاكرة نفسها: ذلك الإشعاع الذكي لنظرته، ذقنه الحليق، ابتسامته المغلفة بحياء وذهن متقَد. هنا يحيا لآخر العمر، هذه الجدران تحفظ رائحته وذكراه، هذا المكان يحسّ بذبذبات روحه. أنهض وألج أكثر، تعود الأرضية للتهتّك، الموقد في زاوية الصالة محترق مسودّ، لا أثر لتلك الكتب واللوحات، بل كانت الجدران متقشرة، وحتى الأبواب لم أجد لها أثراً. **كان منزلكَ يا إبراهيم عارياً!**

هنا جلس وترجم وكتب وسهر وبكى وحمحم...

هنا ألصق ملاحظاته، وهنا بعد أعوام طويلة وضع يده على سرّ أسراره. أراد من عالمه قصةً عظيمةً وامرأةً يحبها، لم يثقلهُ بأحزانه وإحباطاته، بل بقي حياً داخل نفسه، رجلاً كصخرة. يدير ظهره للمستقبل ويتطلع إلى الوراء. إلى الماضي. وجههُ يلوح عبر الأعمدة المتهاوية. صوته يناديني ويبكي.

أنهض مجدداً. أنفض عني أوراق الشجر العالقة، وأخرج من الصالة. أعبر الرواق وأنتبه إلى تغير الإضاءة قليلاً، كما لاحظتُ تحطّمَ الجدران التي شكّلت فسحته السرية. وسط الفراغ وجودٌ بائدٌ وآثار لمعركة محتدمة. على أحد جدرانها بقع دم واضحة. بلاط الأرضيات على حاله لكن ما زخرت به من كتب ولوحات وتماثيل كان قد اختفى. أعدّ البلاطات من الخلف... أستعين بطرف عود خشبي كرافعة لقلب البلاطة الثالثة على ظهرها. أنجح، فتنبلج الأرض عن سرها. مغلّفٌ أسود محفوظ بعناية. أفتحه لأجد مغلفاً

آخر مخبأً داخل كيس أسود سميك. أجلس على الأرض المتسخة، فيما بوق الحافلة يدوي خارجاً. لكني لست في عالم السائق، بل في عالم إبراهيم، ها أنا أخيراً أقع على شيء من آثار يده. ها هي رائحةٌ جديدةٌ منه. أرمي الكيس والمغلف، فتخرج عنهما حافظة أوراق زرقاء. أرفع طرفها البلاستيكي، فأقرأ:

أرض الأرجوان

رواية

إبراهيم ناصيف

إذن فعلتها يا إبراهيم؟ منحتها الحياة؟ ها هو صوتك الرنان يصدح بين الأرجاء الخربة... **ها عندي شيء لك يا أميمة؟** رويتَ القصةَ بخيالكَ. هذا ما قلتهُ عندما كنتَ ضائعاً، عندما ضاع كل شيء، البلاد والفسانية وخيوط قصتك. قلتَ لا مجال لقص الحقيقة إلا بالخيال. هنا لا أحد سيطلب منك تبريراً. لا لزوم للتفسير، بل كتبت وكتبتَ، منحت حكايتك الحياة، حميتَها من الضياع، منحتَ الحياة والولادة وسط كم هائل من الخراب والموت... لم أستطع أن أمنع نفسي من البكاء، كان المخطوط مهدى بعبارة صغيرة واحدة: "**إلى أميمة... زوجتي التي لم تكن**". ضممتُ الأوراق إلى صدري، فيما بوق الحافلة يدوي مجدداً، فالسائق ملح. وأنا أعود من خيبتي وبين يديّ قصة مكتوبة. كان يعلم أنّها ستحيا من خلالي، كان يثق أني سأخبر العالم عنها، سيقرؤها الجميع، ويطبعها ناشر ما، لكن كم يا ترى من الأشخاص سيعلمون صدق ما جرى ما بين سطورها؟ كم من سكان المدينة سيعلم أني سكنتُ قلب كاتبٍ آواني كطفلةٍ ضائعة؟ كم من القراء سيدركون أنّ بين أطراف قريةٍ يونانية بعيدة، دُفنت قصة حب لاواديسية قديمة؟

أرضُ الأرجوان

-8-

مـرّ الليـل مضنيـاً علـى أماليـا. خيـالاتٌ سـوداء ألقـت بظلالهـا، حرمتهـا النـوم والسـكينة. لا أخبـار عـن جايـون، لكـن أمـراً واحـداً جعلها شبه متأكدة مـن حدوثـه؛ ثمـة شـرّ أصابـه على يد شـيموئيل. سـهرت طـوال الليـل، كادت أنفاسـها تختنـق لـولا تسـلّل خيـط فجـرٍ رفيـعٍ مـن نافذتهـا، أشـعرها ببعـض الانفـراج. تنفّسـت الصعـداء علـى إيقـاعِ النـور، واسـتكانت لانتظامـه المعتـاد.

كان جسـدها هامـداً، وهمتهـا فاتـرة. فقـد منعهـا الأرق مـن النهـوض. أوشـكت تسـدل جفنيهـا لـولا سماعهـا وقـع طبـولٍ تُقـرع. كان صـوتَ منـادٍ بعيـدٍ يخطـب بالنـاس ويذيـع عليهـم نبـأً مـا. مـرت لحظـات سـاكنة بعدمـا أسـندت وجنتيهـا للوسـادة الوثيرة، وأرهفـت السـمع للأثير علها تفهم كلماتـه الغائمـة، لم تحصـل على شـيء، سـوى غوغـاء سـرعان مـا تحولـت إلى هـرجٍ ومـرج. سـاد صخـبٌ وضجيـجٌ غـير معهوديـن علـى المدينـة الهادئـة. نهضـت تسـتطلع الأحـوال، ولأنّ منـزل أبيهـا الراحـل التصـق بمتجـره القديـم، منحهـا ذلـك موقعـاً سمـح برؤيـة سـاحة السـوق، مـع مراقبـة المـارة وسمـاع مـا تتناقلـه ألسـنتهم مـن أحـداث وأخبـار.

لاحَ الازدحـام مثـل خليـة نحـلٍ تكبر وتكـبر. تجمهـر المبكـرون لأعمالهـم حـول المنـادي الـذي غـام صوتـه، وكسـت ضبابيـةٌ رماديـة

معاني كلماته. غاب الصوت مع الريح، ولم تتمكن من التقاط خيط يوصلها للحدث الذي بدا غير عادي في الصباح. طاولت برقبتها خارج نافذتها وأصغت، فما من أمرٍ وصلها سوى ضجيج وجلبة راحت تكبر حتى تعالت الأصوات، وتحولت الهمسات لصياحٍ مرعب. جفل جسدها، وشعرت برعشة حين داهمت روبين مخدعها بصورة غير مسبوقة. كان وجهها يوحي بسوء قادم:

- خبر غير سارّ يا سيدتي...

لم تفسح لها الوقت لتكمل. علمت أنّ سوءاً يخصها، أحست بالخراب خارج المنازل كَقدَرٍ آخر من أقدارها. رمت رداءها عليها كيفما اتفق، وأسرعت تلحق بها روبين مذعورة. لم تبصر أحداً بين الجموع المحتشدة والأصوات الصاخبة. لم تبصر في الحقيقة سوى وجهَ رجلٍ جالس، شبه عارٍ، مثل حيوان مربوطٍ تقتاده السلاسل، ينعرهُ جنديان بأقدامهما، ووجهه يئنّ تحت وطأة الآلام والأوجاع.

- يا إلهي... جايون!

صعد الدم إلى رأسها. ارتعشت شفتاها. أحست بحنجرتها جبلاً من جليد، لكن كل ما فيها كان يندفع إليه، وحين همت نحوه، أمسكت بها جاريتها مستنجدة:

- بحق الآلهة يا سيدتي لا تذهبي... ألا ترين أنّ جرماً كبيراً يحوم حوله.

- ماذا تقولين... جايون ليس مجرماً يا عبدة السوء...

وحين بدأ المنادي ينطق بالخبر، همد الناس ليقتفوا آثار كلماته: "**أيها الناس... يا سكان لاواديسا العظيمة... هذا ابنكم جايون... جايون الفينيقي... جُرم مساء أمس بخيانة عظمى.**

تبع الجشع فخان ملكنا وحاكم بلادنا المظفر "سلوقس العظيم". خان حكامه وتواطأ مع غريمه ابن ملك مصر فقتله، لكنه وقع بيد فرسان الملك أيها السكان فلتعلموا من لم يحضر، ستجري مراسم دفن الملك في مدينة سلوقية بعد تنفيذ حكم الموت للمجرم صباح الغد في ساحة لاواديسا. هذا ما حكم به الملك أنطوخيوس ابن سلوقس، حتى يكون عبرة لغيره، ولذا سيربط في هذه الساحة على مرأى من الجميع، ويمنع نقل الأحاديث أو الطعام إليه حتى يبرز فجر الغد، وحذار من الاقتراب إليه، هو تحذير لجميع سكان لاواديسا".

طوى المنادي الصحيفة. استدار إلى عمودٍ وسط ساحة السوق، حين راح آخران يركلان جايون ويسحلانه حتى طرف العمود. علت أصوات الناس، لطموا وجوههم وثاروا بكلمات غير مفهومة. راغوا بهرجٍ وصخب، بعضهم لا يزال شدهاً لمآلات الخبر، وآخرون اكتفوا بالتحسّر، فيما لاح الغضب على آخَرين همّوا برجم القاتل بالحجارة.

كان جسده مثخناً بالجراح. لا أثر سليماً فيه إلا للكلماتٍ تخبر بتعذيبه. وجهه صارمٌ صامت. لا يصدر عنه أدنى شعورٍ، يشبهُ صخرة يابسة. عيناه فارغتان تحدقان في شيء بعيدٍ عن الساحة والمنازل، بعيد عن البحر والسواحل كلها. وكأنّ نبأ الإعدام لرجلٍ غيره، لم ينبس بنأمة همس، ولم يصدر عنه أدنى تمنع أو ارتعاش، بل ظل صامداً كتماثيل المعابد. رأسه يرتفع عالياً، يهتز بلا مبالاة كلما لطمه أحد الجنود، بقي كما هو، محدقاً. تمثال قاتم يائس لا جدوى فيه ولا شعور.

كانت أماليا غارقة في بكاء مرير، ثمة عبث شيطاني عمل فعله

بأقدارهما. كيف ستتركهم يقتلونه؟ كانت مستعدة لتقسم على الملأ ببراءته. لا بد أنّ لشيموئيل يداً في قتل الملك. كان وجهها عبقاً، وجسدها يرتعش. منعتها جاريتها من كشف ما يفضح سرائرها. ارتفعت الأصوات داعية للحياة المديدة للملك الجديد، وباللعنة للقاتل المجرم. عاد الجميع من حيث أتى. وبدأ الضجيج بالخفوت شيئاً فشيئاً. هرع الناس لأعمالهم وآمالهم، بينما دارت علائم الواقعة في خلسة على الألسن والشفاه، في وقت بدا فيه جايون مربوطاً كحيوان بري لعمود حجري، يحرسه جنديان صارمان.

شدت الجارية يد سيدتها وجرّتها نحو الداخل، أجبرتها بصعوبة على الاحتماء بجدران المنزل، وهناك كانت الجائحة! صرخت أماليا. أنّت مثل لبوة. كسرت كل ما وقع تحت يدها، جرارها المصدفة، والأباريق الكريتية، صحاف أبيها المنقوشة في تساليا. كان كل ما فيها يصرخ "**لا**". كيف ستواجه لوحدها ذلك الكم المهول من الظلم؟ كيف ستواجه خبث شيموئيل وحيله؟ أنّى لها أن تصارع أمراً ملكياً يقف خلف تأييد الكهنة والحاشية وكلّ فرد في المدينة؟

كانت وحدها من بين الجميع تعلم من هو ذلك الرجل، وتوقن ببراءته المطلقة. وحدها مثل غيمة بيضاء مقابل جبال من عواصف سودٍ وزوابع قاتمة. أدمت يدها، أصابت وجهها بشحذة فخارة أدت لانسلال دم رفيع جرى لشفتيها. لم تشعر بملوحة الدم بقدر ما شعرت بالمرارة واليتم. كم تمنت لو قتلت شيموئيل بيديها، وكم شعرت بالندم لأنّها آمنت أنّ هذه الأرض تنبت أحلاماً بيضاء. جلست على الأرض، تتمدّد كجثة هامدة، لكن أمراً طرأ على بالها، دفعها للنهوض مثل عاصفة، أسرعت إليها روبين. سدت الباب بكلتا يديها، ومنعتها من الخروج، لكن أماليا مسحت بكم فستانها

دموعها وأزاحت آثار الدم عن فمها. ناحت بصوت مصمم:

-يجب أن أفعل شيئاً ما... سأحاول أن أفعل شيئاً لإنقاذه...

-كيف يا سيدتي كيف؟ ألم تسمعي أنّ الملك سيعاقب ويجرّم كل من كان على صلة به؟ أستحلفك بروح بارسينو الهدوء...

همدت بقلبٍ مضطرب. كاد المساء ينسدل حين هدأت ساحة السوق. لا صوت يخرج سوى مواء قطط بعيدة، بينما توسّطَ الظلمة قمرٌ صيفي هابطاً على عمود نصفي. كان جايون يركع مستنداً لأحجار العمود. استند حارساهُ إلى جدارٍ غير قريبٍ منه، يغطان في نوم عميق. كان منهمكاً، يُعمل يده في حجارة العمود، وهو في الحقيقة فوجئ بتلك القطعة المعدنية ذات النتوءات الصدئة. راح ينحت في جدار العمود، يخاله المرء هارباً خلال لحظات، إلا أنّ أمراً آخر خارجاً عن حسبان المساجين يفعله. كانت يده المقيدة بسلاسل ثخينة تنحتُ أسماء القتلةِ السبعة؛ مرتزقة سوق لاواديسا: نيكون... ديوتيومس...

عمل بخفة وسرعة، بعينين ثابتتين، لا ترتعشان، ووجهٍ مدمًى، وشعر مشعث. لا أثر في ملامحه إلا للتصميم. كان على وشك الانتهاء حين جفل على إثر همسٍ قريب. ظهر له شيموئيل، عاد يحوم حول ساحة جريمته. لم يبالِ بمجيئه، بل عاد ينحت الحروف بخفة أكبر تحسباً. لم يكن في وجهه آثار لكَلمات تصف شعوره، بل اكتفى بالحديث إلى الصخور، كانت خير من يحادث. بعد فقده إيمانه بسمائه وقدرات آلهته. سيحكي للصخور الصماء، علّهاَ تحفظ صك براءته، وتخبر به أهل المدينة. ثمة شعور داخلي يملؤه بالغبطة والسكون، لن يبحث عن براءةٍ تمنحه حرية آنية، بات يرغب في التحرّر بصورة أبدية، ذاك الشعور الجارف بالانتقال من

عالم إلى آخر، بمسح كلّ ما يحتويه رأسه من ذكريات وأسماء وأمكنة، والبدء من جديد.

ـ ها... أما وهنت عزيمتك يا جايون؟ أما آن لك أن تستكين وتضعف؟ همس شيموئيل المختفي بخسة من خلف العمود...

لم ينبس بأدنى حركة أو صوت، بل ظلّ يكمل مهمتهُ وعيناه مصوبتان إلى ما تنحته أصابعه.

ـ نجاتكَ بيدي... أذعن، اقبل شراكتي، وسنغزو سواحل فينيقية معاً. لدي ما يجعل هذين الحارسين يهرولان عدواً حتى أبعد ساحل في الغرب. سأدفع لهما ما يدفعهما للتخلي والرحيل، فقط أذعن...

بقي جايون على حاله، لكن ما لم يكن في حسبانه، ظهور تلك الكتلة المختفية في الظلام مذعورة، كانت أماليا وجاريتها تتخفيان وتُصغيان، ظهرتا على مسرح الأحداث كما لو أنّ الآلهة تنوي صَبّ الزيت على نار عذابه. لمعت عينا شيموئيل، صُعق إذ شاهدها لأول مرة مذ هربت من كهفه.

ـ جايون...

ارتعش جفنه قليلاً. توقفت يده، لكنّ نظره بقي ثابتاً، كمن أقسم ألا يُحدّث إنسياً في ذلك المساء.

ـ أرجوك... أصغِ إليه، أعطه ما يشاء وتعال نهرب معاً.

لم يجب، بل ارتعش جفنه الأيمن بسرعة. تجمدت أصابعه على صخر العمود. كم خشي النظر لعينيها، كان يعلم بسطوة نظراتها. سيضعف على الرغم من احتراق قلبه شوقاً، إلا أنّ عزيمته كانت

من الكبر ما منحها الصلابة لطرد كلّ ضعف. لم يكن حينذاك جايون العاشق، بل الطفل المكلوم بمجزرة عائلته، والشاب الذي عاشر البحر والبراري حاملاً ذكراها على كاهله، لم يكن حينذاك جايون الإنسان. بل الإله الذي اختار في تلك اللحظات تقديم دمه ليحيا وعدهُ لأبيه. كانت مخيلته تطوف بوجوه أسرته، أبيه، وأمه، وأخوته. داسَ على كل شعور جميل في داخله، أشاح بوجهه عن القادم، أراد أن يبقى حياً في ماضيه البعيد. تأججت أحزان قلبه وثبت جفنه مجدداً. وما هي إلا لحظات حتى عادت أصابعه تنحت الاسم الأخير بتصميم أكبر من ذي قبل.

صرخ شيموئيل بسخط وخفوت:

- غبي... الموت قليل عليك أيها الأخرق. رماه غيظاً بقطعة حجر وهرول مبتعداً. تململ الحارسان في تلك اللحظة، لكن أماليا لم تيأس. اقتربت من جايون وصوت دموعها وعبراتها يختنق في حنجرتها.

- أرجوك يا جايون... ما زال هناك فرصة أخيرة... أرجوك تعال معي...

لم يجب. بل أجاب صوت أحد الحارسين الذي تهيأ له سماع جلبة وهسهسة، جذبتها يد روبين تعيدها للظلمة بذعرٍ دفعهما للهرولة بعيداً في عمق المدينة الساكنة.

عاد الحارسان لنومهما، وعادت أماليا تعارك خيبتها، وشيموئيل يعض سخطه متوعداً بنبش السواحل من أعلاها لأدناها. راح يرسم خرائطهُ، في وقت كانت يد جايون الشيء الواحد الحي. كانت تتحرك بسرعة كمن ينجز مهمته الأخيرة، بينما سطعت

سماء لاواديسا الصيفية المقمرة خالية سوى من دمعةٍ قاهرة نزلت من عينيهِ، وجرت خلف دعسات أماليا.

❖❖❖

قضت أماليا ليلةً عصيبةً، شعرت بقرب انهيارها، عندما خرجت بأفكارها السوداء بعيداً عن جسد جايون الممزق خارج الأسوار والأسواق ذات السقوف المسطحة. كانت ترغب بالصراخ، لكنها لم تقو على الحركة. وبدلاً من النظر إليه، حدقت في الفراغ. تركت عقلها يطفو حيث الملاذ الآمن، هناك: حيث البحر، والمياه المالحة المتماوجة، وعشرات الأصداف، وحيث الكوخ كما بقي في مخيلتها، يتراقص كما لو أنّه عالمها الوحيد. كوخه وجسده ينتصب كإلهٍ تحيط به الأمواج، يداه تعملان وجسده المكتنز الأسمر يغمر جسدها عن بعد. هناك عرش بأفكارها، ونأت عن العطب المثار حولها، لتلوذ وتستقر أحلامها مثل لبوةٍ متعبة.

عندما أشرق الصباح، حين تجمّع سكان لاواديسا؛ انزلقت جموعٌ من القرى والأحياء المترامية خارج الأسوار، كان الجميع يلهج بالحديث عن مراسم إعدام قاتل الملك. انتقلت الحكاية على الألسنة للمسافرين الواصلين لتوهم في الميناء. كانت أماليا وجاريتها روبين تنسلاّن من بين الحشود هاربتين. تغطي رأسيهما أردية ثقيلة ممّا ترتديه النسوة في الصحاري الحارة، لحق بهما عبدان حملا أثمن ما تمتلكانه من متاع. عقدتا العزم على الهرب فجراً، فقد توعد شيموئيل بالنيل منهما، إضافة إلى أن ما بها من كروبٍ، أشعرها بالعجز عن مشاهدة مقتل جايون أمام عينيها. وفي الحقيقة من جهة أخرى، لم تعد تقوى على العيش في تلك البلاد. كانت تصطدم بالحشود وتسرع لاهثة، تخنقها العبرات، وعيناها محمرتان جرّاء

التفجّع ليلة الأمس. أشاحتا بوجهيهما تنشدان سفن الميناء القريب، بينما شعرتْ بحنجرتها حرارةً تكوي كل قطعة من روحها .

ثمة مانع يحبس الفرح عن هذي البلاد . ثمة رصدٌ أو لعنات، كأنّما إله غاضب ابتلاها بالكروب ثمّ رحل ناسياً في لحظة عابرة منحها ترياق النجاة. ثمة سحرٌ يجبرها لتخنق نفسها وأحباءها، لعلها خطيئة الحسد، أو مثالب الجمال المحاط بكثير من القبح، ما أصابها بتكالب شعوب البحر والأمم بنهم سيّالٍ ونوايا جائعة. لربما كانت كما قال بارسينو العجوز يوماً: **هربنا مبكراً... كنا نعلم أنّ الخراب سيصير سمة بلادنا، كنت أشعر وعائلتي ونحن نهرول بين جبال جابالا أنّ الموت صار سيلاً هادراً مذ وطئها الإخمينيون، أدركنا أنّ فوهة الخراب الأبدية فتحت فمها لالتهام كلّ ما يحيا فيها. عقودٌ من الحياة، حضارات وبشر وحكام اندثروا، ولعلّ الحريق مكتوب كقدرٍ لا فكاك منه ولا هرب.**

خرجَت أماليا من ذهولها حين ظهر جايون وقد غمرتهُ شمس الصباح، حملته بعيداً عن الصرخات والضجيج المحاط به. أحسّ أنّه في عالم آخر، كما لو أنّه محميّ بجدران رحم أمه. اقترب منه حارساهً. فكّ أحدهما قيده وأوقفاهُ على قدميه، فشعر بالدم يسري حارقاً بين أوصاله. سرعان ما بدأ يخطو برشاقة من يذهب ليحتفي بالموت. راح يتقدم الجماهير شاعراً بنفحاتٍ إلهيَة، نظر إلى السماء متسائلاً: هل كانت حياةً تستحق العيش؟

أثقل عليه صمته في تلك اللحظات. كان الجمع يتدافع كوحوش ضارية، وقد امتلأ خلاء التترابيل مكتظاً بالسادة والجموع والبغال. نساءٌ ظهرن على ظهور الدواب يترقبن إعدام قاتل الملك، ورجالٌ حملوا أطفالهم على أكتافهم. رأى صف القوائم الخشبية، مصغياً

لصراخ الحشد وعويله. مناشداتٌ حارقة للنيل والثأر من قاتل الملك وشريكه الهارب بطليموس الصاعقة، لكنّ عينيه مثبتتان على السماء أعلى منصة موته. زأرت أصوات الحماسة، فيما نشاط الجلادين على أشده. الجميع مثار. لكنّه لم يشعر بالجزع، ربما كان صبر من يحيطون به نافداً أكثر منه، مما أثار استغراب الجماهير. لكنه كان قد اختار الرحيل. نظر إلى السماء بامتنان، حينها تمنّى لو كانت أماليا آخر ما يراه في العالم، أماليا والبحر. صعد السلالم وتفاصيل وجهها تسكنه. كان يريد أن يقتنع بتقديمه نفسه أضحيةً لكل ما أحبه: لأرضه، لوعده لأبيه، لأماليا. بزغت آلامٌ حادةٌ على ملامحه، ورغم مقاومته العنيدة، شعر بألم في أطراف قدميه. أبقى عينيه مغلقتين لحظات، وعند فتحهما دغدغته أشعة شمس الصباح، كان قد وصل للمنصة حين فتح بصره وفوجئ بموقع يشرف على المشهد من علٍ.

أول مرة رأى لاواديسا بهذا الاتساع والوجود المفرط بالجمال. سمح له موقعه برؤية الحشد، والمدينة والأسوار. سمح له برؤية آخر ما تمنّى رؤيته، هناك في الأفق الأزرق الممتد بلا نهاية، صعدَ آخر درجة ورأى على الخشبة ثلاثة مشاهدَ لموته الوشيك: شراباً ساماً وسيفاً وشعلة نارٍ، سيكون آخر ما يختاره في العالم طريقة موته، لكنه لم يكترث، بل ابتسم ونظر ناحية البحر، وراقب رحيلَ زورقٍ يخطّ الموج نحو أرض جديدة بلا ميعاد...

إبراهيم ناصيف (2014)

مكتبة
t.me/soramnqraa

شكر

ولدت فكرة الرواية قبل سنواتٍ طويلة، في بيت عربي قديم وسط مدينة اللاذقية. لم يعد موجوداً في مكانه اليوم. بدأتُ كتابتها قبل عامين واكتملت اليوم في أوائل خريف عام 2021. أقدم شكري لكل من وفر المخطوطات والدراسات من أبحاث ورسائل ماجستير ودكتوراه من الأصدقاء في جامعات سوريا والعراق مما تخصص بدراسة تاريخ المنطقة القديم، ولكل من أمدني بالخرائط والمراجع من مترجمين وباحثين، وأخصّ بالذكر الدكتور سليمان غانم، المتخصص في التاريخ والأستاذ في جامعة تشرين على قراءته وملاحظاته على مخطوط الرواية. وهكذا حتى تشكل هيكل النص أشكر كل من قرأ المسودة من الأصدقاء والكتّاب؛ إليهم جميعاً ولكل من دعمني في الحياة والكتابة أدين بهذه الصفحات.

مكتبة
t.me/soramnqraa

غنوة فضة

كاتبـة وروائيـة سـورية، مـن مواليـد مدينـة اللاذقيـة (1987).
صـدر لهـا روايتـان: **قمـر موسـى وشـجرة الكليمونتـين**، ومجموعـة قصصيـة بعنـوان **الهـروب الكبـير**.

إنها رواية لاوديسا/ مدينة البحر وأرض الأرجوان في ماضيها المستمر، التي يلتقي فيها زمنا القص على حقائق واحدة تنسجها الحروب مصحوبة بقصص الحب التي يمتزج فيها الواقع بالمتخيل في فضاءات معذبة تتكشف فيها اضطراباتٌ سياسية واجتماعية إبان حكم السلوقيين للمدينة. وبين الواقع والمتخَيل، نقرأ سرداً مغلّفاً بسردٍ آخر، حيث يفسح الراوي للتاريخ بما يحتويه من اضطرابٍ، أحدثه غزاة وقادة، فرسانٌ ولصوصٌ؛ أن يطلّ على حكاية واقعية لحرب معاصرة شبيهة بتلك الحرب القديمة، وبما حل بسكان المدينة قبل قرون. كما لو أن الزمن يدور، ويؤكد محنة الإنسان في الحروب، ووقوفه الحائر بين البقاء حاملاً صليب آلامه يدافع عن القيم الجمالية، وبين الرحيل الذي يسبب آلاماً كبيرة. إنها قصة تروي مأزق الإنسان الأزلي في الأمس واليوم وفي الغد أيضاً، بين أن يبقى أو يرحل، بين أن ينتمي أو يصبح من غير انتماء.

فواصل
للنشر و التوزيع

telegram
@soramnqraa

ISBN 978-9933-634-36-0
9 789933 634360